

# عناق عند جسر بروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

**RAYAHEEN**

www.mlazna.com

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com) - RAYAHEEN

## عناق عند جسر بروكلين

سألتني بماريك: لِمَ كنت أفر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف  
سألتها؟ كيف سأنتظر إليها، وكيف نتقابل؟ هل أحتضنها أم  
نسلم باليد كالغريباء، أم نقبل بعضنا على الطد كالأصدقاء؟  
وماذا سنقول لبعض؟ سنحدث عن أسباب تواجدنا في نيويورك.  
سأقنّ عليها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة  
عام أوشك على الانتهاء، وسنقول في ما أتى بها. ستسألني عن  
أخباري في مصر، وأخبار سلمي، وسأسألها عن تطورات حياتها  
منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لاستخدام  
ملثما كانت تخطط، أم ظلت في ليدن ملثما كانت تريد، ومصير  
بيتها الصغير، ثم نصمت، ونرتشف شيئاً من شراينا. ربّما  
يقاطعنا التادل بسؤال، ثم نستأنف الصمت. هل ستسألني عن  
حياتي العاطفية؟ هل أسألها عن هذا اليوناني الذي ذكرته في  
رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئاً عن يونانيها أو عن غيره. هل  
سننظر في الموضوع المعقد؟ هل سنحدث عنا، عنا جرى؟ لم تلق  
وجهاً لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ اطلقنا على أن تأتي في  
عيد الميلاد، وتقيم معي حتى ترتب أمورنا.



# عناق عند جسر بروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

دار العين للنشر

عناق عند جسر بروكلين

(رواية)

عز الدين شكري فشير

الطبعة الأولى / ٢٠١٢ هـ ، ٢٠١١ م

محرق الشبح مطبعة



دار العين للنشر

٩٢ كورنيش النيل - روض الفرج - القاهرة

الهاتف: ٢٥٨٨-٣٦٠ ، فاكس: ٢٥٨٨-٩٥٥

WWW.darainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ.د. محمد الهادي

أ.د. فتح الله الشوب

أ.د. محمد يسوي

أ.د. مصطفى إبراهيم الهادي

المدير العام

د. فاطمة الهادي

الكتاب : ص ٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٢١/ ٢٠١٢

١-٥-١١٧ - ٤٩٥ - ٩٧٧ - ٩٧٥



بطاقة فهرسة

فهرسة أكتاف البشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

فشير، عز الدين شكري

عناق عند جسر نروكلين: رواية/ عز الدين شكري فشير.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص: ١ سم.

تسلسل: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١١٧ ٠

١- القصص العربية

١- العنوان

٨١٣

رقم التتبع / ٩٦١١ / ٢٠١١

إلى أسماء

# 1

## کتاب درویش

کُلّ هذه السنوات مع مقعده الأثیر، ولا یجد بعد جلسة تریحه. عیناه تزلزله. صفحات الکتاب تتماوج، وتداخل کلماتها. قَرَب درویش الساعة من عینیه، وضمتها کئی یرى: "الخامسة... أماسی ثلاث ساعات حتى یصل المدعوون". یوسف یصل فی الساعة. ذکره أن یأخذ المترو، فالتحق مزدحمة، ولو أتى بتاکسی کعادته سبأخر. بدا علی یوسف أنه تضایق من الملاحظة، لم یفهم لم تضایق ابته، فهو یحتاج وجوده بالیهت قبل المدعوین بساعة علی الأقل. کان من المفروض أن یأتی فی الصبح لمساعدة کتبی فی الإعداد لعید المیلاد، والإشراف علی ما تفعله، ثم اتصل بالأمس، وقال إنه یرید أن یرى بعض زملائه القداسی بنیویورک، ومن

ثم سيتابع التحضيرات مع كيتي بالتليفون وبأني في السابعة. يتابع معها بالتليفون! هذا لو تذكر أن يشحن تليفونه! لا ضير إذن في تذكره بأن يأتي بالثرو فهو يحتاج أن يراه قبل وصول المدعوين. باقي ثلاث ساعات على وصول المدعوين، ويبدو أن كيتي تقوم بعمل طيب. مَرَّ عليها بالدور الأرضي منذ ساعة، وتأكد من سيطرتها على الأوضاع. خرجت بعدها لشراء بعض الأشياء. باقي ثلاث ساعات، وهو وقت لا يكفي للقيام بعمل ذي قيمة، كالكتابة. حاول محضية الوقت في القراءة، لكن عينيه تؤلمته. شعر بالحسرة على ضياع هذه الساعات هباء في حين لن يجد الوقت بعد ذلك لإنهاء ما يجب عليه فعله. لم تَمْ يَخترع أحد أداة لتحميل الوقت الزائد - مثل هذه الساعات الثلاثة - ثم تنزيلهم بعد ذلك حين يحتاج للره الوقت ولا يجده؟

سيصل المدعوون البيت في الثامنة، ولن ينصرفوا قبل الحادية عشرة والنصف. الكثير للسحرة في الأمر كله أن سلمي، ضيفة الشرف، لن تأتي! تأخرت هي الأخرى، ثم أخطأت القطار وفوته، والآن ستأتي في منتصف الليل بعد انصراف الجميع. أي أبناء هؤلاء؟ يسأل نفسه، للمرة الألف، أين أخطأ في تربيتهم. ألم أنها الجينات؟ ولم يهتم لهذه الدرجة؟ لم يهتم لهذه الدرجة؟ إن كانت هذه طبيعتهم فلم لا يتركهم في حالهم؟ لماذا لا يتركهم يصبحون ما يريدون؟ قومًا يتأخرون على مواعيدهم، تتوهم القطارات، ويعيشون في الفوضى؟ لم لا يتركهم في سعادة الجهل وراحة الفشل؟ لن يترك يوسف طوبلاً - سيفادر في الصباح، فلا داعي للتنكيد عليه بمسألة التأخير. دع الأمور تمر بسلا. ونفس الشيء بالنسبة لسلمي. هذه أيامها

الأخيرة بنيويورك ولن تراها ثانية، فدعها تحفظ بذكرى طيبة. قال لنفسه هذا، وعزم. والآن ماذا يفعل بهذه الساعات الثلاث؟ عليه إنهاء مشروع الكتاب وتسليمه قبل نهاية الأسبوع، وهو مازال بحاجة لبعض التفكير، وكثير من الكتابة، ولكن عليه أيضاً فرز كتبه قبل أن يأتي الحفلة. ففي نهاية الشهر، أي في أقل من أسبوعين، يجب أن يُخلي البيت.

وضع الكتاب جانباً، وقرر التوقف عن محاولة القراءة. خلع النظارة ووضعه على المنضدة. طلب منه الطبيب عدم معاندة عينيه، فالألم إشارة للتوقف. عاد للتفكير. لماذا لم تأت سلمي في قطار الصباح؟ تلك الحمقاء الصغيرة! تعرف أنه رتب هذه الحفلة من أجلها. سيصل المدعوون في الثامنة، وسيغرق السلام والسؤال وغيره نصف ساعة. ثم تضع كيتي الطعام في الثامنة والنصف، وهو موعد متأخر بالنسبة لأمعائه المتصلة. عادةً يكفي بعض الزبادي، لكن ليس من اللطف ألا يتعشى مع ضيوفه. طبعاً لا، سيأكل معهم، ثم يبقى مستيقظاً حتى الواحدة صباحاً كي يهضم الطعام. ويعني هذا أنه لن ينام ما يكفي من النوم إلا لو نام حتى التاسعة صباحاً، وهو الأمر المستحيل، فلهذه موعداً في الثامنة والنصف مع المحامي. شعر بالحق على نفسه: لم تَوَرَّط في هذه الدعوة أصلاً! ألم يكن من الممكن أن يدعوهم لغداً في نهاية الأسبوع بدلاً من ذلك؟ لكن كيتي لم تكن متاحة خلال نهاية الأسبوع، كما أن الحمقاء الصغيرة أرادت زيارة واشنطن قبل عودتها لمصر. لا بأس، حدث ماحداث وسيستيقظ في السابعة، ويقضي اليوم ناقص نوم ومتوترًا. لا يوجد حل آخر.

لن يستطيع القراءة أو الكتابة أو فعل أي شيء ذي معنى خلال هذه

الساعات الثلاث. خطر بهاله أن يفرض المكتبة القديمة. يمكنه قضاء هذه الساعات في فرز الكتب حتى يظهر يوسف، ثم يجلس معه قليلاً، ويستمع لأخباره حتى يأتي الضيوف. سيفرض المكتبة القديمة. لو كان الأمر بيده لأخذ كل كتبه إلى الشاليه الذي سيتقل إليه، لكنه أصغر من أن يستوعبها. يعرف أنه لن يحتاج أبداً منها، لكنها كتبه القديمة، ولها في قلبه معزة خاصة. اتفق مع المكتب العقاري على إضافة عدد من الأرفف لجدران الشاليه، ولكن حتى مع الإضافات فلن يتسع الشاليه لكل كتبه هذه الكتب.

حسبوا له المساحة وعدد كتبه بالضبط، وأخبروه بضرورة التخلص من ثلاثة آلاف كتاب. فرز كتبه الجامعية الأسبوع الماضي؛ جمع منها ألفاً، ومنحها لاتحاد الطلبة؛ ليملئوا بها رفوف صالون الدراسات العليا. لن يقرؤوا أبداً منها، لكن وضع بعض الكتب بالصالون أفضل من ترك الرفوف فارغة، أو ملئها بأوراق التصوير التي يخلقها الطلبة. عليه التخلص من ألفي كتاب آخرين هذا الأسبوع. لا يستطيع منح أبداً منها للجامعة، أو لاتحاد الطلاب، أو لأي جهة في الولايات المتحدة كلها، فمعظمها كتب بالعربية، وقيمتها العلمية عديدة - لهذا وضعها في أكثر أماكن المكتبة خصوصية. هذه هي الكتب التي اشتراها وهو شاب، بعضها مقدمات ساذجة في السرح والرسم والنحت لكتاب بمهولين نقلوها عن كتب أجنبية، وطبعتها دور النشر التي كانت تمتلكها الدولة في الستينات، وبعضها كتب عامة في نقد المجتمع كتبها صحفيون لا فهم لديهم لا بالنقد ولا بالمجتمعات، وبعضها مجموعات من القصائد لشعراء اندثروا، وربما

لم يكن لهم جمهور أصلاً. اشترى معظم هذه الكتب وهو في المدرسة الثانوية وأولى سنوات الجامعة. هناك كتب أخرى اشتراها أثناء إعداد رسالة الدكتوراه وبداية عهده بالتدريس، أيام جامعة القاهرة. لكن قيمة كل هذه الكتب تتعلق بدورها في حياته هو، وهو أمر لا يهم أحداً غيره. استغرب كل من يوسف وليلى قراره بيع البيت. سأله يوسف عن سر هذا القرار المفاجيء. رد - محاولاً تقادي السؤال - إنها هدته لنفسه في عهد ميلاده السبعين. لكن يوسف تجاوز هذه الإجابة التي ليست بإجابة، وسأله عما إذا كان يصدد الانتقال لبيت للمسنين. فضحك نصف ضحكة، وقال له: "على جشك" ثم غيّر الموضوع. اتصل بليلى في مصر كي يخبرها، فسأته بحدثة إن كان يحتاج للمال. تقادي سؤالها، فهو لا يريد مناقشات تنقص عليه. قال إن مل من البيت. احتجت بأن هذا البيت هو المكان الوحيد الذي لهم به ذكريات مشتركة، فرد مرة أخرى إنه مل من البيت، ثم أدرك أنه يكثر مقالته، فأضاف أن الذكريات سترحل معهم أينما ذهبوا. لم تبد ليلي تعاطفاً ولو زائفاً، بل قالت بضيق إنها لا تحب ذلك القرار، وكانت تفضل لو ترك البيت على حاله، فسألتها بحدثة عما كانت ستفعل ببيت الذكريات هذا، وما إذا كانت تنوي أن تعيش فيه يوماً - هي التي لم تأت لزيارته منذ ستين.

ردت ليلي بشيء، وردّ عليها بشيء آخر، وتوجهت المناقشة نحو مصورها المحترمة: عدم تقاضم وغضب مكثوم من الجانبين. غيّر الموضوع، وغيرت الموضوع وأنها المكالة بحدث عن لقاء قريب لا يعلم أيهما متى سيتم ولا أين. يوسف، بعد أن سأل عدة أسئلة ولم يلق إجابة واضحة من

أيها، قرر أن يأتي لزيارة أخيرة للبيت، وأيضاً لوري سلمى ابنة أخته. "الآن تذكر أنها في نيويورك، بعد ثلاثة أسابيع من وصولها!" ربح درويش بالفكرة، لكن دون حماس حقيقي، فهو لا يعرف ماذا يفعل بابه حين يأتي. يلوذ يوسف بالصمت معظم الوقت، ويرد باقتضاب على أسئلته المتلاحقة حتى يستسلم الأب ويكف. ثم يحل الصمت بينهما. يقضي يوسف بقية الوقت في التنقل بين أرجاء المنزل الواسع، يشاهد التلفزيون أحياناً أو يعمل على كمبيوتره، حتى يحين موعد رحيله. كان يفعل هذا وهو في الثالثة من عمره - حين انفصل عن أمه - ولا يزال يفعل هذا بعد مرور أربعين عاماً على ذلك. سألته يوسف إن كان يريد شيئاً من ممتلكاته، فطلب أن يأتيه بعض البجيل؛ لم يعرف ماذا يمكن أن يطلب منه غير ذلك.

حاول إعطائه كبيه القديمة. قال له في التلفزيون إن لديه ألفين من الكتب التراثية، وسأله عرضاً إن كان يريد. ضحك يوسف وشكره، ثم أبدى استعداده لتخزينها في مخروم منزله. وقف درويش يتأمل رفوف المكتبة القديمة. أول مرة ينظر لهذه الكتب منذ سنوات. مرّ بجولها مئات المرات ينظر إليها ولا يراها. صعب عليه أن ينظر لهذه الكتب ويقرّر التخلص منها، كأنه يلتقي بأجزاء من نفسه. هذه هي الكتب التي ساهمت في تشكيله، في جعله من هو، أو بالأدق من كان وهو في ثلاثينياته، قبل أن يأتي للولايات المتحدة. تسأل فجأة إن كان قد تغير بعد ذلك؟ يعرف أنه تغير، لكنه يتسأل إن كان قد راجع نفسه بعد هذه المرحلة من حياته، أم أنه قلب الصفحة دون مراجعة لما تغير فيه، ومضى قدماً مثلما وضع

الكتب في مكتبة عتية لا يراها حتى حين تقع عليها عيناه؟ وأصل فرز الكتب وهو يفكر؛ لماذا لم يشرح لابنائه سبب بعه للبيت؟ لماذا لم يقل لهم إنه ترتب أموره قبل الرحيل الأخير؟ "سرتان متقدم بالرة"، هذا مقالته فريق الأطباء. حين رفض العلاج الكيميائي أخيره الدكتور بصراحة أنه لن يعيش طويلاً بلونه، ربما عائلاً أو اثنين. رد عليه بأن عامين بدون علاج كيميائي خير من خمسة به. تبرم الطبيب من عناده، وأوضح له أن نمط حياته الحالي لن يجعله يصمد عامين دون علاج كيميائي. قال إنه مستعد لتغيير نمط حياته، لكنه لن يقبل بالعلاج الكيميائي. شرح له طبيبه أن ذلك يعني اعتزال التدريس، والتوقف عن قراءة الصحف ومتابعة الأخبار، والانتقال للعيش في شمال الولاية حيث الهواء والماء والطعام أفضل وأكثر صحة. لن يتوقف السرتان عن الاستشارة، لكن سرعة تغطله في الرتين ستقل. لم يأخذ الأمر من درويش كثير تفكير، فطيلة عمره وهو يحلم بالسكن في منزل صغير منعزل في الغابة، حيث الهواء النقي والخضرة والماء، والأهم من ذلك حيث يمكنه الانعزال عن البشر. وافق من حيث المبدأ، وبعد أسبوع اتصل به المكتب العقاري وأخبره أنه وجد ما يناسبه؛ شاليه يطل على بحيرة متوسطة الحجم في المنطقة الجبلية الواقعة في شمال شرق ولاية نيويورك والمتاخمة لولاية فيرمونت، ليس بعيداً عن مدينة سيراكيوز التي تضم مستشفى متقدمة يمكنه متابعة حالته بها. ذهب في زيارة سريعة للمكان. هناك، وجد أن الشاليه يطل مباشرة على البحيرة، وتحيطه أشجار باسقة وخضرة كثيفة من الجانبين بحيث لا يبدو منه أي بناء آخر على مدى البصر. اتخذ قراره وهو واقف أمام الشاليه ينظر لسطح البحيرة.



كان التوقيت سيئاً، فالفصل الدراسي على وشك البدء، ومن غير اللائق أن يترك التدريس فجأةً هكذا، لكنه فعل. فوجيء رئيس القسم - الذي كان تلميذ درويش منذ خمسة وعشرين عاماً - بقراره، فلم يكن في سلوك أستاذه القديم ما يوحي بنيته التقاعد. بل على العكس، كان منهمكاً في مشروعات تطوير القسم، ويقود فريق البحث الذي قاده عبر سنوات طويلة بنفس التصميم. لم يشرح السبب في رحيله مكثفياً بالتصميم عوضاً عن التفسير. حاول رئيس القسم إثارة لكن درويش لم يترك له مساحة للتفاوض. وهكذا، في خلال أيام معدودة، بعد ثلاث أو أربع مناقشات مع مسئول الجامعة العريقة، أنهى الدكتور "درويش بشر" مسيرة نصف قرن من الحياة الأكاديمية المتميزة. في الأسابيع التالية صفى بقية ارتباطاته في نيويورك، وباع المنزل، وبدأ يخطط لحياته الجديدة التي أوصاه الأطباء بأن تكون أبسط وأقل تعقيداً.

لماذا لم يقل أي من هذا ليوسف أو ليلي؟ لماذا لم يقل هذا لزميله وتلميذه القديم؟ لماذا لم يقل هذا لأي من معارفه؟ لم يقل لأحد لأنه لا يريد دراما. يكره الدراما، ويكره أكثر تحميل الضحية عبء التعاطف مع مصابه. ماذا يعني أن يقف أمامك شخص ما ليذكي الأسف على مصورك؟ ثم يفيدك هذا؟ وما للفروض أن تفعله أنت صاحب للمأساة: أن تخفف عنه أسفه؟ لا، شكرًا، لا يريد أباً من هذا. لا يريد عرضاً لعواطف الناس الذين يعرفونه، صادقة كانت أو ملتبسة. لا يريد إفساد أيامه الأخيرة؛ نصحه الأطباء بتفادي ما يضايقه، وهذا التعاطف يضايقه. الحقيقة أنه لا يرى كارثة في دنو أجله بل على العكس، شعر براحة عندما أخبره الأطباء

بذلك، وظل يكبت الإحساسة التي تحاول احتلال وجهه حتى انصرف عن عهدهم. أراد له القدر أن يتصر حتى النهاية، حتى على الموت. من المفروض أن يأتيك الموت بفترة، لكنه الآن يعلم بمقدمه. تظاهر بالعبوس لأن هذا هو ما يجب فعله في تلك المواقف. لكنه شعر بخفة لم يعهدها، كأن عبثاً ثقيلاً حل من على كتفه.

يدرك أن رحيله لن يكون له أثر يذكر. سيموت مثل من ماتوا، سيذكره من يحبونه بود، وسيذكره الآخرون مثلما تشاء لهم أحوالهم. لا يعنيه من ذلك شيئاً. سيموت مثل كل البشر، ليس في هذا ما يفاجئه. درويش في السبعين، ويرى أنها نعمة أن يعرف كم تبقى له من الوقت. فهي فرصة لترتيب أموره الأخيرة بيده، وكذلك لفعل ما نسيه أو تكاسل عنه. من الآن فصاعداً لن يفعل شيئاً لا يحبه، لن يهمل أحداً، ولن يتحمل أحداً، ولن يقضي وقتاً مع أناس لا يحبها، ولن يلجأ لخلو وسط أو يخطط لمستقبل بعيد. لم يعد هناك مستقبل بعيد. وسيقوم بكل الأمور التي أجلها: الحياة في منزل منعزل على بحيرة في غابة أو جبل، قراءة الكتب التي لم يتح له الوقت لقراءتها، وكتابة الكتاب الذي أراد دوماً كتابته عن مستقبل العرب. عاش حياته يدرس تاريخ العرب ويحلم بالكتابة عن مستقبلهم ولا يفعل تحسباً. لم يعد هناك داع للتحسب. وهامو يعمل على مشروع الكتاب، وسيلتقي بالناشر في أول الأسبوع القادم للاتفاق معه على التفاصيل، ثم يبدأ الكتابة حين يستقر بالشالية.

اتصل بليلى في القاهرة، وأرغمها على إرسال سلمى لقضاء شهر معه. حاول في البداية دفعها هي للمجيء، لزيارته لكنها رفضت بشدة،

مثلما رفضت طيلة الأعوام الماضية. فشل في إقناعها بالمجيء، لكنه نجح في إرغامها على إرسال سلمي. جاء بالنت كى يراها مرة أخرى قبل موته، وكى يخرجها من القمقم الذي تحبسها فيه أنها المتوعدة، يتيح الفرصة لها لترى الحياة بعيداً عن الأغلال التي تقيد العقل والروح في مصر. من يدري، ربما يخبرها الأمر باستكمال دراستها والاستقرار هنا فيما بعد، والنجاة من المستقبل البائس الذي تعده لها أمها. وعندما قال يوسف أنه آت للزيارة قرر ترتيب حفلة عيد الميلاد هذه، ودعى بعض الأصدقاء والمقربين. قرر دعوة كل من يمت له بصلة في أمريكا، كى يروا سلمي، وكى يراهم مرة أخرى قبل موته ويرتب معهم بعض الأمور العملية. يريد أن يمنح مالا لبعضهم، وأن يساعد بعضهم في عمله، وأن يودعهم، على الأقل من ناحيته هو. وفي الثامنة والنصف صباحاً سرى حماني، ووضعت كل ذلك على الورق في وصيته، ورتب أمور الجنائز والدفن. وبعد ذلك ينتقل للشالية، ويتفرغ لكتابة كتابه الأخير.

كان يود الاحتفاظ بكيتي، لكن تعذر ذلك. فرتب المكتب العقاري له سيدة تعتنى بالشالية، وتعد الطعام، وتتولى شراء ما يحتاج. ويمكنها أيضاً أن تقود السيارة حتى سيراكيوز، حين يصبح من الصعب عليه القيادة بنفسه. اشترى قارباً صغيراً: يحلم بالجلوس والتأمل وسط سكون البحيرة دون حركة أو صوت، غير انكسار الأمواج الصغيرة على حافة القارب. ربما تعلم الصيد. اشترى شاشة التلفزيون والساعات الضخمة التي رفض شراؤها منذ سنوات لفحش ثمنها، كما اشترى سيارة نصف نقل

تناسب المناطق المحيطة بالشالية. كل شيء أصبح جاهزاً للانتقال، عليه فقط فرز الكتب.

حين وقعت عينه على كتاب تاريخ الشعوب العربية لأكرت حوراني لم يتعرف عليه. ظل ينظر له للحظات غير متذكر من أين أتى، أو ماذا كان موضوعه. وفي لحظة واحدة شعر وكأنه لرتد أربعين عاماً للوراء، وحضرت أمامه جين وربما وزينب وكأنهن واقفات معه بيوت ثلاثة في أرض ثلاث، ثم ألغى عليه الأمر كله، وبدأ يشعر بدوار سريع. مده يمسك بالمكتبية تاركا الكتاب يهوي إلى الأرض، لكن الدوار لم يتوقف. يعرف هذا الدوار جيداً، لن يتوقف الآن. حاول الجلوس شيئاً فشيئاً على الأرض، لكن الدوار كان أقوى منه. فقد توارنه، حاول التشبث بالمكتبية وهو يسقط على السجادة الصوف الممتدة على خشب الأرضية. انتظر لحظة وهو ممدد على السجادة، ثم بدأ يحرك أطرافه. كل شيء يبدو في مكانه: لم يتحطم شيء منه بعد. زحف ببطء نحو المكتبية، واستند بظهره إليها، وظل جالساً يلتقط أنفاسه. جال بخاطره أنه أحسن صنفاً حين أصبر أن تكون الأرضية من الخشب؛ فلو وافق زينب، ووضع سيراميك بدلاً منه لكانت عظامه قد تهشمت. بأنه هذا الدوار كثيراً، ولم يفلح طيب واحد في علاجه. قالوا له إن ضغط دمه ينخفض فجأة لكنهم لا يعرفون لماذا! ما فائدة الطب الذي يشرح لك دائماً مرضك دون أن يفلح في علاجه!

استقر على السجادة. جال بنظره في غرفة المكتب ورفوفها الخشبية البنية اللون المحككة الأثاق. ستارة بيضاء رقيقة تسدل أمام النافذة

العريضة وشجر الشارع يبدو من خلقها. لا صوت يصل للفرقة بفضل ازدواج زجاج النافذة. السقف به عروق خشبية من نفس لون المكينة. لا أثر لحبة تراب واحدة على أي من الكتب. "أحسنت يا كيني!" نظر للكتاب لللقى على الأرض بالقرب منه. من أين طلع هذا الكتاب بعد كل تلك السنوات؟ كيف كان هنا طول الوقت ولم الحقة؟ خفت الدوخة شيئاً فشيئاً، فحركت على أربع حتى وصل للكتاب، وأمسك به، وعاد ثانية يستند بظهره للمكينة. قلب في صفحات كتاب حوراني وهو يتسم. "كيف نسيت هذا الكتاب؟ هذا الذي كان أعم شيء في حياتي في وقت من الأوقات؟" اشتراه من لندن، ليس رغبة منه في تعلم تاريخ العرب، فهذا هو تخصصه، وإنما كهدية لصديقته البريطانية جين. فهو سهل القراءة، ويمكن أن يكون مدخلاً جيداً لمن لا يعرف تاريخ العرب، ويرغب في تعلم الكثير من خلال كتاب واحد. يبدأ الكاتب بنبرة عن ظهور الإسلام وتعاليمه، ثم يشرح تاريخ انتشاره خارج الجزيرة العربية، ويغطي المراحل المختلفة للمجتمعات والسياسة العربية وصولاً إلى العصر الحديث، وكل ذلك في بضع مئات من الصفحات. أهداه لها مازحاً بأنها ستجد فيه الحل الشافي لجلهها المطبق.

التقى بجين في القاهرة وليس في لندن رغم أنه قضى خمس سنوات لإعداد درجة الدكتوراة هناك، وكانا يجدان في ذلك الأمر مثاراً للدعابة مع أصدقائهم القليلين. جين جميلة ووقية، طويلة، شعرها الكستنائي مُسَدَّل على كتفيها ما لم تجمعهم وتربطه بما تقع عليه يدها - في الأغلب فلم رصاص - وطنية الخلق. جاءت إلى القاهرة في منحة تدريبية لمدة عام

لتعلم اللغة العربية فازت بها في مسابقة ماء، ثم أحبت المدينة وفوضاها فاستقرت بها. تعارفا وتعاريا حتى صارت شبه مقيمة معه بشقته بالجيزة خلف حديقة الحيوان. رادته فكرة الزواج منها منذ بداية تعارفهما! فجبن تجمع كثير من الموصفات التي يبحث عنها. سافر معها لبريطانيا وزارا والدها اللقيمين في إحدى ضواحي جلاسجو، سارا سونيا في الريف عند النهر الذي كانت تلعب حوله وهي صبية، ونظرا للمراعي الممتدة إلى ما يبدو وكأنه لانهاية. أخفته لبار الضاحية حيث كان الشباب الصاخب يعاكسها وهي مراعية، والتقى بجيرانها الذين أتوا لمشاهدة المصري الذي أحضرته جين. في كل ذلك كان يشعر أنها المرأة التي بحث عنها طيلة حياته. لكن شيئاً فيها كان يثير قلقه، ومن ثم لم يُعرفها على ليلي أو يوسف حتى يحسم أمر علاقتها.

جين طيبة ومستقيمة الخلق، لكن علاقتها بمصر مرثيكة. شرحت له في لقائهما الأول كيف أحبت طيبة المصريين، وحرارة العلاقات الإنسانية بينهم، ووجدت فيهم ما كانت تقتضيه طيلة حياتها في بريطانيا. ضحك في أعماقه؛ فهو شخصياً يحب برودة الإنجليز وتباعدهم، ويجد في احترامهم لخصوصية بعضهم البعض ما يفتقده في حياته بمصر. وجدا نفسيهما في وضع معكوس: هو ينتقد الناس والحياة في مصر وهي تدافع! "نعم هذه تكذب، من الناحية القانونية تكذب، لكنها ليست كذبة حقيقية"، "هذا ليس ضعفاً، بل تعقل"، "لا، هذا السلوك ليس محاباة، بل نوع من العرفان"، و"قطعاً ليس هذا سلوكاً طبقياً، لكن اختلاف في رؤية الأدوار والمسؤوليات". لم يقبل آيا من تفسيراتها، لم يقبل أبداً أن تكون للحياة في

العالم العربي قواعد مختلفة. العرب ليسوا طائفة شاذة من البشر، وقواعد الأخلاق العامة تنطبق عليهم مثل غيرهم. أما القول بغير ذلك فهو نوع من التعالي للتشكر في شكل تعاطف.

إن تقبل الكذب من العرب وترفضه من غيرهم معناه أنك ترى فيهم نقيصة أساسية تُبيح لهم ما يُحرّم على الناس الطبيعية، كأنهم يحملون شهادة جنون. قال لها ذلك، مرآءا، وأصبح تعاطفها مع نقائص الناس في مصر وأخطأتهم يستفزّه. طلب منها أن تقرأ تاريخ هؤلاء الناس كي تفهم أنهم ككافة البشر، وأن تعرف كيف وصل الحال بهم لما هم عليه، وكى تتأكد بنفسها أن الحل ليس في تشجيعهم على التخلف، بل العكس عاصبتهم كناضجين ومستولين؛ كي لا يستهلوا ويستسيخوا هذا التخلف. قالت إنها لا تجد الوقت للتبحر في التاريخ مثله، ومن هنا جاء ألبرت حوراني. أعطاهما الكتاب وأبدت سعادتها به. قرأت فيه ثم تركته سرّيا، وقالت إنه عمل، وإنها تفضل التعلّم من خلال مخالطة الناس.

لكنّها لم تتعلّم من خلال مخالطة الناس، بل عمادت أكثر فيما كان يراه تقصّصا لدور السانحة البلهاء. قالت له إن المشكلة تكمن في تفكيره الذي يحول بينه وبين فهم التقديرات المصرية. فاحتجّ بأنّه هو ابن البلد، ولكنّه يميز بين التقديرات وبين سوء الأخلاق، وأنّ الناس في مصر يحتاجون لإعادة تربية، ربما بسبب الجهل أو الفقر أو سوء التعليم، ولكنّ المحصلة واحدة وهي وجود تدهور عام في الأخلاق. قالت له إنه ضحية تعليمه الغربي، وإن السلاجحة الأنجلوساكسونية التي تقصصها هي التي تقترض خطأ إمكانية إصلاح سلوك الناس بقوة الحجّة ومناشدة الضمير، وذلك ما

يجعله يصطدم بالناس طيلة الوقت، لأنّه يعظ ولا يتفهّم.

ضحك وسألها ساخرًا إن كانت هذه تهماً أم مزايًا. احمرّ وجهها من سخرته، وضربت له مثلاً بموظف الجوازات الذي ظلّ يماطل في إنهاء أوراق تأشيرتها حتى غمزته هي بخمسين جنيهًا. احتجّ وقتها، وصمّم أن هذه الرشوة الصغيرة مُساقمة في الفساد الكلي، وعندما حاولت تذكيره بتعقيدات الظروف - الموظف الذي يتقاضى مرتبًا ومزيًا تعرف الدولة أنه لن يكفيه، وتفترض أنه "يكمل عليه" من أصحاب المصالح وغير ذلك- رفض هذه التفسيرات باعتبارها حجبًا. سأله كيف يُميز بين الصواب والخطأ في حالة مثل هذه؟ فابتسم ابتسامة المطمئن، وربّت على كتفها قائلاً إن هذا أوضح مثال على فساد منطقها، فالصواب والخطأ بيان، لا يخلط بينهما إلا شخص تعود على سوء الأخلاق. ردّت بأنّ ما يصفه بسوء أخلاق المصريين ما هو إلا غلط آخر من الأخلاق له جماله الخاص. تستفزّه هذه النغمة؛ تُشعره بأنّه مقترن بمعتوه لا ينقصها إلا أن ترتدي الهلاليات وتجري خلف أحد المجاذيب. اتهمها بأنّها تُعرّض فشلها في التأقلم مع الحياة في بريطانيا بتقصّص هذا الدور الذي يجعلها تشعر بالتفوق، وأنّها ضحية أساطير غموض الشرق، فقالت إنه هو للفنون بأساطير النظام في الغرب. نظر إليها ساعتها في بأسٍ شبه كامل، ثم تعلّل بالمحاضرة التي عليه اللحاق بها، ومضى.

سارت حياتهما بعد تلك المناقشة في هدوئها المعتاد: هو يدرّس بجامعة القاهرة على بعد خطوتين من المنزل، وهي تعمل بشكل دائم في مشروعات شتى مع منظمات اجتماعية شتى، من مساعدة الزبالين إلى رعاية

أطفال الشوارع في وسط البلد. لكن الخلاف بينهما حدٌ من علاقاتهما الاجتماعية، وقللت طريقة تفكيرها من رغبته في مشاركتها مشاكله سواء تلك المتعلقة بالعمل، أم بعلاقته الثائرة بطفله وأمه، وهي المسألة التي كانت قد بدأت تأخذ حيزاً متزايداً من حياته. فكلٌ فكرة كانت تستدعي شروخاً ومناقشات وخلافات لا يمكن جسرها. اعترف لها يوماً أنه يجد صعوبة في التعامل مع الطفلين. فيوسف عنيد ولا يستجيب لتوجيهاته؛ يتجاهل ما يقوله له أو يتظاهر بأنه لا يفهم. أما ليلي فتلجأ للدفاع عن نفسها، وعن أمها كلما وجه لها أبسط ملاحظة، بما يجعلها دائمة التحقُّر بل وعدائية أحياناً. سألته حين لم يوجه لهما كلٌ هذه الملاحظات، فرد بأن سلوكهما العام لا يليق بهما، وهو لا يستطيع تقويم الأم مصدر هذه السلوكيات، ومن ثم يحاول استغلال الوقت الذي يقضيه مع الطفلين في تقويمهما. اقترحت حين عليه أن يتعلم قبولهما كما هما بدلاً من محاولة تقويمهما. حاول شرح اعتراضاته فلم تفهم، وظلَّت تُردّد ماقالته حتى سكَّت تفادياً لمزيد من الخلاف، وصار يتجنب إثارة هذا الموضوع. ثم بدأ يتفادى مناقشة الموضوعات الأخرى، وأخذت دائرة الموضوعات التي يتفادى الخوض فيها تتسع حتى شملت كل شيء، وانتهى الأمر بهما لصمت مطبق. لم تطل الحياة بينهما بعد ذلك كثيراً. ابتسم وهو يتذكر كل ذلك، ويمسح التراب عن غلاف الكتاب الأبيض؛ "هل يمكن أن ألقى بهذا الكتاب إلى العدم؟ هذا الكتاب الذي كان علامة النجاح والفشل لتسائي، ليتهيء به الأمر إلى القمامة أو على الفضل الفروض إلى إعادة التدوير؟ أخذ يتخيل صفحات الكتاب وهي تفرق في محلول يُزيل كلماتها شيئاً فشيئاً

حتى تغدو مجرد صفحات بيضاء طافية. وهكذا ينتهي الأمر بالكتاب؟ ماذا ستقول حين لو عرفت بمصير الكتاب: استقول إنها كانت على حق حين رفضت قراءته؟

ربما قرأت الكتاب. كانت جالسة في غرفة المكتب بشقته الجديدة بالمعادي حين مدت يدها وسحبت الكتاب من على أحد الأرفف. نظرت إليه وصاحت جذلة بأن هذا بالضبط هو ماكانت تبحث عنه. حدّق فيها مُستغرماً فاسترت له وهي تتلعثم لأي مدى تجهل تاريخ المنطقة، رغم أن حياتها وحياة عائلتها شكلها هذا التاريخ. أضافت، وكأنها تريح من على صدرها عبئاً باعترافها - أنها تجهل حتى الأشياء الأساسية، كالفارق بين الخلافة الأموية والعثمانية. ملكته الدهشة، ونظر إليها محاولاً إخفاء صدمته باتسامة مختصة. سأل نفسه إن كان به خلل نفسي ما يجعله يتجذب للجاهلات دون وعي منه. لكن ربما استاذة في القانون الدولي لا عارضة لزيارته لم يقابلها في بار، بل في مؤتمر علمي قدمت فيه بحثاً عن التحكيم الدولي. كيف حصلت على درجاتها العلمية؟ ولماذا أخذت هذا الطريق مادام لا يُثير اهتمامها؟ ظل بعد ذلك بفترة طويلة يفكر في معنى هذا، وما إذا كان مؤثراً على مشاكل أكثر في شخصيتها. فكر في الافتراق عنها قبل أن تتطور الأمور بينهما، لكن الأمور كانت قد تطورت بالفعل؛ وتركزت ربما مركز البحوث الذي تعمل به في بيروت، وانتقلت للقاهرة كي تكون معه، ومن ثم كان يجب عليه المحاولة على الأقل. اقترح عليها قراءة كتاب حوراني كبدائية لعملية إعادة تأهيلها التي أخذ على عاتقه متابعتها. قال لنفسه إنه مادام يستطيع تعليم اللغات من الطلبة الجهلة الذين يردون

عليه كل عام، فلماذا وأنه قادر على تعليم امرأة تعبه، خاصة وأنها هي التي أبدت إعجابها بالكتاب، وأعلنت رغبتها التخلّص من جهلها.

لم يرد تكرار قصة جين وفرض الكتاب عليها، فسألها مباشرة إن كانت تريد مساعدة في "سد هذه الثغرة" في تعليمها، فزحبت وشكرته. أعطاهما الكتاب وبعد شهر سألهما عن رأيها فيه، فأبدت إعجابها الشديد به مستهدة بعض أجزائه. لكنّه حين ناقشها بعد ذلك بأسابيع في موضوعات ذات صلة بالكتاب اكتشف أنها لم تقرأ منه سوى صفحات، وكانت تقفز فصولاً بأكملها وتدّعي أنها قرأتها. صدم. سألهما لم تفعل ذلك؟ فأجابته في انكسار أنها خشيت على مكانتها في عينيّه إن اكتشف كم وجدت الكتاب صعباً على الفهم. صُدم أكثر؛ كيف يجده صعباً وهو من أيسر الكتب؟ ثم كيف تقدم على الكذب في أمر كهذا؟ والأسوأ من كلّ ذلك هو كيف تخاف منه لهذه الدرجة المهيبة؟ وإن كان هذا حالها فلم تقبل أن تعيش معه وهي تشعر بالضآلة؟ أي نوع من النساء هي لترتضي لنفسها هذه الحياة؟!

لكن ربما لم تكن بالجنوع الذي ظنّه؛ كانت عاشقة ومستعدة للتضحية بأي شيء من أجل البقاء معه. وعندما فهمت أنها قد خسرت تقديره الفكري لها لجأت لشيء آخر لاستبقائه. كلّ من يعرف درويش يدرك سريعاً أن علاقته بطلقيه هي نقطة ضعفه، فهو يفقد الحياة معهما منذ انفصاله عن أمهما، ويشعر بالحق على أمهما لأسلوب تربيتها لهما. حاول جعلهما يقضيان شهر الصيف معه؛ لكن الأم كانت تجد وسيلة ما لعرقله ذلك، وشيئاً فشيئاً بدا في الإعراض عن الإقامة معه، إنّما تتوقّد

على الحياة مع الأم، أو تجنباً للتقلّب الدائم بما جره عليهم من عدم استقرار نفسي وعائلي، وأسئلة من قبل أصدقائهم، أو تأثيراً بما يسمعون. وحين باتيان لزيارته أو لقضاء بعض الوقت معه يسود التوتر علاقتهما. يوسف، الغارق في عالمه الخاص، يادي العدا، وإن لم يوجّه عداؤه له مباشرة فهو يصبه على كلّ ما حوله. لا الطعام بحبه ولا الشراب، ولا الخروج ولا الدخول، ولا النوم ولا البقطة. دائم الشكوى وسريع الغضب والانزواء، ويهدد دائماً سيّبا لإفساد أيّ بهجة تجمعهم هم الثلاثة. أما ليلي فقد تحوّلت من الدفاع إلى الهجوم، يسيل من الاستجابات حول فشلها وأنها في الحفاظ على الأسرة التي خلقها سوياً. كانا غاضبين، كلّ بطريقة. حاول تفكيك غضبهما فلم يستطع: يوسف مغلق بالضيق والفتاح، لا يرسل شيئاً، ولا يبدو أنه يستقبل شيئاً. ويلي تقول أشياء كثيرة لكنّه لا يعرف ما إذا كانت تعني ما تقول، وما إذا كانت تُدرك حقيقة مشاعرهما. رغم ذلك واصل المحاولة، وقال أشياء كثيرة على أمل أن ينفذ بعضها لهما كي يشعران لأى حد يحبهما. لكنّه لم يعرف ما ينفذ إلى نفسيهما. وشيئاً فشيئاً استقرّ بينهم هم الثلاثة ووتين يقوم على حب جوارف ونحيط من ناحيته، وغضب مزوج بالحب من ناحيتهما، ولم شديد الثلاثة اتفقوا ضمناً على تحميله مسئوليته.

فهمت ربما هذه العادلة المعقدة بسرعة، وعملت على استدلالها للتمترس في حياة درويش. ذُبرت أمرها بحيث وجد نفسه مضطراً لتقديمها ليوسف ويلي. وبخبرتها النسائية بنحت في التسلّل لقلب البنت المعلق والرائض لارتباط أبيها بأمة امرأة. كانت ليلي قد بلغت الخامسة عشرة، ورأت ربما

على الفور كيف يمكن النفاذ لها؟ أخذتها لبيروت في رحلة حرمي بعد أن انتزعت موافقة درويش بمزيج من توسل ليلي والطمأننة من جانيتها. وهناك بهرتها بمسكانيات الجمال والألوان، وأرتها عالماً أسرقها المراقب. ظلت ليلي مبهورة حتى بعد عودتها وهي تربه الصور. لم تكن هذه الرحلة سوى عينة مما يمكن أن تفعله ربما لها، كما أقدمتها. ليلي رأت فيما فعلته ربما علامة على إمكانية دخولها لعالم الجميلات الذي طالما اعتقدت أنه مختص لغيرها من البنات، العالم الذي لاستطيع أمها مساعدتها على دخوله. وبهوءة نقلتها البنت من خانة الأعداء لخانة الحلفاء.

بعد التحالف مع ليلي، مدت ربما نفوذها لبقية مناطق حياته، بدءاً بيوسف وانتهاءً بملاسه هو وحياته اليومية. شيئاً فشيئاً أعادت تشكيل العالم الذي يعيش فيه، واستراح لهذه، فطالما أراد امرأة تتولى ترتيب حياته المشعث. وكانت ربما بارعة في ذلك. لكنه ظل غير مرتاح لجهلها، ليس فقط بتاريخ العرب، فقصتها مع كتاب حوراني كانت إشارة بجهل أوسع وأشمل. لكنه حاول التفاضل عن ذلك والحفاظ على علاقتهما، وظل يفكر جنباً في الزواج منها. وتقادماً لاصطدامه بجهلها عمل على إبقاء أحاديثهما في إطار الأمور العملية فقط - من سيذهب؟ أين، ومتى؟ وأي فيلم يشاهدون؟ وماذا يأكلون؟ وأين يقضون العطلات؟ ومن من الأصدقاء يذهب لأي مناسبة؟ وكيف تحل مشكلة يوسف مع المدرسة أو ليلي مع صديقاتها؟ وغير ذلك من الموضوعات الحياتية. وكلما تطرقت ربما لأمر يتعلق بحيوته الجامعية أو بأمر عام أنهى الحديث بسرعة. سارت الأمور بينهما بهدوء، لكنها كانت تترك عواقب عدم مشاركتها له عالمه

الكبير وتحاول من وقت لآخر الدخول في هذا العالم، وكلّما فعلت كلّما اتضح بجهلها أكثر، وازداد ضيقه أكثر، فجنح هي أكثر، وتسمى لمواجهة الخطر بزيادة تغفلها في حياته وفتح الباب الموصد أمامها، مما يدفعه لمزيد من الضيق بها، وهكذا حتى وصلا للنهاية المحتومة.

ظهره يؤله. هل تأذى من هذه السقطة البسيطة؟ تؤله جلسته على الأرض. الأرضية الخشبية ليست مريحة بالقدر الذي ظنه. هذه أول مرة يجلس فعلياً على الأرضية رغم كل الخلاف بينه وبين زينب حولها. ماذا كانت أهمية الخشب إذا؟ الساعة تقترب من السادسة، ولم يفرز ما يكفي من الكتب. شعر مرة أخرى بالفشل في استغلال الوقت بشكل أمثل، لكنه عزى نفسه بأنه سيحظى بوقت كاف حين ينتقل للشالية. يجب أن يضع هذا الكتاب المشنوم وذكرباته جانباً، ويعود لفرز الكتب. بوسعه فرز عدة مئات من الكتب خلال الساعة الشقية على وصول يوسف. هل يعطي يوسف هذا الكتاب؟ هو لا يحب القراءة، لم يحبها في يوم من الأيام، وربما عمل في منظمات الإغاثة الدولية كي يتفادى القراءة، فتوزيع أبجولة الطحين لا يحتاج لقراءة كثيرة ولا شك! لكن لو طلب منه الاحتفاظ بهذا الكتاب فيسفل. لكن ماذا سيفعل يوسف بالكتاب؟ يعطيه لزوجة المستقبل أم لصديقاته كي يقرأنه؟ وأين هي هذه الزوجة وهؤلاء الصديقات؟ لماذا لم يقابل أباً منهن أو يسمع عنهن؟ هل أفقده الأمل في النساء لهذه الدرجة أم أنه يحتمل نفسه ذنباً لا مرور له؟ ربما هو صمت الذي يدفعهن عنه. ربما كراهيته للقراءة؟ من يدري، ربما يقع في غرام نساء يعطيهن غيرت حوراني كي يقرأ ولا يستطيع فيتركه. أمسك

بالكتاب بين يديه يقلبه: "ماذا أفعل بهذا الكتاب؟ ولماذا لا أستطيع أن أحمل نفسي على التخلّص منه؟"

زينب قرأته، أو على الأقل بدأت في ذلك، وظلّت تقرأ فيه لسنوات طويلة بإمعان ودقة ولكنّ ببطء لا يصدق، ولم تنته منه حتى وفاتها. فهم درويش منذ نهاية العام الأول أنها لن تُنهيه أبداً، وبدأ عملية اليأس منها. ماتت للمسكنة قبل أن تنتهي من حكم الممالك. ما الذي يجعله يتسم الآن وهو يتذكر ذلك؟! يسأل نفسه ولا يجد إجابة. الحقيقة أنه لا يفهم الكثير من ردود أفعاله الخاصة بزينب، بما فيها زواجهما. لماذا تزوجها رغم اختلافها البين عن النموذج الذي كان في ذهنه للمرأة التي يريد الاقتران بها؟ لا يعرف، رغم كل هذه السنوات، ولم يفهم أحد سر زواجهما؛ لا ليلي ولا يوسف ولا أصدقائه ولا أقرباءه أو زملاءه، بل ولا زينب نفسها.

التقى بها في المستشفى الذي تعمل به حيث كانت أمّه تخضع للعلاج. لطيفة ورقيقة وجذابة وذكية؛ لكنها تعتذر طيلة الوقت وتصرّح إن حدّثها أحد. حاول التحدث معها عدة مرات، لكنها كانت قليلة الكلام، وكلّما سعى لإطالة الحديث معها كلّما احتمت هي بالصمت. قالت له بعد ذلك إنها كانت تلوم نفسها فور مغادرته مكتبها على هذا الصمت، وتظنّ تتكرّر في كلّ الأشياء التي كان يتعين عليها قولها وصمّت عنها، وتقسم أن تقول هذه الأشياء في المرة التالية، لكنها لا تفعل. وظلّا هكذا حتى غادرت أمّه المستشفى. لكن بعد عدة شهور أصبحت الأم عاجزة عن الحركة، فاتصل برئيس القسم، وطلب منه إرسال أحد شباب الأطباء

لرؤيتها بالبيت، واقترح زينب، وهكذا أصبحتا يتقابلان في بيته عندما تأتي لزيارة أمّه مرة كلّ أسبوع، ثم تطورت الأمور بينهما بسرعة.

كان يشعر بانجذاب شديد لها، لكنّه أيضاً يميّ أن عشرين عاماً يفصلون بينهما، وعشرين شيئاً آخر. حين تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك ظلّ يُشير لفارق السنّ بينهما، وهي تتنكر عليه قائلة إنه سيمشي في جنازتها. لكنّ السن لم يكن الفارق الوحيد بينهما؛ فهو سريع وهي بطيئة، هو شديد التركيز وهي تائهة، هو حادّ الطباع وهي حساسة، هو طموح ومصمم وهي حائلة ومتشائمة، هو شديد الاهتمام بالأمور الفكرية وهي لا، هو شديد الكبرياء لدرجة الغرور وهي شديدة التواضع لدرجة التهاون، هو حريص على حماية صورته أمام الناس وهي مستسلمة لاستهانة الناس بها، هو يكره الناس لكنه يجر نفسه على الانخراط معهم وهي تحب الناس لكنها تنأى عنهم، هو متاور وهي صريحة، هو يلمع وهي هادئة، هو خبير بالحياة وهي مبتدئة. لم يكن متأكداً أن علاقتهما يمكن أن تدوم، أو أن ارتباطهما فكرة سديدة، لكنّه وجد نفسه منجذباً إليها بشكل لا يقاوم.

ذات يوم قرر أن يسير خلف مشاعره. كان مريضاً ونائماً يتأثر الحسّي والدواء، وعندما أفاق وجدها جالسةً بجواره تمسح على وجهه بمنديل مبلل. أمسك يدها وقبّلها. تمحّست شعره، ثم قبلته بحنان على يده، وسألته مباشرة إن كان يحبّها. ابتسم وقال يبدو هذا. ابتسمت قائلة إنها تحبه منذ رآته، وإنّها لا تعرف كيف ستعيش بعد أن يتركها. سألتها لم تفترض أنه سيركها فأجابات بأنها ليست عبيطة، وأنها تعلم أنها ليست جيدة بما يكفي، وأنه تاركها لا بحالة. ابتسم وقال لها إن ذلك سيكون



من حسن طالعها، فهو شخصية مُتعبة - مفترى قليلاً ومجنون شويتين. صمتت، وقالت ببطء وتصميم إنها تعلم ذلك، لكنه لا يخيفها. مال عليها، وسألها إن كانت تقبل الزواج به، فطابت على شفتيه قيلة طويلة ودافئة، وقالت "نعم".

ما الذي جعله يتزوجها؟ جاء هذا السؤال من ليلى مصحوباً بغضب، ومن يوسف مصحوباً بتشكك، ومن بقية الأصدقاء والمعارف مشوباً بالتعجب. وقد أسعفت حنكة إجابات شتى لكل منهم، وأعطى زينب كل هذه الإجابات مفاً كلماً سألته، وكانت تسأله كثيراً وكأنها تختبر صدق إجاباته، لكنه لم يجد إجابة تُقنعه هو نفسه. تزوجا، وبعد وقت قليل جاءه عرض من جامعة نيويورك للعمل بها. كانت سمعته قد بدأت في التوطد كمؤرخ جاد، ونشر عدة أبحاث في دوريات علمية مرموقة. جاءه هذا العرض فلم يتردد كثيراً.

كان قد مرَّ على عودته لمصر من لندن سبع سنوات ترشخت خلالها قناته بالأفائدة في البقاء بهذا البلد. عاد من بريطانيا بعد الدكتوراة لأنه شعر بمسئولية إزاء أهله ووطنه، لكن سبع سنوات من التدريس لطيلة جهلاء لا يفقهون ولا رغبة لديهم في التعلم جعلته يغير رأيه. سبع سنوات من القشل في تطوير التعليم بالقسم، رغم الوعود ورغم التمويل ورغم التصريحات، أُنعت له الفائدة. سبع سنوات من النقاش العقيم مع زملاء أساتذة وكتاب فقدوا المنطق ولم يعودوا قادرين على وصل الأسباب بالنتائج أُنعت به ضرورة الرحيل. سبع سنوات من التعامل مع مجتمع آدمى مشاكله ووضع كضحية وصار يُعادي من يحاول لفت النظر لضرورة

المخرج من هذا الوضع أُنعت به بأن هذه أمة في سبيلها للفرق ولن يتفهمها شيء أو أحد. ومن ثم قرر النجاة بنفسه. زينب وافقت على الرحيل من مصر التي قالت إن الحياة فيها خائفة للنساء. أما ليلى فقد رفضت البعد عن أصدقائها وقررت البقاء مع أمها، ودفعت يوسف بالتعبئة للبقاء.

رحل درويش مع زينب تاركاً الطفلين وهو عازم على استمالتهما للانتقال معه لاحقاً. ناسبته الحياة في نيويورك وكأنها خلقت على مقاسه. ووجد في الجامعة المناخ الذي طالما تاق له. استقرَّ بها وازدهر عمله وتآلق. أما زينب فوجدت الحياة في نيويورك قاسية. في البداية تعين عليها اجتياز اختبارات شتى لمعادلة شهادتها الطبية، رغم أنها كانت تمارس الطب فعلياً في إحدى كبرى مستشفيات مصر. وأخذت هذه الاختبارات الكثير من وقتها وطاقاتها التي تحتاجها للتأقلم مع بقية جوانب الحياة الجديدة. وأثر ذلك سلباً على حالتها النفسية وقدرتها على مواجهة مسئوليات البيت والزواج. لم يعجبه ذلك، لم يعجبه البيت. وعمر عن امتعاضه بوضوح. لم يجد زينب الوقت الكافي للعناية به، أو بالمتزل العتيق الأنيق الذي اشتراه في الناحية الغرية للمدينة وكان فخوراً به. فشلت في الوفاء بوعودها الخاصة بالعناية بالديكور والأثاث، بل حتى باختيار ألوان وأنواع الستائر. لم تكن زينب في يوم من الأيام خبيرة بهذه الأشياء، ولكنها زعمت أنها ستفهمها في نيويورك، وطبعاً لم يكن هناك وقت كاف لتعلم أي شيء. كل صباح تواجه بقرارات عليها اتخاذها فوراً ودون معرفة كافية بالعواقب؛ إن أحجمت توقفت أمور الحياة مما يثير حنقه، وإن أخطأت - وهو ما يحدث كثيراً - زاد حنقه أيضاً، وإن

تظاهر بتفهم الأمر. لكن محاولاته لم تنطلي عليها، كما صرحت بعد ذلك في مشاجرة اتهمها العديدة.

لم يقتصر إعمالها على شئون البيت، بل امتد لكل شيء آخر، فلم تعد تجد الوقت للاهتمام بنفسها، ولا أن تكون جزءاً من حياته الاجتماعية في نيويورك، وأصبحت يميل للاعزال والاكنتاب. تحولت امتحانات المعادلة إلى هم مُقيم، تصحو في الصباح ووجهها منقبض وكأن أحدًا دهمس عليها لثوه. ثم تُبدد الصباح مُتقلّة بين أرجاء المنزل دون أن تفعل شيئاً مُحدداً. وبحلول الظهيرة تكون قد استنفدت كل وسائل التسويف المعقولة وغير معقولة، فتضطر للبدء في المذاكرة، وتظل تناضل مع مواد وأشياء غير مفهومة لها حتى الخامسة، فتقوم لتعد العشاء. لكن شيئاً ما ينحو نحو الجهة الخطأ، وإن أبدى أقل ملاحظة على ما تقطعه سقطت في الضمت والتعاسة.

قالت زينب إنها بطيئة، لكنها ليست غبية. وكانت شاشات الرادار لديها تسجيل بدقة تدهور تقديره لها. تحدثنا في ذلك كثيراً. قالت إنها تفهم أسباه، لكنها لا توافق عليها. حاولت شرح الأمر من وجهة نظرها، وكيف أنها تحتاج للشعور بالحب والإعجاب كي تزدهر وتثاق. قالت إنها لا تطيق ميله للحكم عليها طيلة الوقت، وإن مراقبته المستمرة لها تجعلها ترتبك وتعتّر. ذكرته عشرات المرات باختلافهما، وبحبها لها، وسألته عشرات المرات لم يقول إنه يحبها إن كان يفض كل هذه الاختلافات ولا يطبقها! حاول أن يشرح لها أنه يفهم منطقها، لكنه لا يسيطر على شعوره بالضيق من أخطائها. وعدها بأن يحاول، وقالت إنها ستحاول

هي أيضاً، لكنها لم تجد في نفسها القوة للمحاولة، ولم يستطع هو إخفاء حنقه عن راداراتها المتقدمة. ومع استمرار التدهور هدّته بالرحيل إن شعرت بفقدانها حُبّه. ضحك وسألها أين ستذهب، فقالت ببساطة إنها ستختفي. وبالطبع لم يصدقها.

ذات صباح أعلنت أنها قررت الانسحاب من امتحانات المعادلة أو "تأجيلها". اعترض علمه بأهمية الأمر لها، لكنها أصرت. قالت إن استعادتها لسيطرتها على حياتهما وتجنّب استمرار التدهور في علاقتهما أهم من أي شيء آخر. واصل الاعتراض، فماذا يبقى لها إن تخلّت عن العطب؟ لكن ردودها كانت واضحة ومقنعة. نعم هي طيبة وهذا هو الشيء الأساسي الذي يُميّزها عن غيرها، لكنها أيضاً امرأة وزوجة محبة، ولا تستطيع تعريض زواجهما للخطر. مستعيد سيطرتها على حياتها أولاً، ثم تعود لهذه الامتحانات اللعينة في العام القادم أو الذي يليه. لم يوافق على قرارها، وسألها ساخراً عما إذا كان الأمر سينتهي بهاربة بيت، فاعتصمت ضحكة، وقالت إنها ستدرس أشياء أخرى وستقرأ عن الموضوعات التي ظنّت طيلة عمرها تريد تعلّمها ولم تنح لها الفرصة. سألتها مُتهكّماً مثل ماذا؟ فأجابت ببساطة: "الموضوعات التي تدرسها أنت، تاريخ العرب مثلاً". لم يعرف م يجب، خطر على باله أن يقترح عليها كتاب حوراني المشتم ثم عدل فوراً عن ذلك. لكنها عادت بعدها بيومين، وسألته إن كان لديه كتاب عن تاريخ العرب، فقام وأحضره ووضعه في يدها دون أن ينس بكلمة.

ثم جاءت ليلى ويوسف للإقامة معهما بعد موت أمهما. طول عمره

يعتقد أنه من الأفضل له وللأطفال أن يعيشوا سوياً. فمن ناحية يُدوي جرحه القديم، ومن ناحية أخرى يساعدهما على تجاوز عقدة الانفصال وحلحلة علاقاتهم المعقدة. جاء موت الأم مباحثاً للجميع وكان أفضل شيء هو سفر الأطفال كي يغفروا الجرح كله، كما أن جامعات نيويورك ستفتح عقليهما ونفسيهما على آفاق أرحب. ما لم يذكره وقتها هو أن الأحياء والناس لا تسير بالضرورة وفقاً للمنطق، بل تتبع آلياتها الخاصة. ليلى أعلنت حرب التحرير فور وصولها، في حين أعلن يوسف الاستقلال. ليلى التي قررت الحلول محل زينب في حياة أبيها قالت إنها لا تفهم سر اختياره لهذه المرأة وإن ربما كانت أفضل منها وأنسب. وكلّما بذل جهداً في شرح مميزاتها ليلي كلّما أمعنت في التحقير من شأنها. وعلى عكس توقعاته، لم تفلح الحياة المشتركة، ولا الظروف اللطيفة التي توفرها الحياة في نيويورك لفترة في من ليلى بأن تغرّ أو تخلف عن عدائها لزينب. بل على العكس، بدأ أن هذا العداء يتزايد ويتحوّل لنزاع مستمر حتى ساد التوتر البيت، تكاد تلمسه باليد في كلّ كلمة وحركة صغيرة؛ تغيير قنوات التلفزيون، تشغيل الموسيقى، درجة الإضاءة، مواعيد النوم، أماكن الجلوس والمذاكرة، اختيار فيلم في السينما، اختيار الطعام، إهداء الرأي. كلّ شيء تحول لنزاع تسعى من ورائه ليلى للتقليل من شأن زينب في حين تحاول تلك الدفاع عن نفسها وإثبات جداتها. أما يوسف، فقد دخل ما قيل له إنها غرفته عند وصوله، ولم يخرج منها حتى أنهى دراسته الجامعية بعد ذلك بأربعة أعوام إلا للطعام أو الخروج من البيت. لم تفلح محاولات أبيه المستمرة في جعله يجلس خارج غرفته: يناديه لا يرد. يذهب للبحث عنه،

فيجد ساعات الكمبيوتر مستقرة على أذنيه. ينظر يوسف له مستهتماً وهو يزيح السماعات قليلاً: إن وجهه له سؤالاً أجاب عليه باختصار، وإن كان لدى الأب معلومة استمع إليها وأوماً أو علّق عليها باختصار، ثم ابتسم ابتسامة موحدة لجميع الأيام والأوقات، وأعاد السماعات لأذنيه، واستغرق فيما كان يصده.

فشلت الحياة المشتركة في كسر الحواجز بينهم، ولم يعد يعجبهما شيء. امتدّ مسطح ليلي وصمت يوسف فشمل الجيران والجامعة ونيويورك نفسها. وفشلت زينب بطبيعة الحال فيما لم ينجح هو فيه. ضاق بذلك. ممثى في سرّه أن تكون زينب ساحرة، تستطيع بحركة من عصاها أن تأمر قلبه يوسف وليلي. وفي حين أدركت زينب مدى إله فإنها شعرت بلومه السري لها، ولم تفهم لم يلومها. لم يلومها على كلّ شيء؟ تنظر إليه وترى ضيقه بحياته وبها يزيد، ويُشعرها ذلك بالظلم والفشل معاً. تناقشه، ويتشاجران، ويتصافيان، لكن جرحاً ما يظل. ومع كلّ مرة كان اليأس من تغيير الوضع يتزايد.

استقرّت الأمور في المنزل عند درجة الغليان، وأصبح الطابق الأرضي للبيت ساحة حرب مستمرة، تُعرض حياتك للسهم إن خطوت من المطبخ لغرفة المعيشة. انتهى به الأمر للياس من الثلاثة، ومن ثم حذا حذو ابنه، واحتسّى بغرفة مكتبه ورفوف كتبه في الطابق العلوي، وصار يقضي أوقاتاً أطول في الجامعة. واتخذت ليلي من غرفتها في الطابق الأرضي مركزاً للعمليات: تقضي بها معظم الوقت وهي تترنّص بالمارين، فإن لمحت زينب أو لمحت تحركت على الفور للساحة طلباً للنزاع. وبعد عدة

شهور، شعرت زينب بالإلهاك، وبأنها تخارب على كل الجبهات في وقت واحد دون نصير أو حليف ودون سبب واضح يدفعها للصمود. لم تعد تريد إثبات جدارتها لأحد: لا ليلي الغاضبة، ولا ليوسف المغلق، ولا لزوجها الذي انسحب. أدركت أنه قد بأس منها، ولم ينكر عندما سأله فهبط عليها بأسها الخاص. استسلمت، وبدأت عملية الذبول الطويلة التي أودت بحياتها. ذبلت شيئاً فشيئاً، وهو يرقب ذبولها، ويزداد حنقه عليها. يحتملها في سره مسئولية كل ما يحدث، بما في ذلك ذبولها. وحين رحلت ليلي لكاليفورنيا في منحة لدراسة الماجستير، ثم رحل يوسف في منحة مشابهة لوتريال، لم يبق بالبيت سوى صمته وذبولها. لم تدخل امتحانات للعادة أبداً، رفضت هازئة حين ذكرها، وغضبت حين ألح. اتفق مع طالبة تدرس التصميم الداخلي على إعادة ترتيب المنزل - وألقى بالسائر القبيحة التي كانت قد اختارها على عجل في القمامة - واستخدم كتيبي لتولي مسئولية التنظيف وإعداد الطعام. أصبحت زينب تقضي يومها بين الأريكة وبعض المجلات وشاشة الكمبيوتر أو التجول في الأسواق دون شراء يذكر، لكنها واصلت على قراءة كتاب حوراني. تقرأ فقرة أو اثنين كل يوم، وتكتب ملاحظات في كراسة بحورها. كلما عاد زوجها من الجامعة وجدها في إحدى الأرائك نائمة، والكتاب فوق صدرها. يوقظها، فتجفل ثم تجمع حاجياتها مرتبة وتذهب للفراش، حتى عاد ذات مساء وأيقظها، فلم تستيقظ.

خمس وعشرون عامًا. مرَّ على ذلك خمسة وعشرون عامًا. واجه رحيلها بجدارٍ من الحديد. لم يتفجر باكياً، بل أتى حزنه في صورة سكون

وإذعان، كأنه امتداد لليأس الذي أصابه منها. لم يعد للنساء بعد زينب؛ لم يتخذ قراراً واعياً بذلك، وإنما عزفت نفسه عن النساء والعلاقات الحميمة بشكل عام. لم يفكر كثيراً في رحيل زينب، تقادى التمتع فيه وفي معناه، ربما كان رحيلها أكبر من قدرته على التحمل، وكانت هذه طريقتها في التعامل معه، بإخفائه أو تجاهله، أو بإغلاق الموضوع برمته. لم يستخدم كلمة الموت مرة واحدة؛ قال رحلت، غادرت، مرت، ولم يقل أبداً زينب ماتت. لم يعد يفكر فيما حدث، وإنما طواه ووضعته في مكان ما وتركه هناك، مثل بقية أموره العاطفية، مثل هذه الكتب، مثل أشياء أخرى كثيرة. كأن حياته العاطفية ساعة توقفت عن العمل. دخل هذا الجزء منه في حالة بيات شتوي طويل، وبقي الجزء الآخر الذي يعرفه ويسيطر عليه: التدريس والبحث والكتابة. أصبح أكثر اهتماماً بطلبته، ويقضي وقتاً أطول معهم في الشرح والتفاه، وتطوع للمشاركة في كل اللجان الممكنة بالجامعة، وقبل الإشراف على الرسائل العلمية لكل من طلب منه ذلك، وأفرغ بقية وقته في البحث والكتابة حتى ذاع صيته، وأصبح قبلة المؤرخين في أمريكا الشمالية كلها. جاءته بعض العروض من مصر للعودة والتدريس بها. جاءته عروض أخرى من دول ودور نشر عربية، للتدريس ولو لعام، للكتابة أو النشر، ورفضها كلها. لم يكن يرى أي فائدة في هؤلاء الناس أو في محاولة تعليمهم أو تغييرهم. لم يعد يرى فائدة في محاولة تغيير أي شيء. لم يعد حتى يحاول. حلَّ محل السعي شعور هادئ بالرضا بما في يده، دون مطمع فيما يقع خارجه سطرته؛ لا يفرح بما أوتي، ولا يحزن لما حُرِم.

استسلم حتى فيما يتعلق بليلى ويوسف. قبل بعجزه عن إخراج

ليلي من غضبها ويوسف من قوقته. أنهت ليلي دراستها العليا ببركلي ولم تعد لنيويورك، فلم يحاول الضغط عليها لتعود. عملت كمحامية عدة سنوات في لوس أنجليس، ودخلت في عدة علاقات لم تدم أية منها. اتصل بها من وقت لآخر، يسمع أخبارها ويعلق بشيء أو بآخر، وينتهي الحديث بغضب مكوم، لا شيء أكثر من ذلك. بعدها بسنوات قليلة عادت ليلي لمصر رغبة منها في "عمل شيء مفيد". أبدى امتعاضه لكنه لم يمنعها. اتصلت به بعدها من مصر، وقالت إنها تعرفت على طبيب مصري، لقمان، ثم تزوجته وأنجبت سلمى. صارت ثاني هي وسلمى - وأحياناً لقمان - لقضاء الصيف في نيويورك. يقيمون معه بالبيت، لكنهم لا يقضون وقتهم معاً، وكأنهم يتشامرون فندفاً. تكاد كيتي تكون حلقة الوصل بينهم. أحب سلمى، لكن ليلي كانت تفرص على عدم تطور علاقتها به إلى ارتباط. أبقت الكل بعيداً، وهو يرى ذلك ولا يحاول حتى مقاومته. ثم أخذت هذه الزيارات تقصر وتباعد حتى توقفت منذ سنوات. انفصلت ليلي عن زوجها - ترى هل غفرت له ساعته انفساله عن أمها؟ - وعرف بعدها أنها تحببت وتشددت في حياتها؛ قال لها في التليفون شيئاً أو شيئين اعتراضاً على ذلك، فتوترت للحادثة بينهما وتوقفت، وأذعن. أما يوسف فوجد لنفسه وظيفة مع الأمم المتحدة أخذته ليؤر الصراع في أفريقيا واحدة بعد الأخرى، وظلّ دوماً بلا زواج. لم يحاول إنشائه عن هذا العمل الذي وجده مضيقاً للوقت والحياة، ولم يحاول دفعه للزواج. من هو كي يفعل أباً من هذا؟ وحين ترك يوسف

عمله بلا سبب واضح، وعاد ليعيش في مونتريال بلا وظيفة تحت دعوى العمل على كتاب لم يقل درويش لانه شيئاً. ما الفائدة؟ ليس الأمر أنه لا يهتم بأمرهما، لكنه لم يعد يحاول توجيه حياتهما. لم يحاول وقف ليلي أو تعقيل يوسف، لم يحاول جمع شملهم من جديد أو حلحلة عقدهم القديمة. استسلم، لا أحد يغير أحداً.

خمس وعشرون عاماً وأكثر منذ أذعن للدنيا. فماذا حدث له الآن وهو جالس على الأرض الخشبية أمام مكتبته القديمة؟ يمسك بكتاب حوراني وكأنه عثر على أداة الجريمة، ويرى الأشياء فجأة في ضوء آخر. يهدوه ودون دراما يشعر أنه فهم، كأنه بقيق من حلم طويل. "أهكذا يكتشف للمرء حياته: جالس على الأرض يفرز كتبه القديمة قبل إلقائها في القمامة؟" يسأل نفسه: كيف لم يفكر في هذا من قبل؟ بعد خمسة وعشرين عاماً من موت زوجته يخرج الثور من بين صفحات كتاب قديم؟ يرى زينب كأنها أمامه؟ تبسم ابتسامتها للحبة الواسعة، وفي عينيها رجاء. هذه النظرة هي أكثر ما أحب فيها. رآها كثيراً، لكنه لم يفهمها. يراها الآن ويفتقدها، فجأة وبشدّة. أياها كل هذا من كتاب حوراني؟ لم يلمس هذا الكتاب أو يره منذ وفاتها. هل هو الذي أعاد ذكرى زينب إليه الآن؟ يحنّ إليها من جديد، مثلما كان يحنّ إليها وإلى صحبتها حين قابلها، وحين سألها أن تزوجه. لو كانت هنا الآن لسألها الزواج من جديد. وقتها أدرك أنه يريد قضاء بقية حياته معها هي ولا أحد سواها، والآن عاوده نفس الشعور. هذا الشعور الذي اختنق تحت وطأة الستائر القبيحة والفوضى وامتحانات

للعادلة والفشل المشترك ثم مات مع موتها. لكن لم يعد الآن للحياة؟ لأنه ذهب إلى موته هو الآخر؟ أم هو الغطاء الحديدي الذي وضعه فوق قلبه منذ ماتت بنزاع الآن، فيخرج ماكان تحته؟

بحسب نفسه الآن: أليكون قد اقرتف الخطيئة التي يعظ ضدها كل يوم؟ هو الذي يعلم الشباب كيف يراجعون مسلماتهم ويشكون فيما تعلموه ويبدون من جديد، متى راجع مسلماته؟ متى وضع نفسه عملاً للشك أو للتساؤل؟ قيم كان كل هذا الاهتمام معرفة نسائه بتاريخ العرب؟ كيف ترك حوراني يقرر مصير حبه؟ كيف ترك القواعد وللعاير تخنق المرأة الوحيدة التي أحبها وتخنق حياته معها؟ كيف لم يفهم، طيلة هذا الوقت، أنه تزوجها لأنه أحبها؟ أحبها رغم عدم مطابقتها للنموذج المرسوم في ذهنه، فلم ترك النموذج يقود حياته معها؟ لم لم يستسلم للحب؟ أليس هذا ما حاولت زينب أن تشرحه له حين كانت تسأله عن سبب زواجه بها إن كان معترضاً على كل ماقتعله؟ لم يسمعها. الآن يدرك أنه لم يسمعها، أنه كان يعطشها. مثلما كانت جين تقول: يعظ. لا يصدق أنه وقع في هذا الخطأ الساذج: رجل لا يستمع لما تقوله زوجته، بالظفافة! لكن لماذا لم يستمع؟ يتساءل إن كان قد فعل ذلك تحت ضغط ضغينة الأولاد ضده وضدها؟ أبحاول الآن لومهما على أخطائهما؟ لا، هو للسؤال عن أخطائهما، بل وعن أخطائهما. هو الذي زرع فيهما بذرة ما كان يشكو منه وأنشأهما ليتبع نفس الطريق. ليلى النابغة، موتورة وتعيش وحدها في غضب. أحب لربع شباب وهي في الجامعة، وتزوجت الخامس، وفي كل مرة كانت تصرخ لأبيها أنها "وجدت الرجل الذي تبحث عنه". الرجل الذي تبحث عنه/

للمرأة التي يبحث عنها! من يدري، لعل لديها نسخة من كتاب حوراني. ويوسف الأعزب الأبدى، ترى ماذا يحمل في جعبته؟ يحاسب نفسه الآن، كيف سمح بكل هذه الفوضى؟ بل كيف لم يسمح ببعض الفوضى؟ أترى لو أنه لم يسخ للسيطرة على كل شيء بهذه الدرجة كانت الأمور ستكون أفضل؟

نظر في ساعته. تقترب من الساعة ويوسف على وشك الوصول. لا جدوى من مواصلة فرز الكتب؛ فلتذهب كلها للجحيم. ما الفارق؟ سيتصل بليلى ويطلب منها المجيء لنيويورك، وإن رفضت هذه المرة سيقول لها إنه يموت، ويريد أن يراها مرة أخيرة. لو استطاع للذهب لزيارتها في مصر، لكنه لم يعد يقدر. ربما يمكنه استبقاء سلمى حتى تأتي لها، ربما أفتح الأم بترك سلمى لتلتحق بالجامعة هنا، من يدري، ربما بقيت ليلى هنا أيضاً ولو بعض الوقت. وسيحاول إقناع يوسف بقضاء فصل الشتاء معه بالشاليه. يمكنه العمل على كتابه المزعوم هناك، أفضل من برد مونتريال القارس. سيترف لهما بمعرضه وموته الوشيك. سيصدقهما ذلك، وربما بغضبان لاخفاته الأمر عنهما أو حتى لأنه مريض وعلى شفا الموت، فهما يتوقعان منه أن يكون قوياً وصلداً وأبدياً. هذه هي الصورة التي طبعها في عقليتهما، هذا هو المثال الذي وضعه لهما ودفعهما كي يقلداه. سيغضبان ويشعران بأنه يتخلى عنهما بموته الوشيك. لكنه سيفتح قلبه لهما، ويعترف بأنه أخطأ في تربيتهما: لن يحاول التهزب من المواجهة، سيترف بأنه أخطأ، وبأنه يخطئ، وبأن الكل يخطئ. سيحاول أن يكون إنسانياً أكثر، ربما يدفعهما لمراجعة أنفسهما هما الآخران. هذه هي فرصته الأخيرة:

فطار العاشرة، ومعنى ذلك أنه لن يُتاح لهما الوقت للحديث في الصباح. لم يذهب لوتريال بالقطار بحق الجحيم، من يفعل هذا؟ وما الذي أخره هكذا؟ ألم يتعهد أن يأتي في الساعة ليتولى التأكد من تمام شئون عيد الميلاد؟ ألا يستطيع أن يأتي في مواعده ولو مرة، مرة وحيدة قبل وفاة أبيه؟ هل يحادثه أثناء العشاء؟ يمكنه أن يتنحى به جانباً ويحادثه، لكن ذلك سيجعل الآخرين يشعرون بحرج، لا، لا يليق ذلك. سيطلب منه تأجيل سفره كي يُحدثه في الغد؛ سيقول له ذلك عندما يصل، هو الذي تأخر وعليه تحمّل نتائج أفعاله. ثم لماذا لا يسافر بالطائرة مثل البشر؟ ما فتنه والقطارات؟ نعم، سيطلب منه ذلك ويُحادثه في الصباح بعد رؤية المحامي. سيسير كل شيء على مايرام، طمان نفسه، فقط عليه الآن أن يقوم من على الأرض، ويضع كتاب حوراني مكانه، ويستعد لاستقبال يوسف والضيوف.

www.mlazna.com  
^RAYAHEEN^

ربما تفتح الصدمة قلوبهما، ومع بعض الإلحاح قد ينجح في حملهما على الحديث إليه بجهد، على إخراج ما يدفونه في أعماقهما. ربما تنجح الصدمة في دفعهما للتفكير في حياتهما بشكل مختلف، للتفكير في أخطائهما وفي مسئوليتهما عما حدث لهما فلا يُكرران أخطاه. يدرك أنه لن يستطيع فعل كل هذا في حديث واحد، أو في زيارة واحدة، بل سيطلب الأمر مثابرة ووقتاً. مازال أمامه عام، أو اثنان.

إن نجح سيكون ذلك أفضل ما يتركه لهما. لا يريد منهما تعبيراً عن الحب، لا يحلم بحياة مشتركة سعيدة في المستقبل، فلم يعد هناك مستقبل. كل ما يطمح إليه أن يساعدتهما على تجاوز أخطاء الماضي. ومن يدري، ربما يأتي يوسف وليلى لقضاء بعض الوقت معه في الشاليه، ولو لبعض الوقت. وربما بعد أن يموت على ضفاف تلك البحيرة، يتذكران أوقاتهما الأخيرة معه أكثر من تذكرهما لجراح الماضي، وتكون لهماهم الجديدة تلك هي كل ما يبقى لهما.

قرر أن يفعل ذلك، الليلة. سيبدأ بالحديث مع يوسف، لن يتركه بلوذ بالصمت. ثم سيتحدث مع ليلى بالتلفون، ربما في الصباح، بعد أن يتحدث مع سلسي عن فكرة بقائها هنا للدراسة. نظر في ساعته ووجدتها قد تخطت الساعة. شعر بغصة؛ مالذي أخر يوسف كل هذا الوقت؟ سيصل المدعوون في الثامنة، ومعنى هذا أنهما لن يُتاح لهما الوقت الكافي للحديث. سيضطر لتأجيل الحديث معه للصباح إذا، ثم يتحدث مع ليلى في مساء الغد. لكنه سيقاتل المحامي في الثامنة والنصف صباحاً، ولا يمكنه تأجيل هذا الموعد. قال يوسف إنه سيرحل عائداً لـ لوتريال في

## 2

### الرجوع إلى مارك

عندما لمح رامي المحصل يفتح باب العربة عدل باقة قميصه بسرعة، فهو دائم القلق من أن تكون فاتته الداخلية ظاهرة. شد باقة الجاكيت ليتأكد من تغطيتها تمامًا. مرّ المحصل دون أن ينظر إليه، فهو جالس هنا منذ ساعتين. توقف المحصل عند الراكبة الشابة التي صعدت للقطار في آخر توقف وفحص تذكرتها ثم مضى عائداً نحو عربة القفص. القطار ممتلئ بالركاب الذاهبين لنيويورك في عطلة نهاية الأسبوع. هذا هو وقت الفروقة في أسعار السفر؛ كلقت التذكرة مائة واثنين وعشرين دولاراً كاملة. لو كان قد أجل سفره لصباح الغد لوفرّ أربعين دولاراً، لكنه كان سيغفوت عشاء الدكتور درويش، وهذه أول مرة يدعوّه لمنزله منذ سنوات. اشترى



التذكرة الأعلى، ثم فاته القطار حين نام كالغبي في محطة واشطنل وفاته القطار. لا يصدق أنه فعل ذلك. لكن بعد اثنين وعشرين ساعة جلوس في القطار القادم من ميامي كان متعباً، ولا يدري كيف نام على رخام محطة الاغاد في واشطنل لكنه نام. وعندما استيقظ أدرك أن قطاره قد رحل، ومعه موعد العشاء وكلّ الترتيبات التي أجهزها. وقبل أن يتنهار تماماً أسرع وأخذ القطار الأخير الذاهب لنيويورك. لا يعلم ما سيفعله هناك بالضبط، لكنه سيفكر في الطريق.

بقي حوالي ساعة ونصف ويصل نيويورك. لا بد وأن هذه الفتاة ذاهبة لنيويورك أيضاً. تبدو في عمر ساشا ابنته. وضعت سماعات في أذنيها فور جلوسها وبدأت تستمع للموسيقى، لكنها أبقت الصوت منخفضاً. مالت عليه وسألته إن كان الصوت يضايقه فنفى. فتاة لطيفة. هكذا تبدو، لكن من يدري، لعلها تسرق أوبوها. تحسّس الأربعة عشر دولاراً الباقية في جيبه، وانتمت لنفسه في سخرية. لم يعد يشعر بالضغينة؛ حدث ما حدث ووصل إلى النقطة التي وصل إليها. لا يحمل ضغينة ضد أحد، لا ضد ربّ العمل، ولا ضد زوجته ولا ابنته. فعل كلّ منهم ما يجبل عليه، فما فائدة الضغينة؟ لكنه حزين؛ لم يتوقّع كلّ هذا الجفاء. وغاضب على نفسه، فلو أنه رتب بناته بشكل أفضل، لو كان أقلّ تساعاً أو تهاوناً معهم لربّما عاملوه بشكل أفضل. فكر في ذلك كثيراً في الشهور الماضية، لكن في كلّ مرة يفكر في الموضوع ينتهي لنفس النتيجة، وهي أن ألوان هذا الكلام قد فأت. ترى ما هو حال سلمى؟ أن تكون مثل ابنته، أم أن تربيتها بحصر جعلتها مختلفة؟ لم ير سلمى منذ كانت في العاشرة من عمرها، والبنات

يتغيّرون بسرعة في هذه السن. يتغيّرون بسرعة لا تصدق. نظر في ساعته ثم في التذكرة: سيصل القطار إلى نيويورك قرب منتصف الليل، وستوجه مباشرة لمنزل الدكتور درويش، ثم يأتي مارك وأخذه من هناك بعد العشاء ليقم معه في بروكلين. وعجز أن يستقر عند مارك سيعيد التفكير في كلّ هذا.

رامي الجالس في عربة القطار وفي جيبه أربعة عشر دولاراً لم يكن دائماً هكذا. كان ربّ أسرة، ولديه ابنتين في سن الزواج، يعمل في شركة كبرى للعلاقات العامة بوظيفة مرموقة تُدرّ عليه دخلاً جيداً سدّد منه كلّ أنقساط البيت الكبير الذي يسكنه بميامي. يعيش حياة هادئة ومستقرة، وعلاقته جيدة بحيرانه وزملائه بالعمل. لم يكن أبداً شخصاً مثيراً للاهتمام أو محط أنظار الزملاء أو الجيران، ليس النوع الذي تدعوه للعشاء في منزلك كي تقاخر به بقية المدعوين، لكنه شخص محترم ويُعتمد عليه هادئ، وودود، مُحافظ في عاداته وأخلاقه؛ لكنه يقبل بالاختلاف ولا يبدس أنفه في شئون غيره. تخرّج من قسم الدراسات العربية بجامعة نيويورك، ثم عمل مع الدكتور درويش في مشروع بحثي لمدة ثلاث سنوات. كان درويش يحبه ليس فقط بسبب القرابة البعيدة التي تجمعهما (ابن عم رامي متزوج من ابنة خالة درويش) وإنما بسبب طبيته وصرافته.

كان رامي أيضاً شاكراً في عمله وهي صفة فارقة في حياة أيّ باحث، وتنبّه له درويش بمستقبل واعد إن واصل الحياة الأكاديمية. لكن وظيفة كبيرة بشركة مشهورة للعلاقات العامة والتسويق جعلته يغيّر رأيه. وجد أن المرتب الذي سيحصل عليه في شهر يفوق ما يمكن أن يحصل عليه في عام

بالجامعة حتى لو صار أستاذًا بها، فقيل. لم يُعجب قراره الدكتور درويش وقتها. استغرب مجرد تذكره في العرض وترك الجامعة. وغضب لأن رامي تنازل عن الفرصة التي أتاحها له. كان درويش يحب رامي ويقدره، لكنه شعر أنه خصه بتكريم وتشريف العمل بجانبه، ثم تركه رامي من أجل حفنة دولارات؛ بالرخص! تركه برحل في امتعاض، وظل رامي يسأل عليه مرة كل عام، ويتلقى منه إجابة مُقتضبة. لم يادر درويش قط بالسؤال عليه، لكنه سمح لرامي بمواصلة السؤال عنه، ودعاه لمنزله في كل مرة أتى فيها لنيويورك. هكذا قابل سلمى حفيدته. كانت سلمى طفلة حبوبة، تسعى لصداقة من لا تعرفهم ولا تخشى الغرباء. وحين كان رامي يزور أستاذه في الصيف كان عادةً ما يجد سلمى التي تقضي الأجازة مع أمها بنيويورك. أحيانًا كان رامي يأتي بابتته ساشا معه ويأخذ سلمى معها للسينما أو لنزهة. لكن كل ذلك انقضى. لم يعد يذهب لنيويورك في الأعياد الماضية، وحين فعل لم يعد درويش يدعوها للزيارة. وانحصرت علاقتهما في المعابدات السنوية من قبل رامي ورد درويش المُقتضب عليها. لذا كانت دهشته كبيرة حين دعاه لهذا العشاء. وطبعًا حرص على تلبية الدعوة حتى لو كلفه الأمر الدولارات الأخيرة في جيبه.

منذر حل لرامي للعمل في تلك الشركة وحياته طيبة ومستقرة. وجدت زوجته ماريما، الكوبية المولدة والتي تأتي عائلتها من أصول لبنانية، عملاً كمدرسة للغة الأسبانية بمدرسة خاصة قريبة من المنزل، واستطاعوا إلحاق ابنتيهما بجامعة ستانفورد المرموقة، بل وحصلت الكبرى، ساشا، على منحة دراسية تُغطي مصروفاتها بالكامل. كل ما كان يُنقص على رامي

حياته هو شعوره بالوحدة. لم يكن قادرًا على شرح حقيقة ما يشعر به لأحد، وعندما يحاول أن يشرح لزوجته ماريما ما يقصده بالوحدة ينتهي الأمر بمشاجرة. لجأ لساشا، الكبيرة والأكثر عقلًا من مارتا، وحاول أن يشرح لها ما يعنيه بالوحدة، لكن الكلمات لم تسعفه. هو المترجم لم يجد من الكلمات الإنجليزية ما يُعبر به عما يقصده بالضبط. وساعتها اغتم أكثر، اجتاحه الشعور بأن الوحدة هي بالضبط هذا، أن تشرح لابتك شيئًا بلغة ليست لغتك، ألا يمكنك فهمك إن تحدثت بلغتك. صمت تلك المرة وغيّر الموضوع، لكن ساشا كانت في تلك المرحلة التي تحاول فيها البت أن تكون كبيرة، وأن تستمع لأبيها وأُمها وتُحادثهما في أمور الكبار؛ كي تُبعد نفسها عن الصورة النمطية للمراهقة التي لا تتحدث إلا عن نفسها ولا تستمع لأحد. ظلت ساشا تطارده، وأمام إصرارها بدأ يحكي. في البداية قال لها إنه يشعر بالوحدة بمعنى أنه يعتمد في حياته على نفسه كلية. ذكرته بأن هذا هو وضع الجميع في أمريكا فأتى على كلامها، لكن هذا ليس العالم الوحيد الذي يعرفه، فهناك عالم آخر مازال يذكره:

— عالم به أهل وأصدقاء يساعدونك في الشدة، تكونين متأكدة أنهم هناك، وأنهم سيقفون بجانبك حين تحتاجين لهم، سواء كان هذا الاحتياج عاطفيًا أم ماديًا.

قص عليها قصصًا كثيرة من حياة عائلته التي كان يزورها وهو طفل في الأجازات، ومن حياة الأقارب والأصدقاء والجيران الذين بنى معهم علاقات ود أثناء العطلة الصيفية، يعود كل عام فيجدها قوية، وكأنه تركهم بالأمس فقط. قالت له إن الإنسان يبالغ دائمًا في تحميل صورة الماضي فهد

رأسه نافيًا في أسي. حكى لها كيف أنه لم يكسب أصدقاء حقيقيين في أمريكا التي عاش فيها طول حياته، بقدر ما كسب أصدقاء في مصر التي لم يقيم بها سوى خلال عطلات المدرسة. البعض يلوم ضيق الوقت لكن الحقيقة أن أسلوب الحياة نفسه هو السبب. سألها إن كانت تستطيع زيارة أي من أصدقائها دون الاتصال مسبقًا، دون ترتيب موعد، وشرح لها كم يبدو ذلك مضحكًا إن حدث في مصر. الصديق هو من تعرفين أنك يمكن أن تهبطي عليه في أية لحظة.

ظَلَّ يحكي وهي تستمع، وتقاطعه من حين لآخر بأسئلة، كلما سألته كلما افتتح في الحديث معها أكثر، حتى اعترف لها أن الوحدة تشمل التحدث لبنته وزوجته بلغة غير لغته الأم، تشمل ألا يمكنهم مشاركته في الفرجة على أفلام شادية وسعاد حسني وماجدة، أو الاستماع لعبدالحليم سويًا، أن يحتاج للترجمة حين يتحدث معهم، كأنه مازال في الشركة، ترجمة بالنهار وبالليل، وليس فقط للكلمات بل ترجمة للمفاهيم. يجب أن يشرح حين يتحدث عن شيء يحبه أو يكرهه، أو حين يحكي لهم عن شيء جرى أو يجري في مصر. الوحدة أن يكون المرء في مكان وكل من يحب في مكان آخر، وعليه أن يحاول العبور لهم في كل مرة يحدثهم. لم يكن رامي يخطئ أن يقول كل ذلك لابنته، بل لم يكن يعلم أن هذه هي حقيقة مشاعره، لكنها لما سألته وأجاب وشرح بالحنان والأمان استرسل في الحديث حتى افتتح باب في نفسه وخرج منه كل ذلك. عندما قال رامي هذه الكلمات لابنته الكبيرة العاقلة ساشا لم يكن يعلم أنه قد بدأ سلسلة من التفاعلات ستتتهي بانتهاب حياته بالكامل.

لم تنهار حياة رامي مرة واحدة، بل خطوة خطوة في سلسلة لم يكن من الضروري أن تقضي بعضها لبعض. بل على العكس، تبدو بعض هذه الأحداث غير مترابطة وغير مبررة، لكن هكذا تسير الأمور أحيانًا، فليست كل قراراتنا نتيجة حتمية لما سبقها؛ أحيانًا تكون مؤزعين بين اختيارين، ونجد أنفسنا وقد انجرنا في طريق، ثم يسلمنا هذا الطريق لقرار جديد وهكذا. بعد عام نجد أنفسنا في مكان لم نخطط إطلاقًا أن نصل إليه؛ أحيانًا نتراجع، ولكن في معظم الأوقات لا يمكننا فعل ذلك فواصل التقدم. وأحيانًا نكون مُصممين على المضي في طريق، ونكون مستعدين للتضحية بالغالي والنفيس في سبيله. ونرد على أصدقائنا إن حاولوا ثنيًا عن قرارنا بأننا تعلم الثمن الذي علينا دفعه ولكن لا مناص، فهذا الأمر ضروري لنا كي نظل أوفياء لأنفسنا، كيلا نفقد ذاتنا أو كي نحققها، أو كي هذا أو كي ذاك، وبعد عشرين عامًا ننظر خلفنا ولا نتذكر أصلًا لماذا فعلنا ذلك.

سلسلة الأحداث التي قادت لتدمير حياة رامي من هذا النوع: سلسلة من القرارات العارضة التي يتخذها المرء دون كثير تفكير، قاد كل منها للآخر وفي النهاية إلى انهيار حياته التي بناها عبر ثلاثين عامًا. باح لابنته الكبرى العاقلة بمحكون نفسه، وبشعوره بالوحدة الذي يفتك به منذ جاء لأمریکا، وأدى ذلك البوح لأمرين: الأول أن ساشا، الكبيرة العاقلة، صدمت من كلام أبيها، وأكد لديها اعترافه ماكانت تشك فيه سرًا منذ وقت طويل، وهو أن الأب لا يحتمل حقيقة، وإنما وجد نفسه في حياة مشتركة معهم فواصل هذه الحياة. وأنها واختها وأمهما في جاتب، والأب الصامت الذي ليس

لديه شيء يقول له لهنّ في جانب آخر.

أكد اعترافه ماكانت تشك فيه سرّاً ولا تجرّو حتى على أن تقولها لنفسها، وهو أن الأب من نوع آخر غيرهنّ الثلاثة. هنّ الثلاثة "طبيعات" ومنذجبات في الحياة حولهنّ، أما الأب فهو دائماً الطرف غير المتسجّم، الطرف الغريب، منذ كانا في المدرسة وحتى الآن حين تدعو زميلاتها للبيت. الأم الجميلة القوية، صاخبة بعض الشيء، ولكنها تتصادق على كل زميلاتها وتغدق عليهن الطعام والرعاية والأسئلة، ومشهورة بين عائلات صديقاتها. الأخت بمنونة لكنها لا تختلف عن البنات مثيلاتها في هذا السن. الأب هو الشيء الغريب في حياتهنّ، هو العربي المهاجر، هو الذي لديه مشكلة في التأقلم دائماً. ساشا لم تتعاطف يوماً مع منطق المهاجرين الذين يتركون بلادهم طوعاً لمكان آخر ثم يشتكون من غربتهم. طول عمرها تشعر سرّاً أن أباهما ثقل يسحبها بعيداً عن الحياة الطبيعية التي تريد، والآن يبدو أنه يريد أن يشدّهم إلى ما هو أبعد. لم تقل لنفسها كل هذا الكلام، لكنّه مرّ في خاطرها، ثم سألت نفسها السؤال المنطقي التالي: ماذا يريد بهذا الحديث؟ إلى أين يريد أن يقودنا؟

الأمر الثاني الذي نتج عن هذه المحادثة هو إدراك رامي نفسه للأبعاد الكاملة لما كان يشعر به في قرارة نفسه منذ سنوات، ولم يلحظه أو يصيغه في كلمات، أو حتى أفكار واضحة. وبعد أن فعل فوجيء بحجم الهوة التي تفصله عمّا يريد. فوجيء بأن حياته كلّها سارت في طريق لم يريده، طريق صعب على نفسه احتماله. سأل نفسه لماذا لم يفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل؟ فكر قليلاً، ثم خلص إلى أنه ربما فكر في الأمر ولم يجره

كبير اهتمام، فقد كان مشغولاً. كان بيني حياته، يبحث عن الاستقرار والتقدّم المهني، ثم تأمين وضعه المالي ووضع أسرته، وقبل كلّ ذلك يرعى زوجته وابنتيه ويهتم بتعليمهما وتربيتهما، والبيت، ومن بقي من أهله في مصر ومقتضيات المساعدة في الوفاء ببعض احتياجاتهم، كلّ ذلك كان أشدّ إلحاحاً وضغطاً على حياته اليومية وتفكيره من أن يترك له الفرصة للتفكير في وحدته. الآن، ومنذ رحيل الفتاتين للجامعة وشعوره بالوحدة يتزايد في البداية فسرها بأنها تلك الوحدة التي نصيب الآباء بعد رحيل أولادهم، لكنّه لما حاول القفضة لزوجته وفشل، ثم بحث عن أصدقاء ليشاطرهم الحديث، ولاحظ أنه ليس لديه أصدقاء حقيقيون أدرك أن المشكلة أعمق وأكبر. ثم جاءت ساشا بأستلنها وحنانها اللذين أطلقا لمشاعره العنان. ومن ساعتها وإحساسه بالوحدة والغبين لاخطراره أن يعيش أسير هذه الوحدة يتفاهم، ويحتل مساحة أكبر فأكبر من تفكيره ومن تركيزه. وكلّما فكر في وحدته تلك أكثر كلّما زادت أهميتها في نظره، حتى لم يعد يفكر في شيء سواها.

الأمران التآخيان عن عملية البوح لساشا العائلة أحدثا أثراً ثالثاً، عند ماريا. فعندما استبدّ القلق بساشا في أعقاب هذه المحادثة، ولم تستطع أن تستبط وحدها هدف الأب من طرح هذه الأفكار الغامضة، قررت أن تشرك أختها الأقل عقلاً، مارتا. فزعت الصغيرة، التي قبل الجميع دورها كمجنونة العائلة، لما سمعته، وصرخت في وجه أختها أن ذلك يعني ولاشك أن الأب يريد أن يأخذهم من أمريكا ويرسلهم ليعيشوا في مصر. استبعدت ساشا هذا الأمر باعتباره جنوناً مارتا واثناً، لكن مارتا لم تسكت،

وظلت تشرح لساشا العلاقة بين الأمرين. الأب في السابعة والخمسين من عمره، لم يعد لديه ما يطمح لتحقيقه في أمريكا، وبعد رحيلهما من البيت يشعر بوحدة، وهو شيء طبيعي. كما أن علاقته بالأم باردة بعد عقود من الزنابة الزوجية، وهو شيء طبيعي أيضًا. ماذا يفعل؟ سألها مارتا في تحدٍ وأجابته دون انتظار رد أختها: الناس الطبيعيون يدخلون في علاقات حب جديدة أو يخونون زوجاتهم، أما المهاجرون غريب الأطوار مثل أبيهم فيفكرون في العودة لبلادهم الأصلية. لم تقتنع ساشا، فهذه ليست أول مرة تخرج عليها مارتا بتفسيرات غريبة لأموور في غاية البساطة. فلذكرتها مارتا بما حدث لميرنا ولورا منذ عامين، وهدي التي فرّت من بيت أبيها عندما حاول إعادتها بالقوة لسوريا، وغيرهن من أصحاب القصص المشابهة. ثم عاجلتها بالحجة القاضية: "كلهم آباء لبنات في سناء فلقوا فجأة مما سيحدث لبناتهن عندما يقتربن من سن الزواج، وكلهم رحلوا أو حاولوا الرحيل في هذا الوقت." لكن ساشا لم تقتنع بعد بالرغم من حجة مارتا القاضية.

كان من الممكن أن ينتهي الأمر هنا، لو أن مارتا للمجنونة لم تهرع لأمها الفعلة كي تخبرها من النسبة التي ستحل عليهن جميعًا، وما لم يكن الشك قد تسرب لنفس ساشا في نفس الوقت، حتى وإن لم تسلم بفكرة مارتا. كان من الممكن أيضًا للأمر أن ينتهي هنالو أن الأب، السيد رامي نفسه، لم تأخذ الحماسة فجأة، ويقترح على مارتا الفعلة أن يقضوا شهر الصيف الثلاثة في مصر، هم الذين لم يقضوا في مصر أكثر من أسبوعين متصلين. مارتا، التي تحب أن تصف نفسها بأنها مزيج ثلاثي من العملية الأمريكية،

والفتوة الكويتية، والشطارة اللبنانية، قررت أن تأخذ بزمام الأمور في يدها. وقد أدى قرارها ذلك لتسريع سلسلة الأحداث التي ستؤدي، بعد تسعة شهور من ذلك اليوم، إلى طلاقها من رامي وتجريده من كل ما يملك، ومن الحق في رؤية ابنتيه.

لم يكن يريد أن يتأخر على الدكتور درويش فهو مهووس بالدفعة. وليس معه تليفون عمول كي يتصل به ويعلمه أنه لن يأتي. تخلى عن المحمول مع الأضيء التي وجب عليه التخلي عنها نهائيًا خلال الشهور الثلاثة الماضية. سيصل نيويورك عند منتصف الليل، ثم ماذا؟ سيكون العشاء قد انتهى، ولن يرى سلمي، ومارك سيذهب لمقابله عند منزل الدكتور درويش. عليه أن يكون هناك في الثانية عشرة بالضبط وإلا فلن يستطيع العثور على مارك. بحث في التذكرة وفي الشاشات المعلقة عن علامة يقف بها تقدم القطار فلم يجد. وعندئذ خلس إلى أنه لا مفر من السؤال إن كان يريد أن يعرف ما إذا كان القطار سيصل في موعده. فكر أن يسأل الراكبة الشابة الجالسة إلى يساره، ثم تراجع. على الأرجح أنها لن تعرف. قرر أن يسأل المحصل، وظلّ يتحين عودته للعبئة لكنه لم يأت. بعد دقائق استجمع شجاعته، وقام متوجّهاً للمحصل القطار ليسأل أحد المحصلين الجالسين هناك. مرّ بين العربتين وأفكارًا سوداء تعبر رأسه عن وقوعه على القضبان كالعادة عندما يمر بين عربتي قطار، ثم دخل المحصل، وتوجّه للمحصل يسأله. بهاب هذه اللحظة، لا يحب أن يسأل الغرباء، وبالذات الأسئلة التي يستشّف منها جهله بالنظام. لام نفسه وهو يهمّ بالسؤال: لو كان يعرف نظام مواعيد القطارات لما وضع نفسه في هذا الموضع. المحصل

ينظر إليه بتحفظ شتطراً السؤال. يتلعم رامي قليلاً ثم يعطرح سؤاله.

أجابته المحصل دون اهتمام بأن القطار سيصل نيويورك متأخراً سبع دقائق. شكره رامي بحرارة لم يلتفت لها المحصل، وشق طريقه عائداً. ينظر في الطريق للركاب الجالسين في مقاعدهم، ويحاول قدر استطاعته أن يبدو أليفاً. شد باقة الجاكت مرة أخرى كيلا يبدو هندامه سهولاً، وابتسم لطفل نظر إليه بحدة ولم يجهبه الابتسام، ثم عاد لمقعده وجلس ينتظر.

عندما يعيد رامي التفكير فيما حدث بجده طبيعياً ومنطقياً، بل وضرورياً. كان لابد - في رأيه هو - لكل هذا أن يحدث؛ المسألة كانت مسألة وقت، ولو كان حصيفاً أعدّ العدة لذلك بدلاً من أن يفقد السيطرة على الأمور، ويجد نفسه بلا مأوى وبأربعة عشر دولاراً فقط من كل ما أذخره طيلة ثلاثين عاماً من العمل. ما يحز في نفسه هو البتان، وموقفهما الذي لم يجده له تبريراً. وجد له تفسيراً، لكنه ليس تبريراً. لم يكن عليهما أن يفعلوا ما فعلوا، ولا أن يقولوا مقالاه له، خصوصاً ساشا. مارتا طول عمرها مجنونة ويتوقع منها هذه الأمور، أما ساشا، العاقلة، فكيف تقدر سلوكه ومشاعره بهذه الطريقة، وكيف تنظن أنه يمكنه أن يلحق بها أو بأختها الأذى؟ هذا ما لم يفهمه ولا يتقبله إن فهمه.

يسأل نفسه كل يوم تقريباً كيف يمكن لبيته أن يلومانه على مشاعره، على رغبته في الرحيل لئلا يكون فيه أسعد حالاً، هو الذي لم يفعل في حياته سوى تشجيعهما على البحث عما يسعدهما. كيف يكون بيته عن سعادته تهديداً لهما أو لأحدهما. وإذا كان قد اختلف مع ماربيا فهذا

شأنه هو، لم تأخذ البتان جانباً في مثل هذا الخلاف؟ لأحدهما كثيراً، ولأم على نفسه أكثر عدم قدرته شرح موقفه لهما بما يجعلهما يفهمانه. لكنه لم يكن جيئاً في شرح مشاعره يوماً، وكلما همّ بالتحدث معها انعقد لسانه وطاروت الكلمات. يريد أن يقول أشياء كثيرة، لكنها تنتهي دوماً بأن تخرج من فمه في كلمات قليلة وغير محفزة على النقاش، فتود البتان بكلمات قليلة مثلها، وتموت المحادثة. شيء ما في طريقته يظني المحادثة، هذا ما قالته له ماربيا ألف مرة على الأقل، وهو يعلم أنها محقة في هذه النقطة.

الأمر الذي لا يجده رامي منطقياً أو ضرورياً، أو حتى طبيعياً هو فقدانه عمله في نفس الوقت. صحيح أن المثل يقول "إن المصائب لا تأتي فرادى"، لكن هناك أمثلة كثيرة، مثل "إن الضائقة تنفجر حين تستحكم حلقاتها"، فلماذا تحقق هذا المثل بالذات في حالته. بعد كل هذه السنوات من العمل في الشركة، وبعد الصعاب التي مرّ بها والمكاسب التي حققها للشركة، والعلاقات التي تمّاعها مع زملائه ورؤسائه بل وأعضاء مجلس الإدارة، بعد كل ذلك يتم فصله، هكذا دون مقدمات، مثل فيلم رخيص. رامي مترجم، وإن كان المسئى الوظيفي لمنصب أكثر فخامة؛ كاتب كبير. كبير هي ترجمة غير دقيقة للكلمة SENIOR التي فشل رامي في العثور على ترجمة دقيقة لها في هذا السياق، وهي في حد ذاتها مغارقة ظلت تذكره بعث الوظيفة التي يقوم بها. ما يفعله ككاتب كبير هو أساساً ترجمة مواد إعلانية وترويجية من الإنجليزية للعربية، مع تحويرها بحيث تلائم السوق العربي وذوق المستهلك. وهو يفعل هذا لعدد غير محدود من الشركات

التعاقد مع شركتهم، أحياناً لكل منتجاتها وأحياناً لمنتج واحد. ومن ثم فعليه كتابة مواد ترويجية لأشياء متنوعة قد تكون حقاًضات، تلفونات محمولة، مشروبات غازية، مشروعات عقارية، جلسات تخسيس وتديك، ساعات، شيكولاتة، سيارات، وعشرات السلع والخدمات الأخرى. يدخل مكبته في الصباح وهو لا يعلم ماذا سيهبط عليه في ذلك اليوم؛ قد يكون طرازاً جديداً من السيارات أو لبوشاً خافضاً للحرارة. لا يهم، وعليه أن يكون خلّاقاً ويجد شيئاً جاذباً في هذا المنتج. يأتي المنتج ومعه ملف يتضمن مواداً ترويجية بالإنجليزية، وعليه أن يقدح ذهنه في ترجمة الرسالة الإعلانية لشيء يمكن استخدامه في السوق الخليجي، أو المصري أو الليبي، على حسب.

برع في الأمر، بل ونجح في مرات أن يوسع السوق، ويأتي بعملاء جدد من أسواق الشرق الأوسط. فعل ذلك مثلاً مع مارك منذ عدة سنوات عندما أرسلتهما الشركة للأردن لمدة عام. لكن الشركة غصّت النظر عن كل هذا، وقررت إنهاء عقده. أتى لمكبته في الصباح فاستدعاه مديره وأخبره أن الأزمة الاقتصادية تضطر الشركة لتركه يرحل. لا يريد أن يرحل. سألته عن علاقة الترجمة بالأزمة الاقتصادية، فقال له مديره إن الكثير من الشركات التعاقد معهم تقلصت أعمالها في الشرق الأوسط نتيجة الأزمة، ومن ثم لم بعد الأمر يستحق الاحتفاظ به. قال له هذا، وانسم. قال رامي بعض الأشياء التي يقال في هذه الأحوال، لكن المشهد كان مهيناً بدرجة تتجاوز تحمله، فابتسم ليحافظ على ما بقي له من كبرياء، وأشاح بزعافه في الهواء بروح رياضية، وجمع خليجته من المكب ومضى. المضحك في الأمر أن

ماريا استطاعت، بمعونة اللحامي طبعاً، أن تضع يدها على مكافأة نهاية الخدمة ومرتب الشهور الثلاثة التعويضي. وها هو وأربعة عشر دولاراً في جيبه، وحقيبة كبيرة لا تحتوي إلا على بعض الملابس، جالس منذ ست وعشرين ساعة في قطار، ذاهب لشخص لم يره منذ سنوات في مدينة لا يكاد يعرف فيها أحداً.

انهارت حياته خلال عام بالضبط، ولكن الشهور الثلاثة الأخيرة كانت الأشد قسوة. وقع الطلاق بعد ستة شهور من قرار ماريا أخذ زمام المبادرة، وفقد كل ما يملك خلال الشهور الثلاثة التالية، بما في ذلك عمله ومستحقّات نهاية الخدمة، كما أرغمته المحكمة بالآ يقترب من بنته، أو من ماريا بمسافة خمسمائة متر، وذلك لمدة عام قابل للتجديد. وتبقى معه مسمائة دولار، عاش بهم خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، بما في ذلك ثمن تذكرته لنيويورك. أقام خلال تلك الفترة في غرفة أحد الأصدقاء الذي كان في عمل خارج ميامي، ودعاه للإقامة مكانه دون مقابل حتى يجد حلاً لمشاكله. تخلص من كل المصروفات غير الضرورية، كالترو، والتليفونات، وتناول الطعام خارج المنزل، والذهاب للسينما ومشابه ذلك. كما ابتعد عن السلع المكلفة كاللحوم ومعظم الفواكه وحبوب الإفطار، وبذلك أمكنه أن يعيش بخمسة دولارات في اليوم. لم يكن لديه أية فكرة عما سيفعله بعد نهاية الشهور الثلاثة هذه. وبالأمر، في اليوم الأخير قبل عودة الصديق، اتصل مارك صديقة بتليفون هذا الصديق يبحث عنه لغرض ما فوجد رامي.

لم يكن رامي ومارك قد التقيا أو تحدّثا منذ أكثر من عامين، لكن صداقة

قوة كانت قد توصلت بينهما خلال إقامتهما في الشرق الأوسط لحساب الشركة منذ عدة سنوات. وقتها لم يكن لهما يحتاج للمساعدة. مارك يقدم نفسه دائماً باعتباره ابن أقليتين، في إشارة إلى أمه الكاثوليكية وأبيه اليهودي. ورغم انعدام صلته بالدين اليهودي إلا أن اسم عائلته -نيومان- ومعرفته بعض العربة مكّنه من إقناع الشركة بإرساله لإسرائيل؛ لتسويق بعض منتجات الشركات المتعاقدة معها، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه رامي ذاهباً لعمان لمدة سنة، ليعمل على تسويق هذه المنتجات في البلدان العربية.

لم يكن عملهما متداخلاً، لكنهما تقاهما جيداً سوياً، وأدارا عملهما بنجاح منقطع النظير خلال هذا العام من مكتب صغير استأجراه في العاصمة الأردنية. كان مارك يكره الإقامة في إسرائيل، ويشكو لرامي صعوبة التعامل مع الإسرائيليين ويدخل في مشادات لا تنتهي معهم، ومن ثم قرر الإقامة في عمان التي كان يحب هدوئها وناسها. وقد جعل ذلك رامي أكثر انفتاحاً لإزائه، إلا أن الذي حبّبه فيه فعلاً هو قدرته غير العادية على اختراق حواجز الحرج والتحفظ التي يحمي بها رامي. مارك يتحدث بصراحة ودون خجل عن مشاكله مع عائلته ومع نفسه، ومع ديانته ومع الجنس الآخر، ومع عمله ومع الحياة في أمريكا، لدرجة أنست رامي أنه أمريكي. وبدأ رامي نفسه يفتح في التعامل معه حتى أصبحا يقضيان معظم الأيام سوياً في عمان، وفي أماكن أخرى بالأردن لم يكن رامي يدرى بوجودها أصلاً. عملاً سوياً وعاشاً سوياً، وسافراً كثيراً ونجح عملهما نجحاً باهراً، وصنعا لنفسيهما ثروة صغيرة وكثيراً من الذكريات،

ثم عادا، وبعدها بقليل تشاجر مارك مع مديرهما وترك العمل بالشركة، ثم انتقل للعمل مع شركات منافسة، وانقطعت أخباره وتفرقت بهما السبل. انشغل رامي في حياته وعمله وأهله والحيطين به، وغاب مارك عن دائرة اتصالاته حتى ذبلت الصلة بينهما. وهاهو فجأة على الهاتف بالصدفة. سأله مارك عما يفعله في غرفة الصديق المشترك، وعلى غير عادته تجاوز رامي حاجز الكبرياء، وأقضى لمارك بما ألم به خلال العام المنصرم. عرض عليه مارك فوراً الانتقال للإقامة معه في منزله ببروكلين. قال إنه يمكنه البقاء مثلما يحلو له، ويمكنه أن يترجم بعض الأشياء للشركة التي يعمل بها، فهناك دائماً بيان صحفي أو شيء ما يحتاج للترجمة، وربما يمكنه أن يترجم بعض الأشياء لموقع الشركة على الإنترنت أيضاً. فهم يعملون مع شركات خليجية، ومن وقت لآخر يحتاجون لترجمة شيء صغير بسرعة، وهي شغلات صغيرة لكنّها تُدرّ مالاً. ربما يستطيع أن يعمل منها خمسة أو ستة في الشهر، بما يدر عليه حوالي ألف دولار، وهو مبلغ لا بأس به في ظل الظروف الحالية. ثم من يدري، ربما يخلو مكان أو يظهر شيء. هناك دائماً أشياء تظهر إن كنت تعرف أحداً، ومعارف مارك كثيرون. والشقة كبيرة، ومن ثم لن يكون في طريق أحد.

هناك أيضاً السيارة النصف نقل الحمراء التي اشتراها مارك مؤخراً، ويمكنه أن يستخدمها في غيابه إن أراد. قال له مارك أن يأتي ولا يشغل باله بشيء، فما الحاجة للأصدقاء إن لم يكن في هذه الأوقات العصية. كان لطيفاً وودوداً، تماماً مثلما كان أيام الإقامة في عمان، ولم يكن لدى رامي أي حل آخر، فقبل عرضه. اتصل باستاذة القديم قبل سفره؛ ليرى ما إذا



كان موجوداً ورائعاً في رؤيته، فغزمه على العشاء بمناسبة زيارة حبيبته. لشعره ذلك ببعض الراحة، كأنه هو القديم وله أصدقاء ومعارف، وبيوت تدعوه. اشترى التذكرة بمحظ ما بقي معه من مال، وها هو ذا، في قطار ذاهب لنيويورك لكن بعد فوات موعد العشاء، وربما موعد مارك أيضاً. حقيقة، المصائب لا تأتي فرادى.

خطر بباله أن يسأل الدكتور درويش عن وظيفة، لكنه طرد الفكرة من رأسه بسرعة: لن يجرؤ، مهما كانت حالته سيئة. لا يستطيع إهانة نفسه لهذا الحد. علاقته بمارك تسمح بذلك، أما الدكتور درويش فأمر آخر. عليه الحفاظ على ما بقي له من احترام في أعين الناس الذين يعرفونه ويحترمونه. لا يستطيع أن يفقد هذا. كما أن الدكتور درويش لن يمنحه وظيفة بعد ما جرى بينهما في الماضي حتى لو كان لديه واحدة. لا، لا يستطيع طلب المساعدة من الدكتور. لكن سلمي يمكن أن تساعد.

سلمي تعرف ساشا منذ كانت تأتي لفضاء الصيف في نيويورك. صحيح أنهما ليستا على علاقة وثيقة، لكنهما كانا يستلطفان بعضهما كثيراً وهما صغيرتان. كانت ساشا تلج عليه أن يصطحبها حين تعلم أنه ذاهب لزيارة الدكتور درويش وأن سلمي موجودة. كانت الطفلتان تحبان قضاء الوقت سوياً، أحياناً كثيرة دون أن يفعل شيئاً. فسلمي وقتها لم تكن تتحدث الإنجليزية سوى بضع كلمات وجمل مفككة. وطبعاً ساشا لا تعرف العربية. لكنهما يلعبان مع بعضهما دون ملل، في غالبية الأوقات دون وجود لعبة حقيقية - مجرد دمية تكفي. وكان هو يحب صداقتهما لأنها توحي له بما يشبه إمكانية تحول ابنته لفتاة مصرية، على الأقل يوماً

ما إذا ما أصبح لديها صديقات في مصر. كما كانت ماريا زوجته تؤيد هذه العلاقة؛ لأنها تتيح لها التخلص من ساشا بضعة أيام. وحين يذهبون لمصر في الأجازات كانت الفتاتان تلتقيان - دون أمهاتهما اللتين يرتبان الزيارة بالتليفون. كثرت سلمي وتوقفت أمها عن اللجوء لنيويورك لسبب لا يعلمه رامي. لكن الفتاتان وجدتا بعضهما بالصدفة على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي الموجودة على الإنترنت، وأصبحتا تتبادلان الرسائل من وقت لآخر.

لم تذكر له ساشا شيئاً عن سلمي منذ بدأت الأحداث، وهو لا يعلم شيئاً عن موقفها مما حدث بينه وبين البنتين، أو حتى ما إذا كانت تعرف بما حدث. لكنه يريد أن يراها كي يحكي لها ويسألها عن رايها. ربما تساعد. ربما يمكنها أن تقنع ساشا بأنه لم يقصد إيذاها أو إيذاء أختها، بأنه لم يفكر في اختطافهما أبداً، بأن ذلك ظلم وجنون. ربما لو اقتنعت سلمي بإمكانها أن تقنع ساشا بحسن نواياها. ربما يمكنها تذكيرها بأنه أبيها. أو على الأقل، يمكنها أن تخبر ساشا نهاية عنه أنه يحبها رغم كل ما فعلت، هي وأختها المجنونة. وربما لو اقتنعت سلمي، ثم ساشا، ثم ماريا، لأمكنه أن يراها من جديد، بعد أن تستقر أحواله مع مارك في بروكلين، بعد أن يجد عملاً جديداً، ويقف مرة أخرى على قدميه. لكن ماذا سيفعل الآن؟ ربما يستطيع العثور على سلمي في الصباح، إن لم تكن عائدة لمصر فوراً - لا، لا بد أنها بالية على الأقل لليوم التالي. ولكن هل سيجده مارك الليلة، وكيف؟ وماذا لو لم يعثر على مارك هذه الليلة، أين يذهب؟

طرد هذا السؤال فوراً. ذكر نفسه بعدم جدوى الخوف. صحيح أن

له، توقف أكثر من مرة ليفكر فيما يحدث. هل كان ذلك حتمياً فعلاً؟ ألم يكن يستطيع التراجع في المنتصف؟ لو كانت ماريا قد عثرت له عن تفهيمها لمشاعره في بداية الأمر بدلاً من تهديدها له، لربما لم يكن الأمر قد تطور بالشكل الذي تطور إليه. لو لم تكن مارتا بالسفالة التي أبدتها بعد ذلك مباشرة - وبدعم من ماريا، لربما لأن موقفه ساعته. ولو لم يكشف أن ماريا كانت تسجل عاداتهم سرّاً لما ضمم على الإطلاق بهذا الشكل. لكن شيئاً أسلم لآخر، حتى وجد نفسه في هذا القطار.

أثناء الشهور الثلاث الأخيرة، بعد أن توقف عن محاولة استئناف الأحكام الصادرة لصالح زوجته، بعد أن استسلم لقراره الجديد - بل ووجد فيه بعض الراحة، قرّر أن يتخذ ما اتهمه به الجميع؛ أن يعود لمصر. ضحى بمقرّ الغذاء ليومين واشترى بطاقة اتصال دولي، واتصل بأخيه في القاهرة. استمرت المكالمات الأولى ست وأربعين دقيقة، شرح خلالها لأخيه ما حدث خلال الشهور التسعة الأخيرة وما آلت إليه أحواله، وأخبره عزيمته العودة لمصر، وتناقشا فيما يمكنه أن يفعله حين يعود. واتفقا في نهاية المحادثة على أن يتصل راسي به ثانية بعد ذلك بأسبوع، بحيث يكون قد استطاع بعض الأمور لشمكته من اتخاذ قراره.

قضى راسي هذا الأسبوع يرسم خطط العودة، وما يمكنه أن يفعله حين يعود. يجلس في حديقة عامة معظم النهار، ويسجل في دفتر صغير أسماء كل من كان يعرفهم في مصر، وآخر مرة تحدث مع أو قابل أياً منهم، وآخر ما لديه من معلومات عن هذا الشخص. في يوم آخر يذهب للمكبة العامة، ويبحث على الإنترنت في الأنشطة التجارية الموجودة بمصر التي

أحداث العام الماضي كانت كابوسية، لكنها في نفس الوقت حرّته من خضوعه لمخاوفه السرية. عندما يحدث لك الأسوأ، لا يتبقى عندك الكثير كي تخاف عليه. ما اكتشفه راسي خلال العام أنه قد عاش حياته كلّها وهو يخاف، ويكتم الخوف عن نفسه. أدرك، بعد أن اتهازل كل شيء من حوله، أنه كان يخاف بالضبط من حدوث ذلك. ظلّ يعمل ويكافح، وبينه علاقات حسنة بمن حوله، ويتفادى المشاكل، يُخلص للنظام ويتفادى أي أمر يمكن أن يضعه في موقف مخالف للقانون أو للعرف. إقراراته الضريبية ملأها بمتنهي الأمانة، دفع كل فواتيره في موعدها، لم يخالف قانون المرور أبداً، لم يرفع صوت الموسيقى يوماً في بيته، لم يُخرج القمامة في غير موعدها، لم ينظم حفلاً في غير أيام نهاية الأسبوع، لم يشعل ناراً في غابة خارج الأماكن المسموح فيها بذلك، لم يشو غسّاً على الشاطئ، لم يفعل أي شيء يمكن أن يُفسّر على أنه استهتار بالقواعد العامة، سواء كانت قانوناً أم مجرد عادات، وذلك على أمل أن يحتويه النظام ويحميه، فلا يجد نفسه يوماً في المواقف التي يجد فيها الكثير من المهاجرين أنفسهم: في الشارع، مطرودين من أعمالهم وحياتهم الاجتماعية تنهار من حولهم. لكن ذلك بالضبط ما حدث له. واستطاعت ماريا، التي كانت دوماً أكثر منه حيلة وأسرع، أن تجنّد النظام لصالحها وتلوي قواعده، بحيث وجد نفسه في الشارع وحياته تنهار. لم يُسغه أحد، لم يقف أحدٌ لنجدته، حتى يقال الحي لم يدعه يأخذ مشروباته حين رفضت ماكينة الدفع قبول بطاقة ائتمانه. انفضّ عنه الجميع تماماً مثلما كان يخشى.

في منتصف الطريق، في وسط تسلسل الأحداث الدرامية التي وقعت

لها علاقة بخبرته، ويتصفح مواقع شركات الإعلان والدعاية والعلاقات العامة، ثم يكتب ملاحظات حول أنواع العمل التي يمكن أن يقوم بها، وأسماء وبهاتات الأماكن التي يجب أن يستطلعها. في يوم ثالث يسجل ملاحظات حول المكان الذي يمكن أن يقيم فيه. في البداية طبعاً سيقم عند أخيه. ويمكن أيضاً أن يقيم بشقتهم الصغيرة في الإسكندرية حتى تستقر الأمور. يسجل ملاحظة بذلك، ثم تذكر البيت الذي كان والداه يقيمان به في كوبري القبة، ربما يكون من الأنسب أن يقيم بهذا البيت، فيسجل ملاحظة كي يسأل أخيه عنه، وهكذا. ما تبقى في بطاقة الاتصال يكتبي للحدث لمدة ست عشرة دقيقة؛ ففكر أن يشتري بطاقة أخرى، لكنه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يفعل. سيتصل ويتحدث مع أخيه بما لا يتجاوز هذه الدقائق، ويشتري البطاقة بعد ذلك للمكالمة التالية. وقد كان قراره صائباً، لأنه بهذا قد وفر لنفسه عشرة دولارات ستطعمه لمدة يومين كان سيخسرهم دون سبب. فالمكالمة الثانية لم تستغرق أكثر من ست دقائق، وما زال رامي يحتفظ ببطاقة الاتصال ودقائقها المتبقية في محفظته.

رامي رجل مُهذَّب وودود، ولا يحب المواجهات ويميل لالتماس العذر للآخرين، لكن ذلك لا يعني أنه عبيط. وقد فهم من الدقيقة الأولى للمحادثة ما يريد أخوه أن يقوله له، وبعد أن قضى دقيقة ونصف يستمع لتلخيصه سألهم مباشرة إن كان ينصحهم بعدم العودة لمصر، فأراح أخاه من عناء اللف والدوران، ووفر لنفسه دقائق إضافية في بطاقة الاتصال. رد أخيه بالإيجاب، ثم قضى دقيقتين أخريتين يشرح لماذا يعتقد أن عودته في هذه الظروف ستكون كارثة؛ تضعه في موقف لا يحتمل اجتماعياً، وتضر

بالأسرة كلها، وكيف أنه لن يستطيع أن يقف على قدميه في سوق لا يعرف عنه شيئاً ودون مهنة مطلوبة في مصر، وفي سنه هذا ومع استحالة تأقلمه مع الحياة في مصر في ظل تمؤده على غط الحياة الأمريكي. وعندما سألته عن بيت الوالدين رد أخوه بعصية أن التيش في مثل هذه التفاهات لن يحل المشكلة، وأنه مُرتب به إن أراد القدوم شيئاً لأي مدة يريد، أما فكرة الاستقرار في مصر فهي أمر آخر، ومتطلباته لا يقوى عليها. شكره رامي لصراحته وتواعده على مداومة الاتصال، وأخلق الخط قبل أن يستهلك دقيقة سابعة بلا جدوى.

يفكر رامي في كل ذلك، ويهز رأسه ساخراً من نفسه ومن حياته. يُعيد عدل ياقة الجاكت للمرة العاشرة، ويرقب بقلق من نافذة القطار. الراكبة الشابة غادرت في المحطة السابقة. عربة القطار خاوية تقريباً يبدو أن القطار يدخل محطة "تين-سيبورك". فجأة عاد السؤال: ماذا لو لم يعثر على مارك أمام بيت درويش؟ كان الاتفاق أن يأتي لاصطحابه بعد العشاء، وقال مارك إنه سيأتي قبل منتصف الليل بقليل. ماذا لو كان قد جاء وانتظره ورحل؟ أو سأل الدكتور درويش فقال له إن رامي لم يأت للعشاء فظن أنه غير الخطه ورحل؟ أين سيذهب رامي بدولاراته الأربعة عشر الأخيرة؟ ليس لديه شيء؛ لا مال ولا بطاقة ائتمان ولا أي شيء. ولا يعرف حتى أين يسكن مارك. يمكن أن يُحاول الاتصال به، لكن ماذا لو كان تليفونه مغلقاً أو خارج الخدمة. أين يذهب؟ وماذا لو كان مارك قد عرض عليه اللجوء من باب الإحراج أو حتى الخداع؟ لكن لماذا يخذله مارك؟ لماذا يجره إلى هنا ويعطيه أملاً كاذباً إن لم يكن يريد مساعدته؟

هل يريد الانتقام منه لشيء فعله في الماضي؟ يفكر بسرعة إن كان قد فعل شيئاً لمارك في الماضي ولا يجد. فلماذا يجزه إلى هذا المكان كي يتخلى عنه إذا؟ لماذا يتوَدَّد إليه حتى يدفعه للقفز في ذراعيه، ثم يتركه بهوى على الأرض؟ لكن يمكن أن يرحل مارك من الزحف، بعد أن ينتظر ولا يجده. عقل راسي يعمل بسرعة شديدة الآن، والقطار يتوقَّف داخل المحطة. أين يذهب لو لم يجد مارك أمام منزل درويش؟ أين يقضي الليلة؟ لا يمكنه أن يطلب من الدكتور درويش إيواءه، لا يجزُّ على ذلك، ويعلم أن الدكتور درويش لا يحب هذه الأشياء البتة. ماذا يفعل إذن لو لم يأت مارك؟ هل يجد فندقاً يقبل به دون بطاقة ائتمان؟ وكيف سيدفع؟ هل يمكن أن ينزل في فندق رخيص، ثم يبحث عن عمل ويدفع عندها؟ لكن من الذي سيوظفه؟ لقد حاول في ميامي ولم يلق سوى السخرية. لم يتمكن حتى من العثور على وظيفة سائقي بار؛ لا خبرة له، ولا أحد يريد رجلاً في منتصف العمر وفي لكثة وسحنة عربية. ربما يجد وظيفة في محل برجر، في المطبخ، لن يلاحظ أحد لكثته هناك، لا زبائن ولا أطفال تمتعض وجوههم حين لا يفهمون حديثه. ولكن كيف يجد وظيفة في محل برجر اليوم أو خلال أسبوع؟ لا، لن تسير الأمور بهذه الطريقة. يفكر إن كان يعرف أحداً يمكنه أن يساعده؛ هل يتعلَّق ما بقي له من كبرياء، ويطلق باب الدكتور درويش في منتصف الليل ويسأله أن يأويه؟ ثم يسأله في الصباح أن يجد له عملاً؟ لا يمكن، لن يجزُّ، وإن طرق الباب فلن يفتح له أحد في هذه الساعة. من سيساعده إذا؟ هل بيت في سنترال بارك؟ وإلى متى؟ معه أربعة عشر دولاراً يمكنه أن يعيش بها ثلاثة أيام لو قضى الليل في سنترال

بارك. لكن ماذا يفعل بعد ذلك؟ يفكر ويعلم أنه يتوه بأفكاره: لا يعرف أحداً أصلاً كي يسأله للمساعدة. لكن لم سيخفي مارك؟ ألم يكن هو من عرض المساعدة؟

الركاب يغادرون القطار، وراسي يجز قدميه وحقيقته شبه الفارغة. الركاب القلائل يخرجون من القطار بسرعة؛ إما يقابلهم أحد أو يتوجهون بثقة لمكان ما، أما راسي فيسير وهو يُقدِّم رجلاً ويؤخِّر الثانية. محشي وكأنه لا يريد أن محشي. يؤخِّر خروجه من الرصيف لصالة المحطة كأنه يؤخِّر مقابلة مصيره الذي لم يعد يعرف كيف يواجهه. يخاف الساعات القليلة القادمة، والقرار الذي يجب أن يتخذه ولا يعرف ما هو. يجز حقيقته ويسير بخطى متثاقلة ويكاد لا يقوى على رفع عينيه ناحية صالة المحطة في نهاية الرصيف. لكثة يسير، مُضطرباً، ويلقي نظرة خاطفة نحو الصالة المظلمة لعله يجد مارك واقفاً. لكن لماذا يظن أن مارك يمكن أن يأتي للمحطة وقد اتفقا أن يلتقيا عند بيت الدكتور درويش؟ يسأل نفسه مرة أخرى إن كان قد أعطى مارك العنوان الصحيح. يصل لصالة المحطة ويلقي نظرة سريعة على المكان؛ لا أحد في الصالة غير، طبعاً لا أحد. المطاعم مُغلقة والأضواء خافتة. يفكر أن عليه الإسراع ليلحق بالمترو الذاهب لبيت الدكتور درويش، لكثة لا يجد طريقه للمترو. كلما ذهب من بحر وجده مُغلِقاً. "ربما يمكنني أن أبيت هنا، على هذه المقاعد، وفي الصباح أذهب لمقابلة الدكتور درويش وسلمي، وأبحث عن مارك من هناك". فكر وقز، وواصل السير في ممرات محطة بن بحثاً عن مكانٍ ينتظر فيه الصباح.

## 3

## فرسان الدمار

سأنتظر ساعة أخرى، مازال هناك وقت قبل موعد عشاء سلمي. رشت من قدح الماكياتو الراضى أساسى على اللبنة. كل عشر دقائق يرمقني النادل بنظرة خالية من أي تعبير، كأنه يتأكد أنني مازلت هنا. أعلم أن هيتي لا تلائم المكان، لكن سيليا فضلت. اقترحت عليها مقهى المحطة المركزية، فهو أكبر، وزبائنه أقل تنمقاً من هذا المكان. كما كان من المفترض أن تصل سلمي من واشنطن في وقتٍ مقارب، وفكرت أن أنتظرها بالمحطة بعد مقابلة سيليا وأصطحبها للبيت؛ متحّب سلمي ذلك، فهي تحب أن ينتظرها أحد. لكن سيليا قالت إنها تفضل "ماكياتو" لقربه من مكتبها. لم أجادلها. سألقاها لمدة ساعة على الأكثر، ولا وقت للجدل

في مكان اللقاء، قالت: "دعنا نتقي في ماكياتو؛ هل تذكر هذا المقهى؟"، طبعاً أذكره، هي التي جاءت بي هنا أول مرة. كنا في وسط يوم عمل لا ينتهي في مبنى الأمم المتحدة القريب، وقالت لي بدلال إنني أرعقت نفسي في العمل وأستحق جاتزة، وإنها ستأخذني لمكان جديد. تبعتها وقادنتني لهناء. همست أن قلة مختارة تعلم بوجود هذا المقهى، وجعلتني أعدها ألا أذل أحداً عليه دون استئذنها. لكنه تحول بعد ذلك بأسابيع قليلة للمبنى موظفي الأمم المتحدة كلها؛ لا شيء يبقى سوا في هذا المكان.

موعداً في الخامسة. وصل قطاري بعد الظهر ولم يكن لدي ما أفعله، فذهبت لشراء بيجيل من شارع 21 وعدت. طلب أبي أن أحضر له بعض البيجيل. سأله إن كان يريد شيئاً فقال بيجيل. لم يقل بيجيل من مونتريال، ووجدت من العيب أن أشتريه من هناك؛ لن يكون طازجاً بعد اثنتي عشرة ساعة في القطار، ولن يأكله. ومن ثم قررت شراءه من نيويورك. أتذكر هذا المحل؛ كان يأخذنا إليه ونحن صغار. تسكمت في الجادة الأولى حتى شارع 21 حيث اشترت المطلوب، وعُدت سراً على الأقدام. لا بد وأن هباتي مشعطة تماماً الآن. رواد البار يشقون أنفاً، بل شيئاً أكثر من الأنفاة. مزيجاً من النفوذ والاستغناء والاشتغال، كأنهم لا يعوزهم شيء. وقتهم محدود ويريدون إنفاقه فيما أتوا له - بعض اللهو أو الإسرسو أو دردشة؛ كي يفكوا أعباء العمل ويضعوا مسؤولياته جانباً - قبل أن يركضوا للموعد آخر، أو عمل آخر، أو سهرة أخرى غالباً ما تجمع اللهو والعمل سوياً. يرتدون بدلات غامقة، بين الرمادي الغامق والأسود، وربطات عنقهم

محلولة ثمناً أو مُنخاة عن رقابهم قليلاً. قمصانهم فائقة، ولا أحد فيهم ينظر للملابس الآخر أو يعابنها: فهم يعلمون أنهم كلهم يرتدون ملابس باعظة الثمن. ربما يتوقف واحد ليدي إعجاباً بربطة عنق أو بصوف بدلة محدثة لكن ذلك هو الاستثناء. القاعدة أن نتجاهل هذه الأشياء وترفع عنها - بعد أن تكون انتقشتها حتى صارت جزءاً منك. لا يأتي ذلك إلا بعد مران، شأن اللياقة البدنية، وتذبل سريعاً إن خرجت من الحلبة. أعرف بعض الوجوه هنا، فقد عملنا في نفس المنظمة. هناك وجوه نظل نتذكرها بلا سبب؛ ربما تقابلنا في أحد اجتماعات التنسيق التي لا تنتهي. نرى بعضنا، ونعرف ربما بعض أسمائنا، لكن لا شيء يدعونا لتوثيق المعرفة أكثر. أعرف هيتنهم تلك جيداً، فقد كانت هيتني لسنوات طوال. أما الآن فأجلس وحدي، أرندي ملابس تكاد تكون رثة، أنتظر سيليا التي تأخرت في اللبني، وأحمل كيساً ورقياً به بيجيل لأبي.

اتصلت بأبي لأسأل عن موعد وصول سلمى، فقال لي بضيق شديد - أعرف هذه النبرة - إن "سلمى هانم" فوتت قطارها، ولن تأتي قبل منتصف الليل. منتصف الليل؟ سألت، وما فائدة عيد الميلاد إذن؟ رد عليّ بنفاذ صبر أن هذا ليس عيد ميلاد بل عشاء، ثم تسامى بسخرية عسا إذا كنت أنتظر وجود بالونات وطراطر، وطلب مني ألا أناخر عن الساعة. في الخامسة والرابع دقي جرس تليفوني، سيليا:

- اتصلت بك منذ نصف ساعة، لكن تليفونك كان خارج الخدمة. أين أنت الآن؟

- ما كياتو مطلقا قلت.

- آسف، لكنني سأتأخر قليلاً. هناك "حادث" في دارفور، وسأضطر للبقاء في المبنى لساعة أخرى حتى أُنهي من إعداد البيان.

- حادث من أي نوع؟

- المعتاد.

- أين؟

- في الفاشر.

- كبير؟

- لا، المعتاد، التفاصيل لم تنضح بعد، لكن هناك حوالي خمسة قتلى.

- حوالي؟

- نعم، التقارير متضاربة.

- ماذا يقول موظفونا في الميدان؟

- كل مكتب يذكر أرقامًا مختلفة. أنت تعرف، هذا جزء من المشكلة.

ومكتب الأمين العام يريد التأكد من الرقم، قبل أن يقرروا لهجة البيان.

- هل لديك فكرة كم من الوقت سيستغرق هذا؟

- ربما ساعة أو ساعة وربع. لن يستغرق الأمر أكثر من ذلك، هذا

حادث اعتيادي. سأؤكد فقط من الرقم، ثم أخبط اللهجة، وأمر المسودة

من المدير ومن البعثة في الخرطوم، وأرسلها للدور الثامن والعشرين.

- سأنتظر، لكن تذكرني أن لدي عشاء بيت أبي في الساعة.

- ألا تستطيع التأخر ساعة أو ساعتين؟

- هل محرجي؟ هل نسيتي أبي؟

- سأفعل ما في وسعي، وسأحيطك علماً بالتطورات.

- سأنتظر.

"سأنتظر"، قلت لرئيس بعثتنا، "سأقضي الليلة هنا وأعود غدًا".

في البداية رغب بمبادرتي، فلم يكفّ النهار الذي قضيناه في معالجة

المشكلة، وبجوب عليه أن يعود بالطائرة للخرطوم قبل الغروب. قواعد

تشغيل الهليكوبتر تقتضي ذلك، ولا حيلة لنا. سأقضي الليلة هنا، كي

أتحديث أكثر لهؤلاء النازحين الثلاثة الذين قبلوا بأن يشهدوا على ما يحدث

في المعسكر. سأوثق شهاداتهم، ثم أتحديث للمشرفين المحليين على

المعسكر، للتأكد من سلامتهم وعدم تعرض السلطات لهم بعد رحيلي،

والحق بطائرة الغد. لكن رئيسي عاد واعترض:

- ليس لديك تصريح من أمن البعثة بالمبيت في المعسكر، وقواعد

النظّمة تمنع مبيت الموظفين دون هذا التصريح، بسبب التأمين.

- ماذا؟ التأمين؟

- نعم ياسيدي، آخر اختراعات إدارة الأمن وشئون الأفراد!

تناقشنا، واتفقنا في نهاية الأمر على تجاهل هذه القواعد البيروقراطية.

يجب أن يظلّ أحدنا، وينهي المهمة التي أتينا من أجلها. لقد مرت شهور

ونحن نتحدث عمّا يدور في المعسكر من انتهاكات، وما يتعرض له

النازحون من اعتداءات تحت سمع وبصر السلطات، والسلطات تنفي

وتقول ألا دليل. شهادات عمال الإغاثة والأطباء الذين وثّقوا حالات

الاغتصاب، والأعضاء المحطّمة، والأطراف المبتورة - كلّ هذا لم يجد

نفعًا لأنّ أحدًا من النازحين الأحياء لم يجسر على الإدلاء بشهادته. نهبط

بطائراتها على الأرض الطينية الحمراء، وعشرات الأطفال يحيطون بالطائرة غير عابئين بسحابات التراب التي تلقفهم. نخرج من الطائرة فيحونا نحية الفاعون، ثم نندس في سيارتنا الكبيرة ذات الدفع الرباعي التي تطلق محدثه زوابع أخرى من الأتربة. نشق الملققات والطرق الترابية مسرعين نحو المعسكر. نمر بجوار صفوف العشب الصفيع التي يقطعها النازحون منذ سنوات على أمل العودة لقراهم، ونظر الجميع مُعلق بموكبنا. نصل لقلب المعسكر، وننتهي بسرعة من شكليات استقبال السلطات لنا.

نُمثلوا السلطات بحاولون بشئى الطرق إضاعة الوقت: يَصْرُون على تناول الغداء معهم. نرفض بأدب فيتظاهرون بأن ذلك يُشكل إهانة في الثقافة المحلية، وهنا يتم إدخالنا في الصورة. تصبح هويّتي العربية محورية فجأة: أُحَدِّثهم بلكتي المصرية فيدركون أن حيلتهم الثقافية مكشوفة، فينتقلون لغيرها. وبعد نصف ساعة من المزاوغة ينتهي بنا الأمر بما أتينا له: الحديث للنازحين. نجلس تحت شجرة وهم يلتفون حولنا. يتحدثون جميعاً في وقت واحد، يصرخون معظم الوقت مُكرِّرين مطالبهم التي نعرفها، ومُتَرَمِّمين من سوء الحال في المعسكر، ومُطالِبين بتوفير الأمن لهم. نسألهم عن الاعتداءات، فيقولون إنهم يتعرَّضون لها يومياً. نسألهم عن المعتدين فيقولون الجنجويد. نسألهم عن هوية الجنجويد، فيقولون إنهم العرب، وإنهم في كل مكان، ومنهم من يعمل في المعسكر، بل منهم نازحين مشتركين، بل منهم عمال إغاثة. أترجم هذا الكلام لرئيسي، وينقد صبرنا شيئاً فشيئاً. لا نريد المزيد من هذا الهراء؛ نريد كلاماً محدداً، منطقياً ومتماسكاً وقابلاً للتصديق، وبصلح لإثبات التهم والإدانة. نريد

كلاماً مثلنا. لكن النازحين ليسوا مثلنا. إلّا اليوم. هذه المرة انبرى شبان في العشرينات، وفئة في الخامسة عشر، وقالوا لنا كلاماً محدداً وسؤوا للمعتدين، وقالوا إنهم يستطيعون التعرف عليهم ومستعدون للشهادة. استدعى رئيسي المشرف العام على المعسكر، وحمله مسئولية سلامة هؤلاء الثلاثة فطمأنه الرجل، وقررت أن أبقي لأنهي المهمة: لن أترك هذه الفرصة عمر.

اتصلت سيليا:

— أين أنت يا يوسف؟

— في الفاشر.

— ماذا؟ كيف؟ ألم ترحلوا؟

— سأبقى الليلة، الرئيس عاد مع الفريق. لديّ عمل أنهيته هنا، وسأعود

لغداً. أنت في المكعب؟

— نعم.

— لا تسهر كثيراً.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أقضي فيها الليل بدافنور، فعملني إما في العاصمة أو خارج البلاد في أديس أبابا أو نيروبي، أو ندجامينا أو أبوجا، أو نيويورك. لا آتي هنا إلا نادراً، رغم أن هنا هو موضوع عملي. تغفّر شكل المعسكر كثيراً بعد رحيل رئيسي؛ هذات الضئجة، وعاد النازحون لعششهم، تفرّق عمال الإغاثة، وغادر معظمهم المعسكر عائدين لمكاتبهم، وتوتّى مندوبوا السلطات القيادة مرة أخرى. تجوّلت في المعسكر بعض الوقت بصحبة أريكو، أحد موظفي الإغاثة، مصحوبين



دائماً بمندوبي السلطات "خمسيناً"، ثم جلست مع الشهود الثلاثة وحدنا. تحدث الشابان بطلاقة عن الاعتداءات التي تحدث. الاثنان من قبيلتين مختلفتين، لكنهما درساً القانون في جامعة الخرطوم لمدة عامين، قبل أن يقعدهما القتال عن الدراسة. حكيا لي عن قريتهما، حكايين مختلفتين ولكنهما متشابهتان. جاء الفرسان وهاجموا القرية: حرقوا العش الذي يسكن بها أهل القرية أولاً، ثم قتلوا المواشي وألقوا بحث بعضها في بحر الماء الوحيد ليسموا هاجموا الرجال فقتلوا من قتلوا، وقطعوا سيقان من لم يقتلوا، وفرز الباقون. وعندما بدأت القرية في الفراغ من سكانها هاجموا النساء، واغتصبوا عدداً منهم نكابة في أهل القرية، ثم فرقوا كعاصفة التراب مظلمة أتوا. قالوا إن بقية سكان القرية رحلوا في نفس الليلة، سراً على الأقدام، بعد أن جمع كل منهم ما استطاع من متاع، حتى وصلوا للمعسكر. لكن أهل القرى الأخرى أخبروهم أن المعتدين عاودوا الكرة في القرى الأخرى، فشكلوا أكثر من بقي فيها. لم يكن في أي من هذا بجديد، سمعت هذه القصص عشرات المرات. سألت عن الوضع في المعسكر، وكيف تحدث اعتداءات هنا رغم وجود السلطات والأمن المحلي، وهنا اتبرت الفتاة بمسألة الشابين.

تحدثت بشات وبوضوح وهي تنظر في عيني. قالت إنها والبنات تذهبن لجمع الحطب كل يوم، وفي كل يوم تعرضن لمضايقات من الحراس وللشرفين على المعسكر، لكن المضايقات أمر عادي. المشكلة في الهجمات التي يشنها الجنجويد من وقت لآخر على أطراف المعسكر. سألتها عن التفاصيل، فقالت إن هناك في المعسكر من يبلغ الجنجويد بكل المعلومات

التي يريدونها، وسنت لي أشخاصاً بعينهم ونسبهم القبلي والوظيفي. لم يكن من بينهم المشرف العام الذي وصفته بأنه مسكين لا يفهم ما يجري حوله، ولكن هناك آخرين يعملون تحت رعايته، ولديهم صلات مباشرة بالأمم، "وهم الذين يهددوننا"، قالت. سألتها لماذا يهددونهم، فأجابت بأن الحكومة تحاول إجبارهم على الرحيل من المعسكر إلى قرى أخرى أقاموها لهم تبعد عن قراهم الأصلية وعن أراضيهم بمئات الكيلومترات، لأنهم يرغبون الأرض الأصلية لحساب القبائل التي تهاجمهم، ومن يفرض الترحيل لهذه القرى يتعرض للاعتداء. سألتها إن كانوا قد طلبوا الرحيل من أهلها فأوامت. سألتها عن ردهم، فقالت إنهم رفضوا. سألتها إن كانوا قد تعرضوا للتهديد فأجابت بالإيجاب. استفسرت إن كان شيئاً قد أعقب هذا التهديد، فقالت بنبرتها الشابة إنها تعرضت للاغتصاب هي وأميها واختها.

رفع الساقى قذح الماكياتو، وسألني إن كنت أرغب في شيء آخر. شكرته، وطلبت قذحاً آخر وزجاجة مياه فولارة. أوما وجمع ما كان على اللائدة ومضى. الموائد صغيرة ومتفاربة ولونها أبيض. المقاعد بلا مساند ظهر - ربما كيلا يبقى الزبائن أكثر من اللازم. معظم المتأخذ عالية بلا مقاعد: يقف حولها الرواد، ويشرحون قهقهتهم بسرعة، ويتبادلون خيراً أو معلومة أو وثيقة سرية، ثم يرحلون. لا أحد يظل جالساً مثلي كل هذا الوقت. منك لله ياسيلبا. لا أحد من رواد المقهى ينظر إلي. يتحركون من حولي: مسحون مقاعد، ليوسعوا عدد الجالسين حول منضدة أو يتنحى اثنان جانباً ليتحدثا، كلهم في ستراتهم الغامقة المشقة ثقة، دون أن تستقر

عين أحد علي ولو بالصدفة: كأني ومنصدي قطعة من فراغ. هل أمسك بنفسي الآن وهي تقتقد هذا الشعور بالقوة وبالنفوذ؟ هل أعتقد الآن ما قلت إنني لا يمكن أن أعتقد أبدًا؟ هل أريد أن أكون في بدلة أحد هؤلاء، ممثلًا بالضرر من عملي وفي نفس الوقت معتقدًا أنني شخص هام؟ معتقدًا أن عملي هام للغاية، وإن كنت أنكر ذلك من باب التواضع؟ التواضع ليس صفة متواضعة، بل هو صورة متقدمة من الغرور. التواضع يقتضي أن تكون في مكانة مرتفعة، وتهبط بنفسك عمدًا لمستوى من هم أدنى، كرم منك، لا أن تعتبر نفسك في هذا المستوى. كي تكون متواضعًا يجب أن تعتبر نفسك فوق مستوى الآخرين ابتداءً. كنت متواضعًا حينذاك، أما الآن فلا أستطيع التواضع، وأنا بلا وظيفة ثابتة أعيش على مذكراتي القديمة في منزلي المتهالك بموتريال، وأتظاهر بأنني أقوم بأبحاث من أجل كتاب لا وجود له. ليس هناك ما يدعوني للتواضع الآن. لكنني فعلت ذلك باختياري: ذات يوم أيقنت أن شعور القوة هذا زائف، وأن ما أعتقدته نفوذًا ما هو إلا شبح للنفوذ. هل أمسك بنفسي الآن، وعيني لا ترتفع من فوق هؤلاء الذين يشبهون ماكنته يومًا، وأنا أعتقد هذا الذي كنته وتركته طوعًا؟

دقي جرس التليفون: سيليا مرة أخرى:

— نعم!

— أرجوك لا تقتلني، مازلت أنتظر.

— ألا تعرفون حتى الآن كم قليلًا هناك؟

— بلى، لكن لسنا نعرف إن كان من بين القتلى مسلّحين.

— أي مسلّحين؟ ألم تقولي إنه اعتداء في معسكر النازحين؟ هل النازحين مسلّحين هذه الأيام؟

— لا داعي للسخرية يا يوسف؛ هناك أشياء كثيرة حدثت منذ رحيلك. من بينها ظهور مسلّحين فعلاً داخل معسكرات النازحين من أعضاء حركات التمرد. هناك تقارير حكومية تقول إن مافوق ليس اعتداءً، وإنما اشتباك بين عناصر مسلّحة من الجانبين. وهذا قد يغير لهجة البيان بالكامل.

— واضح أن شيئًا لم يتغير على الإطلاق. طيب هل تعرفين كم من الوقت أمامك؟

— هانت، ربما نصف ساعة أخرى، متى ستسافر؟

— غدًا في الصباح.

— لا بد أن أراك قبل أن تختفي مرة أخرى. ألا يمكنك تأجيل موعد سفرك غدًا؟

— لدي أشياء في موتريال. ثم ما الفارق بين اليوم وغدًا؟

— سيكون لدينا وقت كافٍ للحديث بدلاً من هذه الهرولة.

— يمكن أن يقع حادث آخر غدًا، في الكونغو أو الصومال.

— طيب لماذا لا تأتي للمكتب؟ أنا جالسة لا أفعل شيئًا فقط أنتظر، ويمكننا الحديث.

— سيليا! أنت تعرفين جيدًا أنني لن أضع قدمي في هذا المبنى.

— طيب طيب، سأبذل قصارى جهدي، لكن لا ترحل دون أن

تقول.

- ساحاول.

أصدر التليفون صغيراً قصيراً يني بقرب نفاذ شحنته الكهربائية. عظيم، هذا ما كان يتقصني. لا أدري ما الصعب في أن أحسن تليفوني كل ليلة؛ لماذا أنسى هذا؟ وبالطبع لا أعرف أين وضعت الشاحن، ربما يكون في أنني مكان في حقائبي، وربما أكون قد تركته في المنزل أو حيث كنت. اللعنة على الغباء. نحت التليفون جانباً: ساحاول أن أفلل من استخدامي له لأقصى درجة، كي أمكّن من الاتصال بسهولة، ومتابعة تطور الموقف.

أنهيت حديثي مع الفتاة والشاين بعد ساعتين تقريباً. قصت الفتاة علي بأشع تفاصيل ما حدث لها ولأختها وأماها، وخلال حديثها لم تتغير نبرة صوتها ولا مرة واحدة، لم يرق لو يضعف، لم يند عنها شبه تهيدة، أو بواذر اختناق صوت كما يحدث للبشر. كانت كأنها آلة تروي قصة مسجلة. أعرف أنها صادقة، لا أحد يستطيع أن يخترع هذه الحالة النفسية. هذه حالة يُخلق فيها الإنسان مشاعره تماماً؛ كي يتمكن من التماسك وعدم الانهيار، وهي تصيب ضحايا هذا النوع من العنف، والتاجين من المآسي الكبرى. حتي عمال الإغاثة الإنسانية يُصابون بدرجات منها دون أن يدرون. ويظلون هكذا، يتفكرون من مأساة لأخرى وهم يظنون أن مشاعرهم قد تبلدت، ثم ينهارون مرة واحدة. نقول إنهم "احترقوا"، كالمصايح. هذه الفتاة "محروقة" ولا ريب، صادقة ولكنها خفيفة في قوتها. أضافت أنها تعرف المتحصنين الثلاثة، وكلهم من حراس الأمن في المعسكر، بل إنها رائتهم بعد ذلك أكثر من مرة، وأشاروا لها بإشارات نائية مذكرين إياها بما فعلوا بها. سألتها عن أيتها وإخوتها، فقالت إن الإخوة غير موجودين،

ربما قتلوا أو لجؤوا للمعسكر آخر، وأن الأب علم بما حدث ولكنه ضعيف لا يستطيع عمل شيء، ولا يستطيع الخروج من المعسكر ومواجهة الحراس، ومن ثم استمر في إرسالها وأختها لجمع الحطب برغم ما حدث. قالت إنها مستعدة للفحص الطبي، وللشهادة أمام القاضي، والإدلاء بتفاصيل عن مقتنياتها تدنيهم. هذا الضغط ما أبحث عنه. أثبتت على شجاعتهما ووعدهما بالحماية، واتفقا على أن تتوجه في الصباح مع أنريكو إلى اللديرية؛ لتحرير البلاغ والإدلاء بالأقوال، ثم أطير عائداً للخرطوم. اتصلت بسهولة أبلغها وطلبت منها أن تبلغ رئيس البعثة بما انتهت إليه، وذعبت للنوم في غرفة صغيرة ملحقة بأحد مكاتبنا داخل المعسكر. عرض علي المشرف أن أذهب للنوم في استراحة الحكومة فرفضت، كما رفضت عرض أنريكو أن أذهب للنوم في استراحة الأمم المتحدة، فقرر أن يبيت معي تضامناً.

لا بد وأن الساعة كانت تشارف على التاسعة حين سمعت ذلك الصوت الذي لم أنسه بعدها أبداً. صوت يأتي من باطن الأرض، كأنه لولجاجة منتظم للترية، كما لو كانت هناك بطول ضخمة في باطن الأرض تدق بصوت مكثوم، فيتحول للذبذبات تهزها من تحت أقدامنا. نظرت لأنريكو فالتفت نظرتانا. هل هذا هو ما أظن أنه؟ أو ما يجيأ. هزعت نحو الباب - لا أدري لم - فأمسكتني من ذراعي، وجذبني للقراش.

- لا تفعل شيئاً جنوباً. اجلس هنا.

- هل هؤلاء هم الجنجويد؟

- لا بد وأنهم كذلك.

- كيف حدث هذا؟ أبلغت بهم الواقعة أن يأتوا ونحن هنا؟  
- الواقعة لم تقصهم يوماً. ابق ساكناً ولا تحدث صوتاً.  
- وماذا تفعل؟  
- لا شيء. نَظِّلُ ساكنين هنا، وأغلب الظن أنهم لن يهاجموا مكتبنا.  
- أغلب الظن؟ وماذا سيحدث بالخارج؟  
- سيهاجمون البعض. ادعُ ربك ألا تكون النتيجة مأساوية أكثر من  
للحاد.  
- ادعوا؟ ألا تفعل شيئاً آخر؟ ألا تتصل بأحد؟  
- ستصل طبعاً، لكن هذا ليس ضرورياً. الأنباء تنتقل وحدها هنا.  
البلد كلها تعرف الآن بما يدور.  
- والأمن؟  
- سيأتون. لكن بعد أن يكون الجنجويد قد رحلوا.  
- وماذا لو خرجنا الآن؟ بالتأكيد لن يتعرضوا لموظفي الأمم المتحدة.  
يمكننا الدفاع عن النازحين.  
- هل فقدت صوابك؟ ماذا: سنخرج أنا وأنت فندافع عن أربعين ألف  
من المدنيين؟ اسكت واجلس هنا حتى تمروا. هذه الأمور تحدث بانتظام  
ولها قواعد، لو خرجت ستعرض حياتك للخطر.  
بحثت عن تليفوني، وحمدت الله أنه مازال مشحوناً. اتصلت برئيس  
البعثة فلم يرد. اتصلت بسيليا وأخبرتها بما يحدث، وطلبت منها أن  
تبلغ الرئيس فوراً. طلبت مني أن اعتني بنفسى ولا أفعل شيئاً جنونياً.  
أشار لي أنريكو أن أسفني جرس التليفون حتى لا يرن. فعلت ذلك ثم

جلست أنتظر. ولم يحدث شيء. جلست هناك في هذه الغرفة الضيقة،  
أنا وبذلتي الغامقة، وتليفوني المتصل بالقمر الصناعي، وأنريكو المتمرس،  
نستمع لوقع أقدام الجياد وهي تنهش في النازحين. لم يكن هناك أصوات  
صراخ، لا شيء درامي، مجرد هذا الارتجاج في باطن الأرض وأصوات  
قرقعة ومهممات، ولا شيء آخر. أصابت شاشة التليفون وكان رئيسي  
هو المتصل، مطمئن على سلامتي ومن معي، ويبلغني أنه أبلغ أعلى مستوى  
ممكّن من السلطات بما يحدث ليتخذوا إجراءات لوقفه، ووعدوه بالتدخل  
الفوري. شكرته وأغلقت الخط، وعادت الجلوس صامتاً. وظللنا هكذا  
لمدة ساعة أخرى، نحن في الغرفة المغلقة، وفرسان الدمار في الخارج.  
نظر أنريكو لتليفونه، ثم قال إن الجنجويد قد رحلوا. جاءته رسالة تبيّنه  
بذلك من خارج المعسكر: شوهدهوا يغادرون البلدة. خرجنا بسرعة من  
الغرفة: المكان ساكن بالخارج تماماً، لا صوت ولا حركة. دقائق وبدأت  
الحركة تدب في المكان. خرج الناس لينظروا ما خلفه الهجوم من دمار.  
دقائق أخرى وبدأ الصوت والولولة، ثم علمت أن هناك خمسة قتلى:  
فتاتين وشابين وأحد الحراس. الناس تتحرك الآن في مجموعات كبيرة،  
يغلب عليهم الغضب، وبعضهم يهتّم ما يجده في طريقه. دقائق ووصل  
رجال الأمن فزاد ذلك من حياء الجموع. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى  
تحول الأمر لمواجهة بين النازحين ورجال الأمن الذين طوقوا المعسكر،  
وقبل لي إن رجلاً قُتل في اشتباك مع الأمن. أنريكو اختفى، ثم شاهدته بعد  
فترة يتوسط بين الجانبين عن بعد، أما أنا فكنت أسير كالثابة لا أعرف عما  
أبحث. لا أصدق أن هذا يحدث من حولي، وأني بلا فائدة لهذه الدرجة.

أما الآخرون فكانوا يعلمون ذلك، ولم يحاول أي منهم اللجوء لي أو حتى الحديث معي. سرت مع المجموع، لا أعرف إلى أين. كان رجال الأمن قد انسحبوا من المعسكر، واكتفوا بتطويق المكان في حين تولّى عمّال الإغاثة التفاوض بين السلطات وبين النازحين.

سرت مع جمع غفير سار ثم توقفت، وسمعت حوكلات ودعاء وولولة جديدة، وهناك رأيت الجشتين. كاتهما بقايا سيارة محترقة. لم ألتفت أول الأمر لهما عندما أشار لي صبي بأن هاتين هما الفتاتين. فقط عندما دققت النظر أدركت أن هذين الشيتين بقايا بشرية. قطعتان من السواد اللثخم ممتزج بهما بقايا قماش محترق. علت أصوات الجمع، ثم تقدم رجال ومعههم ملايات جمعوا فيها هذا السواد، ولقّوهما كأنهما جثتان حقيقتان. تحرك الجمع بالجتين وأنا معهم، وظلنا سائرين حتى شعرت بيد قوية تجذبني، وتسحبني من وسط السائرين. التفت ورأيت أنريكو تمسك بي بقبضة من حديد. لم أقاوم، وسرت في يده حتى أودعني في المكب من جديد، وأغلق الباب وخرج. جلست بلا حراك حتى عاد، لا أدري كم من الوقت مرّ، قال لي أن ساعة قد مرت، وهز رأسه في مزيج من اليأس ونفاذ الصبر. علمت منه أن الجشتين المحترقتين للفتاة التي كنت أحدها اليوم وأختها، المخصصة رقم 2. أشعل الجنجويد فيهما النار، ووقفنا يشاهداتهما يحترقان حتى تفحمتا، ثم غادروا وهم يهكّون. قال لي إن أحداً التقط لهما صورة بتليفونه. الشاهان اللذان تمخّذا إينا اليوم أيضاً من بين الفتلى، وحارس يبدو أن النخوة دفعته للتدخل، ومحاولة إنقاذ الفتاتين، فأرداه أحد الفرسان المغيرين قتيلاً.

التليفون بهتّر بجاني وأنا لا أتحرك. رد أنريكو وسمعته يحدث سيليا ثم رئيس البعثة. كرّر عليهم ما ذكره لي، وأضاف أنه رأى صورة الفتاة وهي مشتتة، وأن أحداً من المعتدين لا يبدو وجهه في الصورة. صمت ثم عاد يحدث سيليا، قال لها ألا تعلق أملاً على موضوع الصورة هذا لأنهم ملتزمون. صمت ثم أردف أن هذه فكرة غبية، عمّا مثل فكرة الضغط على النازحين كي يشهدوا ضد أناس محدّدين. صمت ثم أجاب: إن هذه ليست أول مرة طبعاً، وأضاف أنني بخير، ثم طلب منها معاودة الاتصال بعد ساعة لأني مشغول.

اتصلت سيليا مرة أخرى:

- أوشكت على الانتهاء. تحققت من كلّ التفاصيل؛ اتضح أنهم أربعة قتلى وغير مسلّحين. كتبت صيغتين للبيان، واحدة "بدن" والثانية "هأسف"، وأرسلت الصيغتين لمدير الإدارة ومنتظرة رده. غالباً سأرسل الصيغتين للمكتب "الأمين العام" فور أن أسمع لي. هو لا يتدخل في الصياغة لكن يصوّ على أن يرى كل شيء. أرسله للطابق 28. بعد ذلك سأنتظر رد المكتب، ثم أضع البيان في صيغته النهائية، وأرسله للمكتب للتحدّث الرسمي. نصف ساعة أخرى على الأكثر. ألت سعيداً أنك تخلّصت من كل هذا الهراء؟

- سعيد جداً، ولا تؤثرني نفسك، إن لم تتمكّني من اللحاق بي يمكننا أن نتلقى في المرة القادمة.

- المرة القادمة؟ هل تمزح؟ أنت لم تأت لنيويورك منذ عيد الميلاد الماضي. من أين أنت آت على كلّ حال؟

- من موترهال.

- موترهال؟ بالقطار؟

- نعم، وسأعود بالقطار أيضًا.

- أمازلت لا تركب الطائرات؟ لا بد وأنتك محتل. كم من الوقت

استغرقت الرحلة؟ لا بد وأنتك منهك! باللهي كم أنا أسفة.

- لا تأسفي، فقط حاولي أن أراك قبل أن أسفّل القطار التالي.

- ألا يمكنك أن تبقي في نيويورك ليلة أخرى؟

- سيلي!

- حاضِر، حاضِر. سأكون عندك بمجرد أن يقرّر الأمين العام ما إذا كان

بأسف أم يدين!

- أنا جالس هنا.

بطارية التليفون في النوع الأخير. لينها تكفّ عن الاتصال كلّ عشر دقائق، فلن يصمد التليفون كثيرًا، لكنّي لا أستطيع أن أقول لها ذلك، مستضيق. سأنتظر، ماذا لديّ لأفعله في أيّ حال حتى يحين موعد العشاء لدى أبي. لا أريد التأخر عليه، لا أستطيع أن أتأخّر، فهو يتوقع منّي التأخر، كي يؤكد لنفسه أنّي غير منظم ولا فائدة منّي. مسكين هذا الأب، طبعًا كلنا غير منظمين مقارنة به! لكن ما الفائدة؟ ما فائدة كلّ هذا النظام وهذه الدقة؟ كيف لا يترك عبث دقته ونظامه هاذين؟ كأنه غلّة تسير بنظام حنديدي وعبري نحو الفناء. يسير في مساراته الخالدة، ثمّ يأتي من يدوس على حياته، ويغير كلّ ما فيها. وهو لا يهتم. يريد أن تأتي دائميًا في الميعاد، حتى لو كان العالم سينتهي غدًا. أرأيت أنه لو علم بموعد موته لذهب في

الموعد بالضبط ليلقي حتفه في الميعاد. لا فائدة من الحديث معه. حاولت مرات، لكنّه كان يقمعني بماله من حُجّة قوية ومن سلطة أبوية، ولم أبدأ أن أنزط في المحاولة، لم أبدأ أن أصرخ في وجهه أن كل ما يعتقد فيه وهذا، أن كلّ هذا وهم، وأنّ الأحياء الحقيقية تحدث دون موعد ودون نظام، ودون منطق، كاللوت، كالظلم، كالعجز.

ليلي لم تراجع مثلي، بل ذهبت لآخر الطريق في معارضته، وانتهى بها الأمر أن تركت له أمريكا بمن فيها، ورحلت عائدة لمصر. مسكينة هي الأخرى. مساكين كلنا. والآن هناك سلمي. لا أدري لم أتى بها. لا بد وأنه يريد إنقاذها من برائن "أمها المجنونة". ماذا يعرف حقيقة عنها؟ عن البتة أو عن أمها؟ لا شيء! بالكاد يعرف سن سلمي، لكنّه يريد إنقاذها مع ذلك. يريد أن تكمل دراستها بأمريكا وتستقر بها. مثلما أراد لنا. لماذا لا يكفّ عن محاولة إنقاذ البشر؟ ماذا ستفعل تلك المسكينة في أمريكا؟ ألم يكفّه ليلي؟ وسلمي تسألني عمّا يجب أن تفعل؟ تحدّثني بالتليفون كلّ يوم منذ وصلت، وتحطّرتي بالأسئلة، عن جدتها، عن أبيها، عن أمها، عن خالتي وزوجها، عن كلّ شيء آخر. أنت خالي وقضيت معظم عمرك هنا لكثك أيضًا تعرف مصر وسافرت في أماكن كثيرة ولديك خبرة. تقول ذلك كأنها تسع من كتاب. تسألني ولا إجابات لدي. ماذا أقول لها؟ ماذا يمكن أن أقول لها عن الحياة هنا أو هناك؟ عن اختيارات الحياة المصيرية التي يمكن أن تغرّ كلّ شيء، أو لا شيء على الإطلاق. ماذا يمكن أن أقول لها سوى بعض الكلام الباهت عن الإنسان وخسته في كلّ مكان، عن الأمل الزائف والدعاوى التي لا تتحقّق. لا شيء لدي لأقوله لها.

لا شيء البتة. استمع لها، وأنتم بعض التفاهات. أحييها إلى أمها وإلى أبيها ثم - حين يفشل كل ذلك - إلى نفسها. أفعل مثل الأطباء النفسيين الذين لجأت لهم: أسألكم هي عن شعورها وورليها. ثم أتركها لنفسها. أتى شخص، واستاذن في وضع ملايه على المقعد للقاء لي. أومأت له موافقاً، فالمكان ضيق والمقعد شافر منذ فترة. هيا ياسيليا، أسألي الأمين العام أن يقرّر هل يأسف لم يدين. ليتني كنت قد أصبرت على الجلوس في القهوة الأخرى. على الأقل كنت أكلت شيئاً، وتفاذيت هؤلاء المتنفذين والذكريات التي يحملونها لي. هل اتخذت ذلك العالم فعلاً؟ هل اتخذت البني؟ أروفته تنضح بالسلطة التي عمر فيه، مع أنه لا سلطة له. السلطة تنبع من العواصم، ثم تأتي وتصب في أروقة هذا البني الأسطوري؛ تسير في المقرات وتكاد ترتطم بها، فيتخيل لك أنك في قلب السلطة، لكنك مجرد حجر صغير في مجاريها. يمكنك أن تقضي عمرك كله لا تدرك الفرق بين الأمرين، ويمكن مثلاً حدث لي أن تستيقظ فجأة على الفارق فترفض أن تضيع بقية أهلك في هذه المجاري، وتقفز خارجاً. لماذا أشك في أنني اتخذت هذه للمرات إذا؟

اتصلت سيليا ومرو لي أنريكو التليفون. قلت لها "إني بخير، وأجبت على بضعة أسئلة وأنا ساهم، ثم أعطت التليفون لرنيسا. قال أحياء كثيرة عن الأسف والأسى، وعنتي أن أكون بخير. قلت: "إني بخير، لم يحدث لي أنا شيء، لكن كل من تحدثنا إليه قُتل، حرفياً". كرر التعبير عن الأسف، وقال إن هذا الحادث لن يمر. سأنته "ماذا سيفعل كيلامر؟" قال إنه تحدث مع نيوبورك، وسيعقد مجلس الأمن الليلة، ليصدر بيان يتوقع أن يكون

حديد الالهجة. سأنته بغضب كيف يمكن لبهان من المجلس أن يُعالج للمساءلة التي وقعت، والتي ستقع ثانية وثالثاً. سأنتي ساخراً عفاً أريده أن يفعل: يرسل جيش الأمم المتحدة للمعسكر؟! رددت بأن سخرته غير لائقة، وأنه إذا لم يكن بوسعنا حماية هؤلاء الناس فعلاً، لما جاز لنا إلهامهم بالحماية. قال شيئاً مأسحاً عن حقائق الحياة فانفجرت فيه وقلت له إن هذه غسة، وإن دم من قُتلوا الليلة في رقبته هو شخصياً. قال إني متوتر زيادة عن اللازم، وأعطى التليفون لسيليا. طلبت مني الهدوء، وقالت إنه سيرسل لي هليكوبتر مع أول ضوئ لإعادتي. أفتقلت الخطأ. قال أنريكو إن عليه الخروج لأن هناك عمل يجب أن يتجه، وسأنتي إن كنت أستطيع البقاء ساعة دون ارتكاب حماقات أخرى فأومأت.

خرج، وبعدها بقليل خرجت أيجول في المعسكر. ربما يغضب أنريكو، لا بهم. لم أستطع البقاء في تلك الغرفة كلما انغلق الباب سمعت أصوات ارتجاج الأرض المكونم تعود. خرجت أسير لا ألوي على شيء، وبعد قليل وجدت نفسي مع مجموعة من الشباب نشرب الشاي أمام إحدى العيش. بعد ساعة أخرى كنت في مقهى المعسكر، ثم مال عليّ شخص يبدو أنه كان يُدخن الشيعة معي، وأعطاني تليفونه المحمول.

نظرت في الشاشة. للوهلة الأولى لم أفهم ما ذلك الذي أنظر إليه: مصباح أو شيء كهذا يتراقص لهبه، وعندما فهت كان الوقت قد فات لأقول "لا". كانت تجري في وسط حلقة النار مشتعلة فيها، وكلما ذهبت لائحة من الحلقة دفعها أحد الفرسان بعصاه، فأعادها لتتصف الحلقة. والسنة النار المشتعلة فيها تتحرك حركة غير منتظمة، ربما مع الريح. بعد

دقائق قلت حركتها: تقف في المنتصف، ثم تتحرك خطوة أو اثنتين في اتجاه فيدفعها أحدهم فتعود لمنتصف الحلقة. ثم ثبتت في مكانها، واقفة، وثبتت النار ثم هدأت شيئاً فشيئاً، ثم تحركت فجأة كأنها جالسة، وتهتم بالقيام لكن حركتها لم تكتملي، وظلت هكذا واقفة في شبه حركة للأمام والنار تخبو، وترك عليها خيطاً رفيعاً من الدخان.

قرب منتصف الليل تحدثت سيليا مرة أخرى؛ لتراجع تسلسل الأحداث ودقة البيانات. قالت إن تقريراً حكومياً يدعي أن أهل الفتاتين هم الذين أشعلوا النار فيهما، للتخلص من عار سلوكهما البطال، وأن أمن المعسكر حاول التدخل لإنقاذهما، فهاجمهم النازيون مما حدا بالجنود لإطلاق أعيرة نارية تحذيرية دفاعاً عن أنفسهم أمام آلاف النازحين المحتشدين ضدهم، مما أدى لقوضي قتل أثنائها رجل من الحرس وشابين من النازحين، وقالت السلطات إنها تشكل في وجود عناصر مسلحة بالمعسكر هي التي دبرت كل ذلك. صرخت في سيليا، ربما لأول مرة في حياتي، فانزعجت بشدة وطلبت أن أعطي التليفون لأريكو. بعد ساعة اتصلت وقالت إنهم لن يأخذوا بتقرير الحكومة اعتماداً على روايات عمال الإغاثة، ولكن ذلك سيقلل من لهجة البيان، وأن هناك مناقشات حادة في المجلس بين هؤلاء الذين يصرون على أن يدين المجلس الحكومة لتقاعسها عن حماية النازحين، ومن يريدون الاكتفاء بإبداء الأسف حيال ذلك. أغلقت الخط في وجهها، ثم مات التليفون تماماً. سقطت في الفراش حتى الصباح حين جاء فريق أمن الأمم المتحدة، واصطحبني للطائرة التي عادت بي للخرطوم.

الساعة الآن السادسة والنصف. يجب أن أقادر المقهى لأصل في الوقت المحدد؛ كيلا ينظر لي أبي تلك النظرة التي أمقتها. نظرت لكيس البيجيل الذي سأحملة له. ألم يلحظ أنني بلا عمل منذ عامين؟ هل توقفت ذاكرته عند تحقق رغبته برؤيتي شخصاً مهتماً بعد الجهد والمال الذي أنفقه على تعليمي؟ كان يريد أن أصبح محامياً ورفضت. خيبت أمه عندئذ، لكنه أهدى بعض الرضى حين التحقت بالعمل في الأمم المتحدة، وحمدت الله أنه توقف عن متابعة تفاصيل حياتي بعد ذلك. لم أقل له إنني "احترقت" ولم أعد أطبق النظر في وجه زملائي أو رؤسائي، أو المبني أو الطائرات. قلت له إنني أكتب كتاباً في هدوء منزلي، بموتريال.

سألني بضع أسئلة ثم صمت مُششكاً. سيتر عندما يرى البيجيل، ليس لأنه سيأكله، فأغلب الظن أنه لن يفعل، لكن لأنني تذكرت إحضاره. يخترني، مثلما يخترني الآن، حين بصر أن أعود للمنزل في الساعة؛ لأحرف على ترتيبات عيد ميلاد سلمى. أي ترتيبات تلك التي سأحرف عليها؟ هل سيرك الدكتور درويش أمراً هاماً كترتيب عشاء بمنزله في يدي؟ بالطبع لا. ستوئى كيتي كل شيء، وسيظل هو شخصياً فوق رأسها بلاحتقا. ودوري أنا؟ لا شيء، مجرد اختيار ليري ما إذا كنت ولداً طيباً، وأحافظ على مواعيدي. كأنني مازلت طفلاً وهو يرئني. ربنا معك ياسلمى في هذه الإقامة. دق جرس التليفون. سيليا مرة أخرى. ضغطت على زر الرد، لكن البطارية أسلمت الروح قبل أن أسمع صوتها. لم بعد هناك الكثير من الوقت على أي حال، سأنتظر عشر دقائق أخرى ربما تظهر، ثم أذهب كي ألتحق بالعشاء.



## 4

## عين جالوت

تركت سيارتي وأخذت القطار. لا يوجد هناك أماكن لركن السيارات، كما أن المتحف يُغلق في الخامسة وهي أسوأ أوقات الذروة. حين أنهى من الزيارة سأعود بالقطار وأضلّ بالمسجد حتى أنهى من درس المغرب، ثم أخذ أميرة، وتوجه لعشاء طليق أختها. سألها الله؛ لِمَ تُورطني في عشاء مع رجل لا أحبه ولا يحبني؟ سأكون ضيفاً ثقيلاً، متأنقاً من الجلسة ومن الجالسين وما يفعلون، وسيكونون هم غير مُرتاحين لوجودنا. وإما أن تبادل حديثاً نافعاً حول الزحام والطقس، أو ندخل في مناقشات لسهة بالمراك. آخر ما أحبّ هو محادثة العرب المتأمركين؛ الحديث مع الأمريكيين أنفسهم أفضل وأكثر فائدة. لا، وهذا شيخهم. رأيت له كتاباً

منذ سنوات يصف فيه العرب بأنهم أمة سقطت من التاريخ لكن لم يتم دفنها! سألته أول مرة التقية عن هذا، وبدلنا حديثاً كاد أن ينتهي بخاتمة لولا تدخل أميرة. لماذا تأخذني لعشاء، في بيت هذا الرجل. قالت إنه عيد ميلاد سلمي، وأنها رغبة ليلي التي تعاملها أميرة كابيتها منذ وفاة أختها. والله إنني لأفهم هذه العائلة: الدكتور درويش مافون كاره لنفسه وأمه، وابنته ليلي عكسه تماماً لكنها لا تقل عنه قوة، والحفيذة سلمي تائهة، وأبوها وخالها بلا دور. تركتها أمها تأتي لأمرها وفهمت، على أساس أن لهاها هنا. لكنها أصرت أن تقيم البنت عند جدّها الذي تكرهه والذي فأت له أمرها بمن فيها. ثم وزّعتنا نحن في هذه الحركة، واشترطت على خالتها أن ترعى لها ابنتها وتضعها تحت عينها، وكأننا المحلل. ماعليها، منها لله أميرة، منذ ماتت أختها وهي لا ترفض لليلي طلباً حتى لو كانت نزوة. ساعهه الله، نسوان ناقصة عقل، لكن طيبات.

سأمر على المسجد قبل الذهاب لذلك العشاء المشنوم. جامعي شاب بعد صلاة الظهر، وطلب الحديث عن أمر شخصي. لا بد وأنه يبحث عن زوجة، لو كان يبحث عن عمل لقال. سأسال أميرة إن كان لديها عروسة. خرجت من محطة "فيلتون"، وسرت باتجاه المتحف الصغير الذي أقامته إدارة الإطفاء. يقولون إنهم سينون متحفاً كبيراً فيما بعد. سرى. وصلت أمام المتحف، فوجدت عربة إطفاء واقفة بقرب الباب قبله للناظرين. بضعة رجال يقفون أمامها يتأملونها بإجلال، وكأنها هبطت من السماء أو صاعدة لها. دفعت سبعة دولارات رسم الدخول، ومررت من البوابة الإلكترونية. من الذي يأخذ هذا المال؟ وماذا يفعلون

به: أبشرون مقتنيات جديدة يمتصها للمتحف؟ تجولت في أرجاء القاعة لحظات، نظرت للحوائط والمعلقة، والمقتنيات والبافطات، والمحتويات والأسماء، والصور، نظرت لكل هذه الأشياء بسرعة، ثم توجهت لدكة خشبية تتوسط القاعة، وجلست.

ما هذا المتحف البائس؟ لو تركوا الأمر لي لبنت لهم متحفاً أفضل عشر مرات؛ متحفاً حقيقياً بمقتنيات حقيقية، بأوراق التخطيط والأفلام التي كتبت بها الأفكار الأصلية، الملابس التي ارتداها المخططون، السجاد الذي جلسوا عليه، أكواب الشاي التي احتسوها وهم يفكرون في العقبات، التليفونات التي استخدموها، الرسائل الإلكترونية، الكمبيوترات، حسابات البنوك، جوازات السفر، أدوات التكر، أدوات التدريب، تذاكر السفر، بطاقات الصعود للطائرات وتذاكر الحفلات، وأسماء التفتين تدونة عليها، كل ما استخدم في صنع هذا.

أنا الذي أعرف حقيقة ما حدث. أنا الذي أعرف الصورة الكاملة. أنا رقم صفر. أنا الرقم المكمل لأي رقم تعرفه. أنا الذي أعرف من أين جاءت المعلومات اللازمة لتنفيذ ضربة بهذا التعقيد، كيف تم الحصول على المال ومن أين، كيف تم تجنيد التفتين وتدريبهم وكيف تم إلصاق كل القطع معاً بحيث تم الأمر بهذا الإتقان. أقرأ تقرير السلطات الأمريكية عن الحادث، وأضحك بيني وبين نفسي. أسمع الاتهامات التي يرددها العرب لأمريكا، وأضحك أيضاً. كل طرف يحاول تبرئة نفسه، ولصق التهمة بالآخر. هل فكر أحد منهم ألا تناقش بين روايته ورواية الآخر؟ أنا الذي أعرف حقيقة ما حدث، دور الذين ذكروا في التحقيقات، ودور الذين لم يذكروا.

أجلس هنا، في هذا المعرض التذكاري، أرقب الصور والمقتنيات، والكتابات وصور بعض من ماتوا، ونحيت أهلهم وأحبائهم، ولا يترك هذا في نفسي أثرًا. لا شيء.

أنا الوحش. أنا الذي اغتبطت للهبوط، وشعرت بموجة عارمة من التشقى لم يغفل منها إلا صمود الرجين طيلة هذا الوقت الذي سمح لأعداد كبيرة بالنجاة. كنت أريد الخمسة وسبعين ألف، كلهم. لا تسألني عن الموتى، فلا أريد أن أسمع عنهم شيئًا. أنظر للوجوه في الصور المعلقة وتعليقات الأهل والأحباب: "نحن نفتقدك يا جيمي"، "أفكارنا معك يا ليري"، و"ريبيكا، سنظل في قلبي إلى الأبد". كلمات جوفاء لاتعني شيئًا. لا أحد يظل للأبد. كلنا ميتون، ميتة أو أخرى، ما الفارق لدى الموتى؟ لا أعرف شيئًا عن هؤلاء الضحايا، ناس فنوا مثل كل من بغني. سيرحمهم الله إن كانوا يستحقون الرحمة، وسيعاقبهم إن استحقوا العقاب.

لكن موتهم في حد ذاته لا يعني شيئًا. كم من الناس يموتون كل يوم، في هذه اللحظة، في هذه الثانية؟ هل نقيم لهم المتاحف، أم كان لدى هؤلاء رخصة بالبقاء أكثر من الآخرين؟ هل كان لديهم حق في العيش أطول ممن قُتلوا من قبلهم؟ هذا هو أجلبهم، هذه هي حياتهم، وهذا موعد موتهم: لم يسرع فيه أحد أو يؤخر. كتب لهم أن يكونوا هم الذين يموتون في هذا الحادث بدلًا من أن يموتوا تحت عجلات سيارة، أو بأغذية مسرطنة، أو بانفجار لغم لو في زلزال. لا أعرف عنهم شيئًا، ولا أريد أن أعرف. لو كان الأمر بيدي لأخذت الخمسة والسبعين ألف كلهم. لو اقتضى الأمر أن أقتلهم بيدي ما ترددت. لكن كتب لهؤلاء النجاة، دون إرادتي،

مثلما كتب على هؤلاء الموت. ولست بمعرض الشعور بالأسى على أحد، ليس أنا.

ما تلك الترهات التي وضعوها في المتحف؟ ألم يجدوا من الطائرتين سوى هذه النافذة؟ وحطام الرجين كله، لم يجدوا منه ما يضعونه هنا سوى هذه التفاهات؟ لم لا يفتحون باب التبرع؟ من الذي يقرر أي الأشياء يدخل ضمن قائمة للمقتنيات؟ وما هو المعيار؟ هل يمكن إضافة القنابل العنقودية التي قتلت أبي، أو قنابل الإضاءة التي أضابت للقنابل وجه أمي كي يذبحها؟

سمعت عن هذا المتحف التذكاري فجت لأراه بنفسي. من الذي سيأتي للزيارة هنا؟ من هؤلاء الناس؟ لا أظنهم من أهل الضحايا. لو قُتل ابني في العملية ما جئت هنا لأتذكره. أحتاج التكللي قاعة للتذكر؟ أم هم حاملون يبحثون عن مأساة يتعاطفون معها؟ أم شامتون سرًا باتون للفرجة على الإمبراطورية وقد صفت؟ أم أطفال المدارس يتفادون إلى هنا كي يكرهونا أكثر؟ أسمع من مكاني صوت القلم "الوثائقي" الذي يثقه القاتمون على المتحف التذكاري؛ إنهم يحولون الأمر لعبادة، "يرل هاربر" أخرى، وهناك شخص يقول إن الرجين كانا يمثلان السلام العالمي لأن التجارة تصنع السلام؟ بسلام!

بحر الزوار وينظرون لي بشت. لابد وأنهم يتسألون عما يفعله هذا العربي هنا؛ التساماة أم الفرجة على ما فعله مواطنوه؟ وطفل صغير يطل النظر ناحيتي، ثم يقترب من أبيه أكثر. لا تنظروا طويلاً، فأنا لا أختلف عن الباقين، هؤلاء الذين سَلَقُونَهُمْ عندما تغادرون، في القطارات المسافرة

تحت الأرض وفوقها، في أماكن عملكم، وفي وسط بيوتكم وبين نساءكم. كلنا نشبه بعضنا في أعييتكم: أنا بيدلتي الرمادية، ولحيتي المشدبة التي غلبها الشيب، وقامتني الضئيلة وصوتي الخافت، والآخِر بلحمته المشدنة وجلبابه القصير وسحته الغاضبة وصوته الجهوري، والثالث بالشورت وكأس البيرة في يده. نخافون منّا جميعاً. فلا تطيلوا النظر، تشكّكو أكثر، وسُخِدونا على قلب رجل واحد؛ كراهيتكم لنا تُغْذِي عزمنا.

يمكنني الجلوس هنا واصطناع دور الضحية. يمكنني أن أخطب فيكم عن "جرائم أمريكا". يمكنني أن أقصّ عليكم قصص بيروت؛ عُثِمات اللاجئين، وما تحت أنقاض البيوت التي قصفتها طائرتكم المزوّدة بأحدث تكنولوجيا الموت - تلك التي تدخل في بند التجارة من أجل السلام. أنا الناجي من مذبح طالت كل من أحيت؛ يمكنني أن أحنّكم عن القتل الجماعي، والقتل الفردي، والقتل عن طريق الاستخفاف، والقتل الخطأ. يمكنني أن أحكي لكم حكايات مؤثرة عن استهداف المدنيين للترويع، وللضغط وللإبلام، ولكسر الإرادة. يمكنني أن أروي لكم عن طائرتكم التي دارت نصف دورة في السماء، حين أطلق عليها مقاتل ساذج قذيفة من مدفع عيار 16 ملل لا يمكن أن تصيها. عادت الطائرة فقصفت المي كلّه في غرب بيروت. ماذا كان ذلك الطيّار يفعل؟ هل كان يفكر في أن سكان الحي من المدنيين الأبرياء، وأنّ صاحب المدفع أبه لا يُشكّل خطراً حقيقياً على طائرته؟ أم كان يعتقد في قرارة نفسه أن هؤلاء الناس لا قيمة لهم، وأنّه يستطيع قتلهم جميعاً إن شاء، دون أن يعني ذلك شيئاً؟ هل فعل ذلك لشرف في نفسه، أم لأنّ التعليمات التي لديه تقتضي بهذا؟ أعرف

الإجابة على هذه الأسئلة. فانا الذي أطلقت قذيفة المدفع الذي أعلم أنه لن يصيب الطائرة. لم؟ لأنّي أعلم علم اليقين أن الطيار سيمود ويتصنف الحي بأكمله. ولم أرْ ذلك؟ لأنّي أريد أن أفضح وحشيته أمام هؤلاء الذين مازالوا يتوهّمون أن الغرب إنساني، وعنده مبادئ. هكذا يرى الناس الحقيقة عارية في وجوههم، ويدركون لأي مدى هم وحدهم أمام هؤلاء الوحوش، ويفهمون ألا خيار أمامهم سوى القتال لحماية أنفسهم، أو الموت على يد الغربي الغازي الذي لا يفهم غير القوة.

لم يكن لديّ أوهام حول هذا الأمر في يوم من الأيام، لكنني صرت على من قالوا لنا أن نهادن، وأنّ نحاور، وأدعوا بوجود قوى في الغرب تقلبنا، وزعموا أن التاريخ تجاوز الصراعات القديمة بيتنا. كذبت مزاعمهم وكذبوا. صرت عليهم، وتحملت ترهاتهم وإذلالهم لأنفسهم على عتبات الغرب علّه يفتح لهم الباب، لكن لم يفتح سوى الذل والهوان، مرة بعد مرة، وهم لا يفقهون. أستطيع أن أقصّ عليكم قصص النساء والأطفال الباحثين عن مياه الشرب في أقبية العمارات وهم لا يعرفون؛ أمن العطش سيموتون، أم من الغضب على أمريكا وأوروبا التي وعدتهم بالحماية ثم تخلّت عنهم، أم من اليأس من اتصال حالهم، أم بقذيفة أمريكية الصنع تأتيهم فترهبهم من عذاب الدنيا؟ أستطيع أن أقصّ عليكم قصص المدنيين الذين بقوا في صبرا، ودخل العملاء الوحوش بيوتهم يطلقون النار عليهم واحداً بعد الآخر، وجيش "الدفاع" الإسرائيلي يطوّق المكان ويطلق قنابل الضو، الأمريكية؛ لتضئ للقتلة ظلام الليل. بنس الحارس والمحروس. أستطيع أن أقصّ عليكم كيف نفدت الطلقات من القنلة في البيت الذي

كنت أختبئ فيه، فذهبوا من وجدوهم بالشكاكين، ونجوت أنا لأنهم حين ذهبوا أسي وقعت جثتي فوق قلم بروني. ظللت عتيقاً تحت جثتي أشعر بها تبرد شيئاً فشيئاً. لكنني لا أريد أن أقصّ عليكم شيئاً من هذا، لأنني لا أريد شفتكم الزائفة، شفتكم التي لا طائل من ورائها. لم أبق يوماً بكم ولا بعودكم، وحين رفضت الرحيل مع من رحلوا كنت أعلم أنكم وعملائكم آتون لعقابنا بعدها. كنت أعلم أنكم ستعاقبوننا لأننا وقفنا أمامكم وأمام عملائكم وقفنا "لا". نجوت، أنا المقاتل، وذهب جنودكم أمي المدنية. فلا تحدّثوني عن قدسية حياة المدنيين. لم أكن في يوم من الأيام حالماً، لم أنتظر منكم غير هذا. ولدت مقاتلاً في تحيّم مظهر عليه السماء قتالكم الموسمية، ولتص منكم من أستطيع وأنتله. هكذا عشت؛ أعرف جنودكم ويعرفوني. نفهم جيداً قواعد اللعبة بيننا، فلا يحدثني أحد عن احترام حياة الأبرياء. لا أنا ولا جنودكم نأبه. المدنيون الأبرياء ضحايا، خسائر حرب، يموتون عندما يكون موتهم ضرورياً. يموتون اليوم فوق غداً فوذك أنت. أنت يامن تنظر إلي الآن من وراء هذه التذكّرات وتساءل نفسك: أسألها جيداً كيف سلّتي في المرة القادمة؟ وأنت واقف على جثتي، أم وأنت راقد على ظهرك في سكرة للوت تحاول تبيّن ملامح وجهي.

لكن انتظر، لا تسيء الفهم. منذ يومين قصت عليّ أميرة أن سلمى اعترفت لها فيما يشبه الفخر أنها سرقت كتاباً من مكتبة في شارعنا. ضلعت أميرة وطلبت منها إعادة الكتاب للمكتبة. استغرت سلمى: ألا تقول لها دوماً أننا في صراع مستمر مع الغرب الصليبي؟ ظنّت أميرة معها

ساعتين تشرح لها آتاً في بروكلين، ولسنا في ساحة قتال. لم تفهم سلمى معنى ذلك وسألتي - دون أن تذكر قصّة الكتاب. عدم فهم شائع. قلت لها إنني لا يمكن أن أخرج سلاحاً وأؤذي به جاري في هذا البلد، أبا كانت ملته، فله عليّ حقوق الجيرة. لكنني سأقتله، بلا تردد، إن كان ذلك جزءاً من قتال. لا أدري إن كانت قد فهمت. لكنك، يامن تنظر لي في ربة وسط هذه المقتنيات السخيفة، جاري في التلّو أو الشارع. ولك عليّ حقوق الجار مثلك في ذلك مثل جاري الذي يسكن أمامي في بروكلين، وأرسل له الكحك في العيد، ويرسل لي الهدايا في عيد الميلاد. أما حين ينادي منادي الحرب، وتكون أنت أو هو في الطريق، فإنكما تكفّان عن أن تكونا جيواني، وتصبحان مجرد ضحيتين. يزعجك هذا، أليس كذلك؟ لكن لم؟ ماذا ستفعل أنت حين تقاقل في العراق أو أفغانستان ونجدي - أنا جارك - جالساً أدخّن الترجيلة في طريق الصاروخ؟ هل ستوقّف العملية وتنادي كي أخرج من طريق الأذى؟! عيب عليك.

الساعة تقرب من الخامسة، ويجب ألا أظل أكثر من هذا. زوّر التحف ورحلوا وجاء غيرهم أكثر من مرة، وأنا مازلت جالساً. لكن يصعب عليّ مفارقة المكان؛ كأنّ هذه المقتنيات ملكي، كأنّها جزء من بيتي. يجب أن أذهب مع ذلك. يجب أن أعود للمسجد في بروكلين، ثم أذهب لهذا العشاء. والله لولا إصرار أميرة وحبتي لسلمى ما ذهبت. طيبة هذه البنت. رغم توهانها فهي خامة طيبة؛ مثابرة ومجتهدة، ولديها فضول قوي يدفعها للسؤال عن كل شيء. منذ زمن لم أقابل فتاة لديها هذا الحرص على التعلم. حادة الذكاء، وروحها نقية لم تقلد رغم نشأتها في بيت منقسم. من

يدري، لعنّها ورثت حبّ العلم والجديّة عن الدكتور جدّها، وإن كان هو قد أساء استخدام هذه الموهبة، فلملّ حفيدته تأخذ طريق الصواب. أميرة تحاول إقناعها بالبقاء هنا، ويمكنني تدبير منحة دراسية لها وحشها على الالتزام، وأميرة تقول إن ليلى أمها يمكن أن تساند هذا. الأم هي الحلقة الأهم، فالجد رجل عُرف لم يعد أحدٌ يهتم برأيه، والأب بلا قرار. جزاك الله خيراً يا أميرة إن أفلحت. بنت بهذه القدرات يمكن أن تتحوّل لطاقة للخير إن أحسن إعادة تربيتها وتعليمها، وأميرة فادرة على ذلك بإذن الله. سأرى أباهما وجدّها هذا المساء، لكنني لن أحدّثهما بشيء من هذا. وذكرت أميرة ألا أحدّثهما، فلا يجب أن نبدو وكأننا حريصون على هذا الأمر أكثر مما ينبغي. أميرة كفيفة بالفتاع البت، وبعد ذلك تحدّث ليلى أمها وإن شاء الله يستقيم الأمر بعدها.

كنت أظن أننا ستقاتل حتى النصر. بعد حرب 1967 دفنت ماتبقى من جيشنا أبي الذي فتته القنبلة العنقودية، وأودعت أمي وأختي في المخيم، وخرجت للقتال مع من خرجوا. عشرون عامًا وأنا أقاتل، في الأردن وفي لبنان وفي أوروبا. عشرون عامًا تربص برجالكم، ورجالكم يترصّون بنا. تقتلهم ويقتلوننا، بدم بارد أو ساخن حسب الأحوال. إن تمّ القتل في بلد عربي فهو غالبًا بقصف جوي، وإن تمّ في أوروبا فهو بدم بارد: طلقة من مسدس تُودّع في الجمجمة، أو بعض التفجّرات. كلّمنا قاتلكم هزمنونا، وخلفتم نازًا أكبر. فعدّ لمركة أخرى تلحق بكم لأنّا أشد، لكنكم لا ترجعون؛ بل تجدون طريقة ما كي تعاودوا الكرة،

وتلحقوا بنا خسارةً أشد. تحفّظون أن هزائنا ستردنا عن قتالكم، وهو لن يكون أبدًا. كنت أشكو لقادتي تكرار هزائنا، فيقولون إن هذه غزوات نخسرها، لكننا لا ننهزم إلّا إذا تركنا ميدان القتال. صمودنا مفتاح الأمل، وبداية النصر وإن بعد. ولئن النصر البعيد؟ سألت نفسي عشرات المرات، في المخيمات والختنادق، وخلف أكياس الرمل وفي العريات. وخلصت إلى أن النصر لن يتحقّق إلّا حين ننقل للمركة إلى أرضكم أنتم.

ومن ثمّ قرّرت المجيء إليكم في عُقر داركم. فمنذ أكثر من مائة عام وأنتم تقاتلوننا على أرضنا، وحين الوقت الذي ننقل فيه القتال إلى أرضكم. نحن داوود وأنتم جالوت الطاغية. ثم يهزم داوود جالوت بمصارعته وجهًا لوجه، فجالوت أقوى وأضخم، وأقدر على المنازلة. لكن داوود انتصر بالحيلة حين سدّد الحجر لعين الطاغية العملاق فأرداه من الألم. بحثت عن عينكم، وسدّدت لها ضربة قاصمة. وقتت أرقب انهيار الرجين، وشعور النصر النهائي بملؤني حينًا قشيبًا وضعت كلّ القطع معًا، رصّصتهم ورثت تسلسلهم في حلقات تُقضي بعضها لبعض. لا أحد يمكنه أن يدرك مدى عبقرية التخطيط لشيء كهذا. لا أحد غيري كان يستطيع جمع الأضداد كلّها في منظومة واحدة، بحيث تساعد بعضها البعض دون أن تعرف بعضها أو ما تعلعه، لكنّها في النهاية تؤدي للنتيجة المرجّاة. لم أر مثل هذا التبوع يتجسّد هكذا من قبل. من يمكن أن يصدّق أنّي جعلت الذئب والحمل يعملان سويًا، يكملان عمل بعضهما، دون أن يعرف أيّ منهما الآخر أو يراه. وضعت الأجزاء في مكانها، في متناغمة

تكاد تكون سحرية. لو كان من الممكن رسم هذه العملية لصارَت أشهر من لوحات دافنشي، ولو كانت موسيقى لصارَت أعظم من تاسعة بيتهوفن. هذه هي لَمَ العمليات بحق، ولن أبلغ هذه القصة مرة أخرى.

وقفت أقرب انهيار الرجبين، والصراخ الذي ملأ به قادتكم وسائل الإعلام. كلُّنا علا صراخهم وتهديدهم ووعيدهم، كلُّنا تأكَّدت من عمق الألم الذي أصابكم، ومن قلة حيلة قادتكم. ظننت أن هذا الصراخ سير، ثم يفقدون لما أصابكم. لكنهم لم يفقدوا، بل أمعنوا في غيهم. لم يجعلهم الضربة يرون الحقيقة، بل تكاد تكون قد أعمتهم أكثر. أيُّ حماسة تلك التي تدفع المرء بعيداً عن سبب الله، فيعزوه لما يمكن أن يكون فيه شفاؤه، ويزيد المشكلة تفاقمًا؟ لم يخطر على بالي أبداً أن يكون هذا هو رد الفعل؛ قلت فترة عمر، وبدأ العفلاء في الانتباه لأصل المشكلة. لكن سنوات مرت، ولم يحدث شيء من هذا. سنوات مرت ولم يحدث شيئاً إطلاقاً، لم يتغير شيء. فقات عین جالوت لكن الألم لم يجعله يتوقف عن الطغيان، بل زاد طغيانه عمى.

فهمت. أخيراً فهمت؛ لا أنتم مستصغرون ولا نحن مختصرون، بل سواصل قتال بعضنا البعض إلى الأبد. نطعنكم وتلعنوننا دون أن يسقط أحدنا ميتاً. لن يخرج أحد منا متصراً إلا لو استسلم الآخر، وهو لن يكون. لا خسائركم ستردكم عن غيكم، ولا هزائنا ستردنا عن حقوقنا. الحرب، هذه المعارك المستمرة بيننا، تضبط إيقاع القتال بيننا ولا تنهيه. لم ينل لنا سوى أن نؤذي بعضنا، بلا توقف ولا نهاية. وهكذا صيرت أقد هنا كالشوكة في عينكم؛ كلُّ شوكة تدميكم هي شوكة أقل في عيوننا

نحن. ماذا ستفعلون فينا؟ نحن باقون، هاهنا، حتى آخر يوم لنا ولكم. صحيح لي ودعت القتال، لكنني باقي كي أؤذيكم، وأقتل من أذيتكم لنا، لا أكثر ولا أقل.

الآن أعط بالقانون وعدم العنف. لا أحمل سلاحاً ولا أدعو إليه، بل أتم الصلاة في مسجدنا الصغير بروكلين، وألقي دروس الفقه والسنة على من يريد الاستماع، وأدبر للشباب منحا للدراسة ووظائف، وزيجات صالحة. لا أكثر من ذلك. لا أدرّب أحداً على حمل السلاح، لا أعلم أحداً القتال، بل لا أنصح به أحداً. كلُّ ما أفعله هو تقوية هوية شبابنا، وإعادةه لجذوره، وإبعاده عن السقوط في براثن الحضارة المادية التي تغرون بها. كلُّ ما أفعله هو الخيلولة بينكم وبين السيطرة على هذه الراعى التي تنمو بين ظهرانيكم. أحبيهم من نسيان من هم، ومن أين بأنون، وماهية المصير الذي ستقون بهم إليه. أبشركم بنفاق دعاؤكم، ولربهم كيف تكيلون بمكاليين؛ واحد لنا وواحد لكم. أحمي هذا الشَّباب، وأضمن ألا يسقط فرصة لدعايتكم الرخيصة حول المساواة وحول الحرية الظاهرية. أحمي الشباب والمفرزة، وأترك له بعد ذلك أن يقرّر طريقه بنفسه. إن قرر أن يسلك سبيل الجهاد، ووجد في نفسه القدرة عليه، فسيأتي من يساعده ويأخذ يده. ليس أنا، بل آخرون ممن لا ترون؛ يخرجون من بين أيديكم ومن خلفكم. فماذا أنتم فاعلون بي وبهم؟ أنجزون قوايتكم كي تضيقوا الخناق علينا أكثر؟ إن فعلتم ستبتون ما قلناه دوماً، وهو أن حديثكم عن الحرية والمساواة محض نفاق، وأنكم ستدوسون على هذه الحريات حين تحتاجون لذلك، مثلكم في هذا مثل من كنتم تقاتلون. استرسلون بنا

للسجون، وتشكّون في العرب والمسلمين أكثر، ويخشفون الإجراءات للحيلة دون تسرب أبنائنا للمناصب ذات النفوذ؟ فلنضعوا! لكن كلّ طعنة ضدنا سثبت صخرة دعاوتنا، وتقوّي عزيمتنا وشبابنا وتصميمهم على انتزاع حقوقهم منكهم. قوتنا تنبع من ضعفنا! نحن أبناء داود، لا أنتم. أنتم أبناء جالوت! ضعفكم يأتي من قوتكم. وكراهيكم لنا تريد من ترابطنا ومن عزيمتنا، وهو مايزيد من ترصعكم بنا، وتضييقكم علينا. وهكذا، نحن الاثنان، متداخلان في هذا العناق المميت الذي يدعمنا سوياً، ولتر من سينحطّل الألم أكثر.

الساعة الخامسة، سأترككم الآن، وأذهب لمسجدنا ولعشاء سلمي. يعز عليّ أن أترك هذا المتحف؛ أنا القطعة الناقصة في مقتنيات القاعة التذكارية لقتالنا الذي لا ينتهي. وإن كان القائمون على أمر المكان يستأثرون بتحديد قائمة للمقتنيات، فإني مرسل لكم واحداً ممّا كلّ يوم ليجلس هنا، ويكمل الصورة، على هذه الدكة الخشبية في المتحف التذكاري لقدّرنا المشترك.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^RAYAHEEN^

## 5

## ماريك

ظللت أحنّ في شاشة الكمبيوتر غير مصدق؛ نيويورك؟ ماريك هنا، في نيويورك؟ بعد كلّ هذا تنقابل بالصدفة! ماذا جعلني أكتب إليها؟ خطرت على بالي مثلاً يحدث كل عام، تخرج ذكرها فجأة من حيث لا أحسب، ويحتلّ تفكيري فأكتب لها. في العادة تأخذ أسبوعاً حتى ترد. هذه المرة ردّت بعد دقائق. رسالتي وردّها ملتصقان في قائمة الرسائل يحملان نفس التاريخ. كنت مازلت أحنّ في شاشة الكمبيوتر حين ظهر اسمها الجميل على الشاشة! ماريك. هذه الحروف التي تدخل رؤيتهم البهجة في قلبي وتغمري بموجة تحنان لا أدري من أي بقعة في نفسي الجافة تأتي. ماريك في نيويورك، ولدة أسبوع. كتبت لها على



الفور ردًا من كلمة واحدة: "نلتقي؟ أرسلته قبل أن أفكر في عواقب هذا العرض. وجلست أهدق في الشاشة. بعد دقيقة ظهر اسمها ثانية. فتحت الرسالة وأنا أكتب: "نعم" ونسأل أين؟ ارتسمت ابتسامة طاغية على قلبي: لا تفكير الآن في العواقب، سأراها، سأرى ماريك. زادت حماسي وقصرت المدة بين رسالتنا. بعد عدة مبادلات اتفقنا على اللقاء في بهو الفندق الذي ننزل به في تقاطع الجادة الأولى وشارع 49، في الثامنة والنصف مساء نفس اليوم.

سألتني ماريك. فم كنت أفكر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر إليها، وكيف نتقابل؟ هل أحضتها أم نسلم باليد كالغرباء، أم نقبل بعضنا على الحقد كالأصدقاء؟ وماذا ستقول لبعض؟ ستحدث عن أسباب تواجدها في نيويورك. سأقص عليها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة عام أو شئ على الانتهاء، وستقول لي ما أتت بها. ستسألني عن أخباري في مصر، وأخبار سلمي، وسأسألها عن تطورات حياتها منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لأمستردام مثلما كانت تخطط، أم ظلت في ليدن مثلما كانت تريد، ومصر بيننا الصغير. ثم تصمت، وترتشف شيئًا من شرابها، ربما يقاطنها النادل بسؤال. ثم تسألف الصمت. هل ستسألني عن حياتي العاطفية؟ هل أسأله عن هذا اليوناني الذي ذكرته في رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئًا عن يونانيها أو عن غيره. هل ستطرق للموضوع المعتقد؟ هل ستحدث عنا، عما جرى؟ لم نلتق وجهًا لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ اتفقنا على أن تأني في عيد الميلاد وتقيم معي حتى نرتب أمورنا.

تحدثنا في التليفون مرة، وتبادلنا رسالة أو اثنتين كل عام، لكننا لم نتقابل. هل تغيرت؟ أي ماريك ماريك.

نزلت في محطة شارع 51، وسرت باتجاه الجادة الأولى. الجو دافئ. عبرت الجادة الأولى وسيت إلى العنوان الذي ذكرته. لا أتت كثيرًا إلى هذا الجانب من المدينة. وجدت الفندق بجوار مبنى الأمم المتحدة. المبنى مظلم عدا بعض الأنوار المتفرقة في طوابقه العليا. ماذا يفعلون في الأمم المتحدة في هذه الساعة المتأخرة! عبرت الشارع ودخلت من باب الفندق، فرايت مكتب استقبال صغير تقف خلفه موظفة واحدة. سألتها عن البهو، فقالت إن هذا هو، فلما بدا علي التردد أشارت علي بالبحث عن أريد في البار. دخلت من باب صغير، فوجدت مطعمًا مستطيلًا يطل على الشارع وفي وسطه، على اليمين، تجلس الراحلة ماريك مع رجل في أواخر الخمسينات على أريكة نصف دائرية، وأمامهما تثار أوراق على المنضدة وكأسين من شراب. هي، بشعرها الأصفر الغامق المقصوص عند كتفها، ونظارتها المستديرة الرفيعة، وابتسامتها الكبيرة، وشفتها السفلى المتتوية في سخرية خفيفة، وخديها الورديين، وعنقها الأبيض المائل للحمرة. ترتدي قميصًا رجاليًا أبيض، ومن فوقه سترة داكنة، وأرى بظلالها الأسود وحذاءها من أسفل المنضدة. كتفها الضيقين، وجسمها لتسامك الذي أذكره كأنه كان بالألمس معي. هي، ماريك التي أحبتها، رغم السنوات ورغم ما فعلته بي. فم كنت أفكر حين دعوتها للقاء؟

رفعت عينها من الأوراق ناحية مدخل البار، فرائني في وقتي لتجسدة. علت ابتسامة وجهها فأضامته أكثر. تطلع جليسا نحوي،

وقطع ما أجزم أنه غزل من ناحيته. قامت من خلف المنضدة فمشيت نحوها. خرجت من وراء المنضدة وهي مرتبكة بعض الشيء، وتقدمت نحوي. ماذا تفعل الآن؟ أمد يدي لها لم أفتح ذراعي؟ لم تنتظر: فتحت ذراعيها واقتربت معانقة، فعاقبتها مضطرباً، ثم أطلنا العناق أكثر قليلاً مما يفعل الأسدقاء. أراجع كل منا رأسه للخلف قليلاً، ليرى وجه الآخر دون أن يتباعد جسمانا، واجتمعا لبعضنا ابتسامة العارف بكل شيء: بالحبّ وبتعقيدات الدنيا والنفس، ابتسامة العارف المستسلم الراض للمقاوم معاً، ثم تعانقنا من جديد، لحظات، ثم تباعدنا. أخذتني من يدي، وقدمتني للرجل الذي كانت تجلس معه منذ دقيقة: فلان الفلاني - لم أستوعب الاسم الهولندي - رئيسها في العمل. ثم قدمتي باسمي الأول: "لقمان، صديق قديم". وسلم الرجل عليّ في اهتمام غير مُبرر، وقال شيئاً ما حول ساعات العمل التي لا تنتهي وحمّة ماريك، ثم أشار لها بالذهاب لتعني بصديقها، وربت على كتفها. شعرت بغصة: "ماذا يضع يده على كتفها؟".

جلسنا في آخر البار. سألتها عن رئيسها، وما يبدو أنه مغالطة، فضحكت وقالت إنه زير نساء ولا خطر منه، لأن نوابها بينه، ثم سألت في سخرية إن كنت أغار. رفعت يدي مستسلماً أن ماحيتني، فضحكت مرة أخرى ولمسكت يدي مُعيدة إياها للمنضدة. سألتني عما أتى بي لنيوبورك وقلت لها، وسألتها عما أتى بها، وقالت لي شيئاً عن مناقشات بين شركات الأدوية التي تعمل في إيجادها، وهيئات الرقابة على الأدوية، ومنظمة الصحة العالمية، وتذكرت أنّي قرأت شيئاً في جريدة الأسس عن

هذه المفاوضات. ابتسمت وقلت إنّني لم يخطر بهالي عندما قرأت عن هذا الموضوع أن يتسبب في لقائنا فابتسمت وقالت شيئاً. سألتها عن أخيلها، فقالت إنها لم تنتقل من لندن، وما زالت تذهب لعملها في أمستردام بالقطار كل يوم، لأنها لا تقوى على مغادرة مدينتها الصغيرة. قلت إنّني كنت سأغضب كثيراً لو تخلت عن مدينتها الصغيرة بعد كل ما حدث، فقالت عيناها إنها فهمت الإشارة ولا تريد الخوض في هذا الموضوع، وانتقلت للسؤال عني. حكيت لها تطورات العالم الماضي منذ نكثنا: استقر لي بنيوبورك، ومحيتي للمدينة ولسكني بروكلين، زيارة سلمي ابنتي وإعجابها الشديد بالمدينة، ورغبتها في الانتقال هنا والفراسة، وربما الحياة معي لو قرّرت أنا البقاء بنيوبورك. قالت إن هذا خيار صعب بالنسبة لفنّانة في سنّها، وسألتني عن رأيي. رفعت يدي في استسلام قائلاً إن البنت تسأل نفس الأسئلة التي أسألكها لنفسك منذ كنت في سنّها، فابتسمت موافقة.

سألتني عن تطور الحياة في مصر، وتناقشنا قليلاً في السياسة. ثم اتفعلنا للحديث عن هولندا، فقالت لي إنها انضمت للحزب الديمقراطي المسيحي، وتعمل في مشروعات لإدماج المهاجرين في المجتمع المحلي في لندن. سألتها كيف تجد الأمر فلم تُخف إحباطها، وأضافت أنها اكتشفت لأي مدى كانت ساذجة حين ظنت أن العمل السياسي تحكمه للصحة العامة. أطرفت وأنا أفكر بيني وبين نفسي: ألم أقل لك ذلك منذ سنوات طويلة؟ ومن موضوع لموضوع، تحدّثنا عن كلّ شيء: عن تفاصيل عملي وأبحاثي في السرطان وأبحاثها عن السياسة في مصر وفي أوروبا،

والهاجرين العرب والمسلمين، وللشاكل بينهم وبين الدولة وللجمع في هولندا، والسياسة في أمريكا و"الحرب على الإرهاب"، وعلاقتي بلسمي وعلاقتها المعلقة بأهلها، وعلاقة أهلها المعلقة بجدها، وتوق ماريك لأن يكون لها أولاد، ووالديها وأخيها، والبيت في ليدن، وللموسيقى، وباه، وإدوارد سعيد الذي نحبه ولم نلتقيه قط، وسنحت لي فرصة للعشاء معه منذ شهرين لكنني لم أذهب كسلًا، ونعتني بالأحقق وضحكنا، وقالت إنها ولأرب إحدى لحظات الغياب الذي يعتريني من وقت لآخر. لم أرد على الإشارة، وواصلنا الحديث عن كل شيء، إلا نحن. ثم تناول عشاء، بل قضينا الساعات الثلاث في الحديث. ثم جاء الساعي ليعلم قرب إغلاق المكان، ويقترح أن تنتقل للمطعم في الطابق الأخير إن أردنا استكمال الأسية. بدت مُتهككة، فاقترحت عليها إنهاء السهرة هنا، وأومات موافقة قائلة إنها لم تتم جيدًا منذ وصلت. صمتنا ونحن لا نعرف أين يقف كل منا بالضبط. ثم سألتني إن كانت نوبة عملي في الصباح، فقلت "لا"، قالت إن جلسة المفاوضات لن تبدأ قبل الحادية عشرة، واقترحت أن تناول طعام الإفطار سوياً فوافقتهما على الفور، واقترحت بدوري مطعمًا جديدًا بقرب منزلي في بروكلين، واتفقنا أن نلتقي أمام محطة جسر بروكلين في الثامنة. قبلتها على خدّها، وتركناها ورحلت.

حين هبطت من الكوبري في طريق صلاح سالم دقّ تليفوني المحمول. نظرت للشاشة وأنا أوصل القيادة، وتعرّفت على رقمها. أوقفت السيارة على جانب الطريق ورددت. جاء صوتها الرخيم حلزاً أكثر من العادة.

كنا في شهر نوفمبر وبقيها مطر مُبكر تكسو الطريق. السيارات المارة تلقى برذاذ ماء مُتسح على زجاج السيارة. قالت إنها لن تستطيع المجيء في عيد الميلاد، سألتها لم؟ فقالت أشياء لم أفهمها عن حاجتها لأن تكشف نفسها أكثر وتقدمها أكثر قبل أن ترتبط بأحد. استوضحتها، فقالت لي إنها مستشرح لي كل شيء في رسالة، لكنها لواتد أن نسمع صوتي، وأن تقول لي ذلك في محادثة وليس في رسالة. قلت لها أن تأتي وتقول لي ذلك وجهاً لوجه، وأن هذا أفضل عند الرب من التليفون فضحكت وقالت إن صوتي في التليفون كاف عند هذه النقطة. قالت إنها فكرت كثيراً في الموضوع، وأن هذا هو أشقّ قرار تتخذه، وأنها تعلم يقيناً أنها غيبني، وأني تولم روحها، وأنها مستعدة في هذه اللحظة أن تقترن بي وللأبد، لكنها أيضاً تعلم أن ذلك مستحيل، لأنها هي ولأني أنا، ولأننا لو حاولنا أن نتخلّى عن أنفسنا، كي نتصمّن من الحياة سوياً فسنفقد أنفسنا. "لا أنت تستطيع الاستقرار في ليدن، ولا أنا نستطيع الاستقرار في القاهرة. كلانا لديه مشروعات لا يمكنه تحقيقها في بلد غير بلده". "وظهوري سيقعد علاقتك بلسمي أكثر". "واختلاف الدين، أنا أريد أن يكون أولادي مسيحيين". اعترضت، توسّلت، استرقت قلبها وعواطفها، وحاجبت عقلها، وفعلت كل ما استطعت أن أفكر في فعله وأنا واقف على حافة صلاح سالم، والسيارات ترميني بماء مُتسخ، لكنها كانت قد حزمت أمرها. قالت: "هي هي نفس المعضلة التقليدية، حب واستحالة". وبكت، ثم أغلقت الخط. ووجدت نفسي أتف ووحيداً في طريق صلاح سالم، أكثر وحدة من أيّ وقت مضى.

التقينا عند محطة جسر بروتولين في تمام الثامنة، لم يبق أي منا جيئاً لكننا كنا متيقظين. كنا في حالة من الفرح لا يمكن تفسيرها بغير الذي جسمنا ولا نتحدث عنه، كأننا نريد أن نقتصر كل لحظة ممكنة. تناولنا إفطارنا ونحن نحتفل بالطعام: هذا زبادي، بإسلام. وهذه قهوة، تصوّر؟ هذا خبز بني بالحبوب، وهذا بيض وذلك سلمون، معقول؟ هناك أيضاً سلطة فواكه وأنواع من الجبن، وعصير برتقال، وتوت، توت حقيقي أحمر وأسود. هذا للطعم رائع. نتناول إفطارنا معاً، كأنه كل الإفطارات التي كان يمكن أن نتناولها معاً. ويتسلل إلينا شعور متزايد بالأمان يدفعنا للاقتراب من المناطق الخطرة. امتدحت للطعم ثم أضفنا في تلاعب أن هذا الإفطار يكاد يبلغ في جودته إفطارنا في ليدن، فابسمت وقلت "يكاد، لكنه يحتاج لمزيد من المران كي يبلغ هذه المرتبة" فضحكت وسألني إن كنت أذكر المعكرونة التي أعدناها سوياً في بيتنا بليدن، فأجبت أنها كانت بالبروكلي والزيتون الأسود. أبدت اندهاشها من تذكّري لهذه التفاصيل، فنظرت لها مُعَاتِباً ولم أزد.

استجمعت شجاعتها أخيراً، وسألني عن حياتي العاطفية، فبرزت كفي في لامبالاة مشيرة لعدم وجود ما يستحق الذكر. صمت، ثم سألتها عن يونانياتها، فابسمت وهزت رأسها نافية أن يكون هناك شيء. "لم تتطور الأمور أكثر من حدود المغامرة الأولى التي ذكرتها لك في رسالتي"، قالت، "لم يكن جاداً، ولم يكن بيتنا من التوافق الروحي ما يمكن البناء عليه"، ورمقتني بنظرة متسائلة عما إذا كنت قد فهمت، فأومأت وصمتا. أردت أن أسألها عن توافقنا الروحي وما إذا كان قد شفع لنا، لكنني ترددت. لا

أريد إفساد بهجة هذه اللحظات. لكنّها فسدت وحدها. بدأ يتسلل إليّ ذلك الألم الذي شقّ جنبي، حين قالت أنها لن تأتي للقاهرة، نفس الألم الذي شقّ جنبي في كل مرة نحدثنا فيها، وتكاثرت وتخاصمت حول حينا واستحاثته. كم مرة قررت قطع الاتصال بها كي أتفادي هذا الألم! والآن، بحض إرادتي ألقاها. فم كنت أفكر حين اقترحت ذلك؟ ما الذي كنت أتوقع حدوثه؟ أن تختلف هي هذه المرة؟ أن أختلف أنا؟ أن تنفك أخيراً، وتعيش في سعادة إلى الأبد؟ ما هذا الذي أفعله بنفسي؟ وكيف سأعود بعد ذلك لحياتي الخالية من الأمل؟ لماذا ينكأ المرء جراحه بيده؟ وهي، العاقلة، الأبعد نظراً والأكثر حكمة، لماذا وافقت على اللقاء؟ هل لديها بعض الأمل - مثلي - في أن تنفك، في أن ينتهي بنا الأمر سوياً؟

قاربت الساعة على العاشرة والنصف، فانبهت لضرورة الرحيل.

- متى ستتهين من عملك اليوم؟

- ليس قبل العاشرة مساءً، لكن يمكنني الإفلات منهم غداً في الخامسة عصراً.

- وهل لديك خطط بعد ذلك؟

- لا، أين سلمي؟ ألن تلتقيها غداً؟

- لا، سلمي في زيارة لوالدتي.

- دعنا نلتقي إذا.

- بكل سرور.

تألمت ذراعي ونحن خارجين من المطعم، ثم تبادلنا قُبلاً صديقة ورحلت. ووقت لحظات أرقبها حتى دخلت محطة القطار، ورحلت بدوري إلى المستشفى.

تقابلنا أول مرة في نفس المدينة، منذ سبع سنوات بالضبط، في حلقة دراسية نظمتها الجامعة. أعجبت بها منذ وقعت عيني عليها، لكنني كنت مرتبها، ومن ثم لم أسمى لاستكشاف هذا الطريق. قالت لي - فيما بعد - إنها أعجبت بي منذ لقائنا الأول وحاولت استكشاف موقعي، لكني أخيرا بتريقة غير مباشرة أتى مرتبط. لا أذكر ذلك، لكنها تؤكد أنني كنت ألتقي مكالمات تليفونية عديدة، وأني ابتسمت معذرا ذات مرة كنت أحادثها، ودق جرس تليفوني قائلا إن هذه مكالمات من "نصفي الخلو"، فأحجمت. لم يحدث بيننا سوى هذا الإعجاب الخفي، إعجاب يدرك إمكانية تطوره، لكنه يظل مؤجلا. بعد ذلك بشهور أرسلت لي صورة التقطتها للمشاركة في الحلقة الدراسية جميعا، وبعدها بعام أرسلت لها، وليقة المشاركين أخبرهم عن بحث طبي قمت به في المجال الذي كنا نبهته أثناء الحلقة الدراسية فردت متهتة، وبعد ذلك بعام كامل أرسلت توصيني على زميلة لها ستقضي عدة أسابيع بإحدى مستشفيات القاهرة، وهنا تطورت الأمور.

كنا في أواخر أغسطس عندما وصلت رسالتها التي تبنيت فيها بوصول صديقها للقاهرة، وكان الجو حارا للدرجة تدفع للباس. وفي وسط القيظ، وأنا أنضح عرقا في صالة منزلي الصغير، رددت عابثا ومتسانلا عن طبيعة علاقتهم هي وصديقها، فأخذت رسالتي على تحمل الجد ووردت قائلة إنها "مستقيمة"، وإن الكثيرين يعتقدون أنها جميل للنساء، الأمر الذي يثير أعصابها. ثم سألتني ما هو الأمر الذي دعاني للاعتقاد بأنها كذلك؟ فلم أجد بُدا من المظاهر بجديفة ما ذكرته مرزا، فقلت لها إن جدتها

في التعامل مع الرجال ربما تكون مسئولة عن هذا الانطباع. فجاء ردعا مباشرا. قالت إن ظني هذا يعني أنها حالة مفقود الأمل فيها، حيث إنها شعرت بالانجذاب نحو، وظنت أنها عبرت لي عن إعجابها. أضافت أنني كنت وقتها مشغولا بامرأة أخرى، ولكن لم يخطر على بالها أنني يمكن ألا أخطئ إعجابها، بل وإن أنظن بها الليل للنساء. ثم سألتني عما إذا كنت مازلت مشغولا بهذه المرأة الأخرى؟ هكذا. وأضافت نصف اعتذار عن أسلوبها المباشر الذي وصفته بأنه "أسلوب هولندي أصيل".

تبع هذه الرسالة "الهولندية" سبعمائة وثلاثون رسالة أخرى خلال عام، بمعدل رسالة كل يوم من كل منا. كانت هذه الرسائل بمثابة اعترافات متبادلة، عن كل شيء. كأننا قد أصابنا، لم نترك موضوعا إلا ونغدشا فيه وبهرجة تامة تكاد تكون جريحة. أخرج كل منا أسوأ غلاوفه عن نفسه وعن الآخرين، كل ما يعتقد أنه عيوبه، أحلامه التي تخلى عنها وتلك التي لا يجرؤ على التعبير عنها، ذنوبه التي اقترعها وتلك التي يتمنى لو أنه قد فعلها، كل شيء، كأننا نتجرد عمدا من كل قناع ومن كل ادعاء. قلنا لبعضنا كلاما قاسيا ولكنه صريح، وأعجبنا حالة الصراحة المتبادلة فأكملنا. 365 اعترافا من كل طرف، فتح كل منا قلبه للآخر مثلما لم يفعل من قبل، ربما لأننا لم نكن نظن أننا سنلتقي. لكننا في أثناء ذلك أدما بعضنا. لا أكاد أذكر من ذلك العام سوى هذه الأمسيات التي قضيتها أمام شاشة الكمبيوتر، قارنا الاعترافات وكاتبا لها.

ثم اقترحت عليها أن نلتقي، هكذا دون تفكير مثلما فعلت اليوم. سألتني لماذا نلتقي؟ فقلت كيلا نقضي بقية عمرنا نسال ماذا لو كنا قد

التفينا؟ وافقت، بشرط أن يكون هذا هو عنوان اللقاء، لا أكثر. اقترحت أن نلتقي في فينيسيا، فسألتها لم لا تأت للقاءة فقالت إن سفرها ليلد آخر كي تقابل رجلاً هو خطوة ضخمة لا يمكن أن تأتياها في الإطار الذي حدّدناه لأنفسنا، وهي لم تزر فينيسيا من قبل ولا أنا، ومن ثمّ يمكن أن يتم اللقاء في سياق "زيارة" كل منا لفينيسيا. ضحكت، وقلت إن هذه عملية معقّدة، وإنّي لا أمانع في السفر للقاء امرأة ومستعد لزيارتها في هولندا. ضحكت ولم تعترض، واتفقنا على أن أزورها في مدينتها الصغيرة ليدن في الأسبوع الثالث من سبتمبر. أعلنت بهولنديتها الأصلية أنّي سأنام في غرفة منفصلة أثناء زيارتي لها، ولن يحدث بيننا أي شيء. اعترضت مُستأنلاً كيف سنعرف بعضنا فعلاً إن لم نتخطى هذا الحاجز الذي يشوش الرؤية بين الرجل والمرأة؟ وقلت إنه إن أردنا معرفة حقيقة مشاعرنا، وما إذا كان ما بيننا يتخطى مجرد الانجذاب يجب علينا أن نمارس الجنس، كي نخلص من هذا الموضوع، ونرى بعدها إن كنا فعلاً نريد أن نكون معاً. ردت ساخرة إن هذه حجة رخيصة وقديمة: "لا جنس، وستنام وحلك في غرفة منفصلة". وقد كان.

أخذت الفطار من مطار أمستردام حتى ليدن. خرجت من باب القطار، فوجدت تلك الشراء البديعة تنتظري بانسامة عريضة وذراعين مفتوحتين: ترتدي شيئاً أبيض تعلوه سترّة قصيرة من الجينز الأزرق، وبسّاط أسود. شعرها أقصر مما رأيت أول مرة في نيويورك؛ لا يصل لكفّيهها. نظرنا لبعضنا طويلاً، وابتساماتنا نحن الاثنين تقول أشياء كثيرة، مثل: "ما هذا الجنون؟" "أحقاً أنت هنا؟ وأنت؟" "شئى هل سيفلح هذا

الذي نفعله؟" "هل يمكن أن تكوني أنت، فعلاً، هي؟" و"كلانا يعلم أن هذا الأمر لن ينجح، لكن لم لا نحاول؟". ثمّ خرجنا من الرصيف، وقادتنا خارج المحطة إلى تاكسي صغير انطلق كالجنون نحو منزلها، وهي تمسك بذراعي مع كل اتحناة حاذة من التاكسي. قلت لها بصوت هامس إنّي لم أكن أعلم أنهم يقودون بهذه الطريقة في هولندا، فابتسمت وهزّت رأسها نافية، وأضافت بصوت لا يكاد يُسمع: "يبدو أنك أحضرت معك سائقك الخاص". ابتسمت وهزّت رأسي، وسكتنا حتى خرجنا سالين. دفعت الحساب، وقال لها السائق الأبيض شيئاً بالهولندية، وتضاحكت معه ومضينا.

بيتها رقم 7 في شارع له اسم طويل لم أفلح في حفظه. البيت أبيض، من طابقين، في صف طويل من بيوت مشابهة تمتد بعرض ميدان مستطيل تتوسطه حديقة هادئة. أمام باب البيت مربوط للدرّاجات. نخلّ واجهة البيت نافذتان زجاجيتان شديدتا الارتفاع، يقسم كلأ منهما عود من الخشب الأبيض. فتحت الباب مرتبكة قليلاً، ودخلت خلفها وأنا أقبّل لرتباً. اقترحت أن نصد للطاقب العلوي ونضع أشياء في مكانها، ثمّ ترهني للمزق، فتبعتها. صعدنا سلماً خشبياً ضيقاً رأيت أعلاه صورة لقصيدة بالإنجليزية لم أترين تفاصيلها، وصوراً أخرى على الحائط يبدو أنها لعائلتها. في أعلى السلم وجدت ثلاث غرف. قادتنى لواحدة منهم، وقالت: "هذه غرفتك"، وابتسمت وهي تضغط على ضمير الملكية. ابتسمت ونظرت حولي. قالت إنها غرفة بروتستانتية، ليس فيها شيء زائد أو زخرف: فراش، وخزانة ملابس، ومنضدة صغيرة. أشارت

للحمام بجوار الغرفة وقالت إننا مشتركة في استعماله، فرددت مبسماً بالآ اعتراض لدي على المشاركة. تورّد خدّاه وهي تبسم. أرّنتي الغرفة الأخرى التي اتضح أنها غرفة للفسيل، ثمّ فتحت باب الغرفة الثالثة قائلة إن هذه غرفتها هي. نظرت عبر الباب فلم أجِد فراشاً، فابتمت قائلة إن الفراش سيصل في الغد، وستحتاج مساعدتي في نقله. سألتها أين كانت تنام فقالت في الفراش الذي أصبح الآن في غرفتي. "أي أني سأنام في فراشك! كنت أظن أننا اتفقا على عدم السماح بذلك!" لكنّني هازئة من نظري وقالت لي أن أسترخ وأغير ملابسني إن شئت، وأنا يمكن أن نخرج للعشاء بعد نصف ساعة، أو نعدّ شيئاً في المنزل.

توقفت وأنا في طريقي للطابق الأسفل وقرأت القصيدة غمكي عن رجل يبحث عن الفردوس الأرضي، وظلّ يبحث عنه ثمّ مات عندما بلغه، ساعته أدرك أن الفردوس أو الجحيم إنما يكونان في الرحلة نفسها وليس في اللتهي. هبطت السلم الخشبي الذي يترّع جديته، فوجدتها جالسة في أريكة وثيرة، مكسوة بكان أبيض مطفي اللون تقرأ الصحف. أنزلت صفحة الجريدة لأسفل عندما رأيتني، وسألتني إن كنت قد ارتفعت. أجبت بلهامة، فسألتني إن كنت أريد العشاء بالخارج أم أريد أن نطهو؟ خفق قلبي. لماذا يشعر الرجل بالإطراء عندما نطهو له امرأة؟ لماذا يشعر وكأن هذا عمل حميم؟ أهديت اندهاشاً مصطنعاً من أنها تستطيع الطهو، وقلت إنّي أفضّل تذوق طعامها هي، فضحكت وحزّرتني من النتيجة وقامت. أخذتني لأرى بقية البيت: صالة من جزئين بها أرائك بجانب النافذتين المظلتين على الشارع، والذي تحجبه ستائر من الكتان تهبط من أعلى

لأسفل، ثمّ منضدة صغيرة وأربعة مقاعد في الجزء الآخر، وخلفه مطبخ مفتوح أبيض الجدران، ومن خلفه تبدو حديقة صغيرة في الفناء الخلفي للمنزل. باب معظمه زجاج يفصل المطبخ عن الفناء، وتعلوه ستائر من الكتان أيضاً. خضرة الحديقة الزاهية تبدو واضحة من خلف الستائر وباب الفناء. المطبخ بسيط وأنيق. سحبت مقعداً وجلست أرقبها وأحدثتها، وهي تُعدّ الطعام. أخبرتني أننا سنأكل معكرونة بالبروكلي والزيتون، وسألتني إن كنت لا أحبّ أبيضها، وبدأت في إعداد الطعام، وبدأنا في الحكي.

حكيت لها عشاءاً مرّ بي منذ التقينا في الحلقة الدراسية. لم يكن هناك جديد لم أذكره في رسالتي، لكنّها أرادت الاستماع منّي مباشرة، ثمّ أخذت تقاطعني بأسئلة تستوضح بعض النقاط في كل قصة قصصتها. ثمّ أخذت تسألني عن أفكار أخرى قلتها:

— ماذا كنت تقصد حين قلت إنك لا تحب عملك؟ هل هو الطب الذي لا تحبه، أم المستشفى الذي تعمل فيها؟ وكيف تقدر أنك بارع في هذا العمل لهذا الدرجة؟ هل يمكن أن تبرع لهذه الدرجة في شيء، لا تحبه؟ ولماذا وصلت هذا العمل كلّ هذه السنوات إذن؟ هل تظن أن للمشكلة في نوع العمل فعلاً، أم أنك غير راضٍ لأسباب أخرى، ربما لا تراها أو لا تريد أن تراها؟

....

— لا، أنا لست محبّتك النفسية، فقط أريد أن أفهم. لأنّ كلماتك محسّنة، وأشعر أنّي أفهم الروح التي تحرك قلبك، لكن هذه نقاط غمضت عليّ.

-الوحش!

ضحكت بصوت عال:

-لو أنك الوحش قل له إني في الغرفة المجاورة، وسينصرف خوفاً.  
تبادلنا قُبلاً صديقه، وخلد كل منا للنوم في غرفته. ولم يأت الوحش.

استيقظت في الصباح على صوت موسيقى "باخ" الآتية من الطابق الأسفل. هبطت السلم ووجدتها حيث كانت جالسة بالأسفل، مستغرقة في الأريكة الكاثية بين الجرائد. رفعت رأسها وابتسمت: "هل أبغضتك للموسيقى؟" أشرت برأسي نائفاً، فأضافت: "لا أدري لم؟ ولكنني أحب الاستماع للموسيقى الكلاسيكية في الصباح بصوت مرتفع جداً". قلت لا اعتراض لدي طالما كانت مقطوعات للبيانو وليست للألات النحاسية، فضحكت وطمأنتني. كانت ترتدي بلوزة فضية سوداء، وبنطالاً أسود، وشعرها الأشقر يبدو أكثر صفرة مما هو عادة، أو لعنها الشمس التي كانت تسيل من النافذة وتنعكس على شعرها. مشيت للباب المفتوح للحديقة فقالت إن هناك قهوة ساخنة في المطبخ. صبت لنفسي كوباً، وخرجت به للحديقة. الهواء مُتْعَش مع لسعة برد خفيفة حين تختفي الشمس. استنشقت الهواء وشعرت بأن أكسجيناً جديداً يدخل صدري ويوقظني. فكرت في نقاء الهواء هنا، وفي رعتي المسكيتين اللتين تحتلان تلوث هواء القاهرة منذ سنوات. ما الذي يُجبرني على ذلك؟ سألت نفسي للمرة الأولى: ما الذي يدفعني للبقاء بالقاهرة رغم كراهيتي لما آلت إليه؟ كيف أفعل هذا بنفسني؟ كيف أعيش في مكانٍ أعلم أنه يأكل مني جزءاً كل يوم،

...

-هل تفضل الكثير من الزيتون في المعكرونة؟ هل تزرعون الزيتون في مصر، أم أنه يُزرع فقط في فلسطين؟

...

واصلنا المحكي، وصبت لنا كأسين من البورتو الذي قالت إنه شرابها المفضل. لم أكن قد تذوقته من قبل، فأنا أفضل البيذ، لكنني أحبته من يديها. قاربت الساعة على منتصف الليل عندما اقترحت أن نخلد للنوم. صعدت للطابق الأعلى وغمرت ملابسني واغتسلت، في حين ذهبت هي لجمع بعض الأغراض في المطبخ، والتأكد من إغلاق النوافذ. غير ذلك سمعت صوتها وهي تصعد السلم ثم صوت المياه يتدفق في الحمام. بعد دقائق خرجت، فخرجت وحيتها. كنت أرتمي ملابس نوم رمادية، ووجدتها ترتدي ملابس نوم مشابهة. ضحكنا وقلنا إننا نشبه فريقاً لكرة القدم: الفريق الرمادي! ثم قلنا شيئاً عن النوم والصباح والإفطار، وخطئة الغد، وطمأنينا لبعضنا نوماً هادئاً، وذهبت لغرفتها. عند الباب استوقفتها:

-هل ستركتني أنام في تلك الغرفة فعلاً؟

-طبعاً!

-لكنني أخاف من النوم وحدي!

-لا تخف، الدار آمنة.

-وأخاف من الظلام.

-هناك مصباح بجوار الفراش.

-طيب ماذا أفعل لو هاجمني الوحش؟



من بدني ومن روحي؟ هل هذه ضريبة ما يجب أن أدفعها؟ ولماذا يجب أن أدفعها؟ لماذا لا أعيش هنا، في هذه الخديقة؟ أطلت برأسها من الباب: "إنفطار أبيها السيد؟" هززت رأسي موافقاً، وعدت للداخل.

علينا الذهاب وإحضار فراشها الجديد. سرنا في شوارع ليدن اللطيفة حتى وصلنا الشجر، وجدت فراشها قد وصل من المخازن، لكن السيارة التي يفترض أن تحمله للمنزل لن تأتي قبل الغد، بما يعني أنها ستقضي ليلة أخرى بدون فراش. تطلعت وأقمتها بأن تحمل الفراش للمنزل. لم تكن المسافة بعيدة، وكان الفراش مفككاً ومرصوفاً بعناية في لفة محكمة. حملناه وسرنا عبر شوارع ليدن، ونحن غارقون في الضحك من منظرنا. - هل تعلمين أن الفلاحين في مصر يحملون فراش العروسين على عربة، ويطوفون به شوارع القرية قبل أن تذهب لمنزلها ليلة الدخلة؟ - لا، لم أكن أعلم، ونحن لسنا في الريف.

وصلنا، وتمكنا بعد لأي من إيصال الفراش الثقيل لغرفتها، ثم نصبناه سوياً، ووضعنا عليه المرتبة التي نامت عليها بالأمس. ألفت بنفسها على الفراش تختيره، ووقفت أرقبها في ابتسامة صامتة. انتهت لظنرتي، فارتبكت قليلاً وقامت. وخرجنا نتجول في شوارع المدينة نصف النائمة. أرثني المنتزه الذي حدثتني عنه في رسالتها، وقالت إن الناس أصبحوا يتجنبونه، لكنها تذهب إليه كل يوم كيلا يتم التخلي عنه نهائياً للسكاري ومتعاطلي المخدرات. أرثني الشوارع التجارية الممتلئة بالشباب والشوارع الحزينة التي يقطنها الفقراء، ولهاجرون، ثم مررنا من عند القناة التي تعبر المدينة أكثر من مرة ووقفنا عند الجسر الصغير فوقها، ثم سرنا في شوارع

أخرى بدت على صفيها مياي قديمة، كنيسة، ومجلس المدينة، ودار الأوبرا، وللحكمة. وحدثتني عن كل مبنى وتاريخه، ثم عدنا للمنزل.

- قلت إن علاقتك بابتك سلسي متوترة، وأنها لا تنظر إليك حين تحدثك، وتظل صامتة معظم الوقت. ما أدراك إن الذنب ليس ذنبك؟ أعلم أنك فعلت كل ما في وسعك لكنها هي لا تعلم ذلك. وإذا كانت لا تحبك مثلما تشك، فمن تظن للسئول عن هذا؟

.... -

- كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً: إنها في الخامسة عشرة، كيف يمكن ألا يكون الخطأ خطأك؟ إنها طفلة، وغالباً غاضبة منك ومن أمها ومن العالم كله. من واجبك أنت أن تكسبها وتكسب حبها! تقول إن أمها متعصبة ومتوترة، ألا تظن أن سلسي ترى ذلك وتكرهه فيها، وتكره أنك تركتها وحدها مع الأم المتوترة، لو أنك أنت الذي تسببت في جنون أمها؟

.... -

- لا بد أن هذا أمر صعب عليها.

.... -

- لكن لماذا تستسلم أنت لتعنت الأم؟

- ليلى فقدت عقلها ولم يعد للحوار معها فائدة. بدأت بالتصوف ثم انتهى بها الأمر لجنون مطبق. لا أستطيع إجبارها على التعقل، لا أحد يستطيع. طلبت مساعدة أبيها، وهو أمر صعب على نفسي، لكنه فشل وأعلن بأنه من التفاهم معها.

- وكيف ستشعر سلمي إن وجدت امرأة أخرى تظهر في حياتك؟  
هزرت كفي دون أن أجب. ففُتِرَت بحرى الحديث إلى أبيها، وقالت  
إن أخاها يعيش في المدينة ذاتها، وبمكته أن يتناول معنا طعام الغداء. وافقت  
فانصلت به فوراً، ورتبت اللقاء. دهشت منها ومن نفسي، سأقابل جزءاً  
من عائلتها، بعد يوم من لقائنا الأول الحقيقي. وكلاهما يرغب في ذلك. هل  
نحن مجانين أم ماذا؟

عندما وصلت للمستشفى علمت بخبر وفاة "إدوارد سعيد". لم أكن قد  
قابلته، لكنني كنت أحبه كأنه أبي، وأحياناً كأنه أنا. وكانت ماريك تدعي  
أن بيتنا شيئاً، شكلاً وموضوعاً، وليسب ما تركت نفسي أنجرف في هذا  
الحب المجهول من طرف واحد لشخص لم يسمع عني ولو عرضاً. اليوم  
مات "إدوارد سعيد"، وشعرت بموته وكأنه فقد شخصي. دقّ تليفوني  
ووجدت ماريك على الجانب الآخر من الخط:

- لقمان: سمعت عمّا حدث لسعيد؟

- نعم.

- أنا أسفة جداً.

- وأنا أيضاً.

- هل ستذهب للجنائزة؟

- لا أدري. بأيّ صفة أذهب؟ يقال إن المراسم ستقتصر على العائلة.

- تذهب بصفته أبك الروحي.

- حسناً، لكنّه لا يعرف ذلك!

- لا يهم أن يعرف، المهم أن تذهب، ولا اعتقد أنه كان سيمانع لو  
علم. سأتي معك. لنذهب وندع أهله يظردونا.

- ستأتين؟ فعلاً؟ لكن المراسم تبدأ قبل الخامسة؟

- لا اعتقد أنهم سيغفون بدوني هنا: هذه مقاضات لانهاية فيما  
يبدو. سأحصل على تفاصيل موقع الكنيسة. لاقتي بعد ساعة عند محطة  
ستراول بارك في الجادة الخامسة، وسنذهب سوياً.

أيّ معجزة تلك التي جعلتني أشارك في مراسم وداع الرجل الذي  
نصبت أبا روحياً لي ولم ألتقيه في حياتي، وتناطّ ذراعي وتواسيني المرأة  
التي نصبتها زوجة روحية لي وأنا أعلم أنها لن تكون لي؟ أجلس في أحد  
صفوف الكنيسة بين أقارب المتوفي وأصدقائه ومعارفه ومتعلّقيه، أستمع  
إلى رثاء محبيه ثم لهم حقّ الحديث عنه، وبارينوبوم يعزف موسيقى باخ،  
وماريك تمسك بفراعي وترت علي، وأبواب قلبي تنهار، والدموع تأتي  
بلا قيود، أرتجف من البكاء، فضضني ماريك وتدفنني فأهدأ قليلاً، ودموعي  
تسيل دون أن أعرف إن كنت أبكي الميت أم الحي أم المستحيل.

توجهنا لمحطة ليدن. في شارع المحطة أشارت إلى مطعم يبيع وجبات  
مصرية، وأمامه بالضبط مطعم آخر يبيع وجبات إسرائيلية، وكلاهما يضع  
صور سندوتشات فلافل وشاورمة. ضحكنا وقالت إن الطعمين لم يتقاتلا  
بعد، ربما بسبب معاهدة السلام. أخذنا القطار إلى لاهاي. جلسنا صامتين  
أرغب الحقول الخضراء وقطعان المواشي الهائلة. وصلنا لاهاي وبدأنا جولتنا  
الصباحية بمحكمة العدل الدولية. كان الجو بارداً، وقفنا لتأخذ صورة لنا

أمام المحكمة: وضعت الكاميرا على نظام "التصوير الذاتي"، وجرت لتقف بجانبني وهي ممسكة بمعطفها الصوف الأسود. اقترعنا من بعضنا، فلمسها كتفي، ثم وضعت يدي على كتفها متحرّجا. لم أبسط يدي عليه، وإنما كورتها وتركتها بالكاد تلامس كتفها. ضحكنا - ربما من ارتباكنا، ونكت عذبة الكاميرا. قمنا بجولة كاملة في لاهاي الهادئة، حتى وصلنا للميدان الرئيسي الذي ينتشر فيه الحمام والسياح القليلون الموجودون بالعاصمة، ووجدنا رجلاً يقلد مثلاً "توت عنخ آمون" فطلبت أن تنتقط صورة لي معه. تناولنا طعام الغداء في مقهى يأكل أحياء للمدينة حركة. مدّ مناضله في الساحة الممتدة أمامه بين الأشجار، ونحت شمسيات كبيرة. أعمدة الإضاءة العمومية تبعث بضوء خافت يبدو غريباً في الظهيرة للمدينة بالغيوم، وهناك أربعة أو خمسة زبائن فقط في الساحة كلها. جاء النادل وتحدّث بالهولندية، وماريك تومس ويقول "يا، يا، برما". وجه الرجل الحديث لي، وهو يكمل ما خُصّت أنه قائمة الوجبات الخاصة، وأنا أومئ وأرّده "يا، يا، برما" وهي تكلم ضحكها حتى ذهب. قالت لي كنت أرد في المواضيع السليمة حتى شئت أني أفهم ما يقول. طلبنا طعاماً وعدنا للحديث. حكّت لي قصص المهاجرين المسلمين بهولندا وأنواعهم، من القلة القليلة التي تندمج في المجتمع إلى هؤلاء الذين يرددون ولا تسمح لهم الظروف أو المجتمع بذلك، وهؤلاء الذين لا يرددون الاندماج بل ويحاولون تغيير معالِم المجتمع كي تنفك وعاداتهم.

تناقشنا بعض الوقت في معنى الاندماج، وقالت إن من حق الأقلية المهاجرة أن تطالب المجتمع المضيف بالتأقلم مع عاداتها، وأن يفسح لهذه

العادات صدىً، لكن هذا الحق يُثير ضغينة هؤلاء الذين لا يرغبون في تغيير عاداتهم، خاصة حين تكون الأقلية المطالبة بهذا الحق نفسها غير رغبة في التأقلم مع المجتمع المضيف على الإطلاق. تحدّثنا عن العمل التطوعي الذي تقوم به في أحد المراكز المتخصصة في مساعدة المهاجرين على التعامل مع النظام الصحي العنقد. استأذنت بالمناظرة وأجرت عدة مكالمات تتعلق بهذا المركز، وسمعتها ترّد برما وأخذت أقبلها، فزجرتني وواصلت الحديث. ثم قمنا وذهبنا للمشّي قليلاً بالمتزة الرئيسي، وضحكنا من قصة متزة ليدن الذي تعرّض على السير فيه كي تحافظ على طابعه اللدن. سألتني عن انطباعي، وقلت إن لاهاي تبدو كمدينة هجرها أهلها، على الأقل مقارنة بالقاهرة. ردت بأنها هي التي تعيش في ليدن تجمد لاهاي هادئة ومحافظة أكثر من اللازم. سرنا وجلسنا وسرنا حتى المساء ونحن نتحدث ونصمت، دون أن يكون الصمت ثقیلاً بيننا؛ نصمت، وأشعر أننا مازلنا متصلين - كأننا نتحدث لكن بلغة صامتة.

في الثامنة وصلنا أمام كنيسة قديمة قالت إنها تذهب إليها في بعض الأوقات عندما تكون في لاهاي. انجسمت وأنا أمز رأسي في باس عابت:

- صحيح، مازلت لم تفسري لي قصة الكنيسة هذه؟

- بلى، لقد فسرتها حوالي عشر مرات في الرسائل.

- لقد شرحتها عشر مرات بالعزيمتي، لكنك لم تفسرها!

- حسناً، سأحاول تفسيرها بعد غد. فقدنا سنذهب لاسترداد، ولا يصح الحديث عن الدين في هذه المدينة. بعد غد سنذهب لشاطئه قريب لثري المحيط. قلت إنك لم تذهب لشاطئه المحيط من قبل. سأأخذك

لهناك، وساعتها لن يكون لدينا شيء نفعله سوى النقاش.

- طيب، لبعد غد إذا.

- الآن هناك حفل لعازف التشيللو الشهير بيتر وسيلي في هذه الكنيسة:

سيحرف مقطوعات لصديقك المفضل "باخ" لمدة ثلاث ساعات: هل تريد

الحضور أم أن لديك مشكلة في الدخول للكنيسة؟

- هل محرجي؟ ولم سيكون لدي مشكلة؟

- لا أعرف، واضح أن لديك شيء ضد الكنائس؟ يعني ربما باعتبارك

نشأت كمسلم وكذا.

- ومعلقة هذا بذلك؟ سؤالي لك عن مسألة الإيمان برمتها، ليست

عن الدين الذي تتبعه.

- يعني ندخل؟

- طلالا لن أضطر للصلاة!

لم يكن أحد مضطرب للصلاة، فهذا البيت وسيلي من شغاف أرواح

الجمهور حتى دمت عيوننا من التأثر. ومازيت سعيدة كقطلة، وتختلس

النظر لي من وقت لآخر، وعلى وجهها ابتسامة عريضة. سعيدة هي لأننا

معاً، ولأننا نشعر بهذه الراحة الكاملة بجوار أحدنا الآخر، أم سعيدة

لأنها تراني جالسا في قلب الكنيسة، وكانت تظن أن ذلك سبب

مشكلة؟ قلت لنفسه ربما هي سعيدة لأننا نشعر بالراحة معاً، حتى

ونحن في قلب عالمها هي. كنا جالسين في الصف قبل الأخير، ملتصقين،

والجمهور القليل موزع على الصفوف الخشبية، يختلس بعضهم النظر

نحونا من حين لآخر. أعرف هذه الحالة، أنا الوحيد صاحب البشرة

الداكنة في الكنيسة، ولا بد للجمهور الأبيض أن يتأمل هذا الغريب.

ماذا يفعل هنا؟ هل يتعلم كي يرتقي ويصبح مثلاً؟ هل هو يا ترى دليل

على أن هناك أمل في هذه الشعوب؟ أم أنه يتظاهر كي يخدع هذه الشفراء

للسكينة؟ أعرف هذه الحالة وأكرهها، لا أريد أن أكون دليلاً أو عينة أو

حتى نموذجاً. لكنني الليلة لا آبه، أبتسم للجمهور الفضولي، أملاً ناظري

من ماريك الجميلة، وأغرق مع الموسيقى التي تغمر جنبات الكنيسة الحالية

من الخزرف. وتصلني روحي، إن استطاعت، من أجل باخ.

خرجنا من كنيسة الموسيقى في الحادية عشرة، وقررنا أن الوقت قد

تأخر على العشاء، فعدنا للمنزل وتناولنا بعض الفاكهة، وقمنا بطقسنا

للمسائي حول الحمام المشترك، والفلبات الصديقة، ثم ذهب كل منا للنوم

في غرفته.

في العاشرة تماماً رأيت وجهها المشرق يظهر روياً روياً على سلم

عملة جسر بروكلين وشعرها الأصفر القصير يتهاذى حول وجهها مع

صعودها للسلم نحو الشارع. رأيته وابتسمت ابتسامتها العريضة الحاتية.

عند الدرجة الأخيرة من السلم مددت لها يدي، فأمسكتها واقتربت مني

فاحتضنتها. استسلمت لحضني. طال عناننا والتصقنا أكثر. جسمي كله

يمسك بها. لا يريد أن يفلتها. لم أكن أعرف أن أجزاء جسمي يمكن أن

يكون لكل منها إرادة مستقلة. لم أكن أعرف أن أعضائي يمكن أن تشنق،

وأن تشمر بالتصاقها بأحد، وأن تهدأ هكذا في حضنه. كان كل جزء مني

يطالبني بالآدع هذه المرة بتعدد. لا أريد تركها، وهي لا تتركني. تراجعنا

برأسنا للوداء قليلا كي نرى بعضنا أفضل، لكننا ظلنا ملتصقين. احمر وجهها قليلا من الحجل، لكننا لم نتعد.

عدنا ودقنا وجهينا في حضن بعضنا، ثم نظرنا لبعضنا مرة أخرى. عيناه حمرأتان هذه المرة، من الدمع، وفي عيني مثل دمعها، وفي قلبي ألم مقيم. التصقنا، لا تدري ماذا نفعل بنفسينا. بعد وقت، لا أعلم كم، تراجعنا قليلا وإن ظلنا ممسكين بعضنا البعض. وضعت ذراعي حول كتفها، وأمسكت هي بذراعي الأخرى، بلعت ربيقي، وسرنا. تجولنا على شاطئ النهر، وبدت مباني نيويورك من الناحية الأخرى. أناس من كل لون وصنف يجلسون على الأرائك الحديدية المنتشرة في المكان، يباهيون يلتقطون صورًا لواجهة نيويورك البحرية كما تبدو من هنا، وآخرون يركضون أو يتنزهون وكلابهم. جلسنا، وسرنا، والنقطنا الصور لبعض الأزواج المحتاجين ليد ثلاثة.

"لا مفر. أنا أحبك"، قلت. "وأنا أحبك"، قالت. "أنت توأم روحي"، قلنا. وكل هذه السنوات لم نمر، وكل هذا العذاب لم يكن، أو لا بهم. غفرت لك ما لقيته على يديك، أنا الذي لا يغفر. واعتذرت هي عن الألم الذي سببه، وقلت "لا داعي"، فقد كان الحق معها. ربما أعسى الحب بصري عن الصعوبات، لكنه لم يمنعهما هي من رؤيتها، وهذا لا يجعل الخطأ خطأها. اعترف بأنها كانت مُحَقَّقة، وبأن حيننا كان مُستحيل التحقق. لا أحد منا يمكنه أن يصبح شخصًا آخر. حب واستحالة مثلما قالت. أومات، وسرنا نحو الشقة التي أنقطن فيها. صعدت معي لثراها، هي التي لم تر أبدًا مكانًا أعيش فيه. واتسمت وهي تقول إن المكان يشبهني، واعتزضت

أني لست بهذه الفوضى، فقالت "على العكس". شرنا سويا كئسا من البورتو، وقلت كاذبًا إلي أشره منذ رحلتي إلى ليدن منذ عشر سنوات. ضحككت وقالت إنها أقلمت عنه منذ زمن. غادرنا المنزل وتجولنا في بروكلين طيلة النهار. لا نعرف كيف ترك بعضنا، ولا كيف نظل سويا. ثم قالت ربما، بعد سنوات أخرى، ربما في نهاية طريقنا أو قبلها بقليل يمكننا أن نكون سويا. ذكرتني بأننا فكرنا ذات مرة أن نزور فينيسيا سويا، وربما يمكننا أن نتنقل للعيش هناك، هي وأنا، في يوم ما. واصطلحنا على أن تكون فينيسيا هي مكاننا المشترك، الحقيقي أو الكيالي، المدينة التي يمكن فيها للحب أن يقهر المستحيل مثلما تقول القصص، المكان الذي لا يكون فيه للواقع المقدد وزن، وأن نقضي آخر أيامنا هناك. اتفقنا على فينيسيا، ثم سرت معنا إلى محطة جسر بروكلين حتى تلتحق بالقطار الأخير، وتعاقنا طويلا، ثم افترقنا على أن نلتقي في اليوم التالي عند سنترال بارك.

أخذتني ماريك من يدي، ولقت بي أمستردام حيًا حيًا. استأجرنا دراجتين لتنتقل بهما، واكتشفت عندها الفرق بين أن تعرف ركوب الدراجات، وبين أن تقود دراجة في مدينة بها الآلاف من قائدي الدراجات. لكنني صمدت ونجحت في إتمام الجولة دون إصابات. كان الجو بارداً أكثر من الأسس، ولم أرَ تد ملابس ملائمة. وهي تضحك من ارتجافني من البرد أحياناً، وتبقيني في أماكن مغلفة حتى أتدفاً أحياناً أخرى. أخذنا مركباً له سقف من الزجاج تجول بنا في القنوات التي تربط المدينة ببعضها. ومشينا كثيراً، يتخلل سيرنا توقفات عديدة للطعام، أو الدفء

والقهوة. وفي كل ذلك، وساعة بعد ساعة، كانت الحقيقة تتجلى أكثر لكينا.

هذه توأم روحي، وما كنت أظن يوماً أن أقول كلمة كهذه، وسأخجل لو سمعت نفسي أقولها، لكنها الحقيقة. هذا شعوري، وشعورها، وكل شيء فينا يقول ذلك بلا مواربة. تصبح أكثر ارتباطاً مع بعضنا، كأننا عازمان يعرفان كيف يوائمان نفسيهما سوياً دون تدريب. لم أخطئ لهذا، لم أتوقع هذا، كنت أأمل في أن ينجح الأمر، لكن ليس بهذه الدرجة، وليس بهذه السرعة. أنا أحب ماريك. دفاعاً عن نفسي، يمكن إن أقول أن ذلك حدث على مدار العام، عبر الرسائل وكل هذا، لكنني لست واثقاً من صلاية هذا الدفاع. لا أعرف، حقيقة لا أعرف، لكن شيئاً غير مألوف حدث لي خلال هذه الأيام القليلة، كأن باباً انفتح داخلي ودخلت هي منه وملائت المكان. أو كأنها مدت يدها داخل روحي فارتبطت بها، وسارت روحها عبر أيدينا حتى سكنتني.

أنظر إليها وأعرف أنني لست وحدي. سعيدة هي، مضطربة بعض الشيء، لكنها سعيدة. لا تكاد اجسامتها العريضة تُدرك شفتيها. ولديها غمازتان ملقحفتان لم أرهما من قبل، لا يكادان يختفيان من فرط الابتسام. احمر أنفها وشفاتها أكثر، وتضيق عينها وتدفع أحياناً. ثم تغلق، وترجع بعيداً، وأخمن فيم تفكر، ثم تعود إلي مرة أخرى. أعرف أنها مثلي. لم أكن واثقاً من شعور أحد مثلياً أنا الآن، ليس شيئاً أو خبرة، لكنني أعرف. أنظر إليها وأعرف، لا أحتاج أن تقول شيئاً.

نلت على كفي في القطار، وفي عملة ليدن احتضنتها، وسرنا لبيتها

وأنا أطوقها بذراعي، وفي صالة البيت تعانقنا بحق، وعلى الأريكة الكناية قبلتها وقبلتي، وظللتنا على الأريكة حتى بدأ الضوء يتسلل من النافذة الكبيرة فصعدنا لغرفتها، ولم نستيقظ إلا متأخرًا في اليوم التالي.

وجدتها مستيقظة عندما فتحت عيني، مُستلقية في مكانها بالفراش لكنها مستيقظة، وتُنظر إليّ بعين. ابتسمت، فابتسمت. خشيت أن تكون مرتبكة، أو نائمة، أو غاب ظنها. لكن ابتسامتها اتسعت، ومدت يدها ومسدت وجهي. قبلت يدها، واحتضنتها. تتخلل أصابعي شعرها القصير وأعلى رقبتها، وهي تستكين برأسها على صدري. قلت:

- صباح طيب.

- قل يوماً طيباً الساعة العاشرة والنصف. لم استيقظ متأخرة هكذا منذ سنين.

- اتضح أن الفراش جيد، فيما أرى، وأحسناً التركيب أيضاً!

قلت متظارفاً، فلكرتني:

- هيا، يجب أن نهض.

نهضت، رائحة الحسن، وذهبت نحو الحمام. غفوت مرة أخرى، ثم شعرت بحركتها في الغرفة. نظرت إلي في لوم:

- سأذهب لإعداد القهوة، وسيشرفني مشاركتك لي في احسانها.

قفزت من الفراش بمجرد خروجها. اغتسلت وارتديت ملابس، وعبّيت الدرج الخشبي الذي صرت أحبه، ولحقت بها عند المتضدة بجوار الخديفة. قرنا سريعاً أن نؤجل زيارة الشاطيء، فالجو ملبد، ويبدو أنها ستمطر، كما أن الوقت تأخر، والتهار قصير في كل الأحوال.

أفطرنا بشيء خفيف وغرجنّا. ذهبتا لمحل يبيع تسجيلات موسيقية، حيث اشترت بعض الشرائط التي كنت أبحث عنها منذ فترة، وأهدتني هي مجموعة لمغنية السوبرانو الهولندية الأولى، وبمجموعة أخرى لموسيقى "باخ". ذهبتا بعد ذلك في جولة قصيرة في المدينة، نخللها توقّف للقهوة وتقاشات أخرى. تحدثنا عن عملنا، وقالت إنها تريد أن تتركه وأن تعمل شيئاً له فائدة عامة أكبر، مثل العمل في مستشفى عام، أو على إصلاح نظام التأمين الصحي. انهمست ساخراً:

- مستشفى عام؟ أه لو ربّني المستشفى التي أعمل بها في القاهرة! لو كانت مسلخاً لما اختلفت كثيرًا!

- لهذا الحد؟ لماذا؟

- لماذا؟ لأننا بلا أسرة في أحوال كثيرة، وبلا أدوية في أحوال أكثر، وبلا أطباء مؤهلين دأبنا، ولدينا سبل لا ينقطع من المرضى لا يمكن لنا بأي حال أن نراعهم رعايةً لائقة، فيفعل كل منا ما يشاء. هناك المخلص الذي يحاول دائماً فعل الخير، لكنه مضطرّ بمحكم الظروف لأن يختار قلة من المرضى، ليتلقوا رعاية حقيقية في حين يتخلى عن البقية، وهناك من يحاول أن يكون عادلاً، فيوزع الرعاية المحدودة المتاحة على الجميع بالتساوي، حتى لو أدى ذلك إلى تفاقم مرضهم جميعاً، وهناك من لا يابه ويحاول بذل أقل جهد ممكن لإزاء هذا السبيل العارم من المرضى، حتى لو ماتوا جميعاً، وهناك طلبة الامتياز الذين يجدون في هؤلاء المرضى فرصة لا تموض؛ لتجربة خيرتهم المحدودة فيهم، خاصة وأنّ نقص عدد الأطباء المؤهلين يجعلهم أقلّ وقوعاً تحت الرقابة والإشراف، وبالتالي أكثر

استقلالاً. يتعلّمون فيهم بحق، بطريق التجربة والخطأ!

- هذا شيء مربع!

- نعم.

- وكيف تعيش مع هذا الوضع؟ كم مضى عليك هناك؟

- سبع سنوات.

قلتها وصمت. اغرورقت عيناي بالدموع واحتضنتني. قلت لها ألا تأبه، وإنني تعودت وليس في الأمر شيئاً يستحق الدراما، لكنّها ظلت تحتضني، وتقول إن هذا شيء مربع، وتسال كيف احتملت كلّ هذه السنوات؟ ثمّ لا أعرف ما الذي جرى بالضبط بعد ذلك، لكنني شعرت شيئاً فشيئاً باختناق في حلقي، وبذات أبكي في صمت، ثمّ انقلب البكاء لنشيج مسموع، وهي تحتضني أكثر. كنا جالسين على سور حجري قديم بجوار جسر صغير على قناة ريفية، وأنا محتبي في حضنها، وجسمي يتنفض من حين لآخر. لا أذكر كم من الوقت مرّ علينا حتى هدأت. ظللت صامتاً برهة، ثمّ قلت إنها قد تضطرّ للعودة للمنزل لتغير سرتها اللبلة، وضحككت، وضحككت وقتنتني، ثمّ تحرّكتا نحو البيت.

سألتني لم أحبس عواطفني داخلي لهذا الحد؟ وكيف لا أريد أن أكره عملي مع كلّ ما أراه فيه؟ حاولت أن أشرح لها.

- ليس هناك من حل آخر، لو تركت الأمر لعواطفني لما عشت طويلاً في مصر. كلّ شيء يجري بنفس الطريقة تقريباً، بأشكال مختلفة ولكنّ بنفس النطق. في المستشفى هناك أناس يموتون: ربّما ترين نتيجة الإهمال مباشرة أمام عينيك، لكن ماذا عن أشكال الإهمال الأخرى التي تقتل

الآلاف ولا تربيتها بعينيك؟ ماذا تفعلين بهذا إن فهمته وأدركته؟

هزّت رأسها في السّ، وقالت:

- لا أعرف. لا أستطيع أن أعرف. اقرأ عن هذه الأمور. اسمعك،  
واسمع الآخرين يتحدثون، لكنّها تبدو لي أكبر من قدرة البشر العاديين  
على الاحتمال. أنت لا تعرف لأي مدى أحترم هؤلاء الذين يعيشون  
في هذه الظروف. لا أرثي لهم، بل أحترمهم وأراهم اقوياء وفوق البشر  
بشكل من الأشكال. أتعرف أول ما جذبني إليك؟ هذا المزيج من إدراكك  
للعناسة الإنسانية والتفاوت في نفس الوقت. حتى طريقتك في الفكاهة،  
تجمع بين إحساس حاد ومرهف بعمق للعناسة الإنسانية، وفي نفس الوقت  
التفاوت والرغبة في الحياة. لا أدري كيف تفعل هذا، ولا أظنّي قادرة على  
فعله.

- الأمر بسيط، ولا عظيمة فيه على الإطلاق. أنت تكبرين وتجدين  
نفسك تحت عجالات منظومة شديدة القسوة تهرس من تمرّ فوقه، وحين  
تهرسك أول مرة تصرّخين من الألم، لكن عليك القيام والشّ، حتى لو  
على قدم واحدة. هل تشاهدين أفلام الحرب أحياناً؟ أتريّن كيف يستطيع  
الإنسان التّأقلم مع أسوأ الظروف؟ هذه هي الفكرة العامة، وكلّنا هذا  
الرجل وهذه المرأة: مهما ساءت الظروف، فإنّك تحاولين أن تكملّي اليوم  
الذي بدأ. ماذا يمكنك أن تفعلين غير ذلك؟

- لا أدري، الأمر كلّهُ أكبر من قدرتي على التخيل. لقد عشت  
حياتي كلّها هنا، بين ليدن ولاهاي وأمستردام، ولما سافرت ذهبت  
لباريس وألمانيا، ثمّ إلى نيويورك والتي اعتبرتها مغامرة مثيرة. وأنا

محظوظة، كلّ ما أعرفه عن المآسي الجماعية أعرفه من آخرين، منك، من  
مهاجرين الفاهم هنا، من كتب، من التلفزيون. ومن ثمّ لا أستطيع أن  
أدعي القدرة على إصدار أيّ حكم. من أنا غير فتاة مرفهة؟

- أنت امرأة في غاية الذكاء، والرفقة، والصفاء، ولديك قدرة مذهلة  
على التغلغل لروح الآخرين، وعلى فهم تفكيرهم، وما يحتل في نفوسهم  
خلف هذا التفكير. لم أر أبداً أحداً هكذا!

قلت، مغلصاً. ابتسمت وقالت في هدوء، ولكنّ بجديّة تامة:

- يمكنني أن أستخدم نفس هذه الكلمات في وصفك. أنا لا أكاد  
أصدّق ما يحدث لي. لا أصدّق أنّي وجدت هذه الدرجة من الاتصال مع  
شخص آخر، ومع شخص أت من عالم آخر تماماً، ولكنّه مع ذلك كأنه أنا  
أخرى.

صمتت وترقرق دمع في عينيها فاحتضتها. ضحكت مرتبكة:

- ماذا؟ هل هذا دوري كي أبذل معطفك؟

ضحكنا وسرنا متشابهكي الأذرع بجوار القنّاة باتجاه المطعم الذي  
تسكنين فيه بأخيها. كنت متبهيّبا هذا اللقاء، دخلنا المطعم، وتوجّهت لتوتها  
لشباب وقبلته. هو أكثر شقرة منها؛ مهذب ولكنّه بعيد. عيناه لا تفصحان  
عن نظرته: كأنّه براك من خلف زجاج. تبادلنا أحاديث عامة، عن هولندا  
ومصر وغير ذلك من توافه الحديث عندما لا يكون للناس ما يتحدثون فيه.  
فذكر شيئاً عن دراسته، وسألني عن عملي. تسالمت ماريك عن صديقته  
فأجابها بأنّها رحلت، وأنّ الأمور غامضة بينهما. صمتنا جميعاً لفترة،  
ثمّ سألني عن رأيي في الأحداث التي تجري في الشرق الأوسط. ابتسمت



الثانية عشرة، يجلسان على أرض شارع بجوار كتلة أسمتية لا تحميها حائطا، وصوت إطلاق رصاص لا ينقطع، والرجل يحتمي بالكتلة، ويدفع بالولد خلف جسمه؛ ليحميه من الرصاص في نفس الوقت الذي يحاول فيه أن يُشير بيده لمطلق الرصاص أن معه طفلاً. استمر المشهد ثواني، ويبدو أن صوتي كان يعلو لأن ماريك أتت مسرعة وأنا أصرخ "يا إلهي" في اللحظة التي تكوم فيها الولد قتيلاً بين يدي الرجل الذي سقط فوقه من الإغواء. حلّ علي صمت مطبق، وجلست بجواري واحتضنتني. لكني لم أبك. ظللت أحدّق في التلفزيون في صمت. مدت يدها، وأغلقت التلفزيون. ظللت جالسا بلا حراك. وظللتنا صامتين طيلة المساء.

الثغني في اليوم التالي كما اتفقنا، وسرنا قليلاً في المتزّه، ثم أخذتنا لمحل برجدورف وجودمان.

- أريد أن أشتري لك شيئاً.

- ما المناسبة؟

- لأنني لم أشتري لك شيئاً أبداً، وأريد أن أفعل ذلك.

- من برجدورف وجودمان! هل تدفع لك المستشفى أموالاً وفيرة لهذه الدرجة؟

- لا بهم، سأشتري لك شيئاً صغيراً.

وذهبتا، واشتريت لها طاقية من الصوف بستمائة دولار، وضحكنا، ثم ذهبتا لمطعم جديد في حي كان في الأصل مقرّاً لتجارة الجملة في اللحوم، ونحوّل مؤخرّاً لمنطقة مطاعم وتناولنا عشاءاً فاخراً. ثم سرنا طويلاً حتى

وردت بين قطعتين من الخبز أنّي لا أعرف عما يتحدث بالضبط، فلم أسمع الأخبار منذ عدة أيام. احمرّ وجه ماريك ونظرت لي معاتبة. قال إن هناك أحداث عنف في الضفة الغربية، وهناك قتلى يسقطون يوميّاً منذ ثلاثة أيام. كنا في أول أكتوبر، ولم أكن فعلاً قد شاهدت أو سمعت خيراً واحداً منذ وصلت. صُمتُ. سألتني عن رأيي في كيفية تسوية هذا الصراع، وبدأت أشعر بالضيق من سير المحادثة. حاولت الاختصار؛ لكنّه كان يشعر بالرغبة في المتابعة فيما يبدو، فشرح لي وجهة نظره بأنّ العرب ارتكبوا خطئاً حين عارضوا هجرة اليهود لفلسطين في القرن الماضي، وأنهم لو فعلوا مثل الهولنديين الذين رحّبوا بكلّ المضطهدين، وأنفسحوهم مكاناً لما نشب هذا الصراع أصلاً. قلت شيئاً عن الفارق بين الهوجونوت الباحثين عن ملجأ من الاضطهاد، وبين الحركة الصهيونية التي كانت تبحث عن مكان تُخليه من سكانه وتستوطنه هي، واختلفنا طبعاً حول سير التاريخ، فقال إنه يتفهّم حدة شعوري كوني فلسطينياً، فقامت مع ماريك، متضايقاً بعض الشيء، ومذكّرة إياه بأنّي مصري. صمت لحظة، ثم واصل، وشعوري بالاختناق يزداد. اجتمعت، ومازحته حول دقّة معلوماتنا التاريخية نحن الاثنين، ثم اقترحت أن نذهب لبيت ماريك، ونشاهد الأخبار ونحاول معرفة هوية القتلى اليوم. اعترضت بارتباط سابق. فسنأ، وتصافحنا وذهب في حين عدنا نحن للمنزل رقم 7.

جلست أمام التلفاز، ودخلت ماريك تُعدّ لنا كأسين من البورتو. بدأت النشرة وفهمت عندها ما كان يجري منذ 28 سبتمبر في الأراضي الفلسطينية، وفجأة رأيت على الشاشة رجلاً وبجانبه طفل، في الحادية أو

وصلنا لمركز روكفلر، وشاهدنا معرضاً فنياً غرائباً في ساحة المركز. سرنا طيلة اليوم وأذرعنا متشابكة، أو أيدينا، أو يد أحداً ممسكة بالآخر، أو ذراعي ملتفة حول كتفها، أو رأسها على كتفي، أو ذراعها حول خصري. طيلة اليوم لم يتقطع تلامسنا، كأننا نعوض ما فاتنا، وما سوف يأتي. لماذا نفعل هذا بأنفسنا بآماريك؟

استيقظت مبكراً في اليوم التالي، ولم أجدها في الفراش. اغتسلت ولبست ملابس نومي الرمادية فوجدتها في المطبخ. ألفت عليّ تحية الصباح، وقالت إن القهوة جاهزة، وإني استيقظت مبكراً فذهبت واشترت لي الجرائد الإنجليزية. ابتسمت وشكرتها. قبلتها في ظهر عنقها أسفل شعرها، وجلست أحسني القهوة وأقرأ الجرائد. كانت صور محمد الدرة، الفتي الذي شاهدت قتله على الشاشة بالأمس، مملأً وأجهات الصصف، وقالت لي ماريك إن هذه صحفاً محافظة لا تسعى خلف الإثارة، ولا تنشر صوراً حادة كهذه في العادة. تحدثنا قليلاً عن الموضوع، ثم خرجنا لنذهب لشاطبي. سخيقينيجنن القريب. كان الجو مشمساً بعض الشيء، وسرنا في هدوء. تحدثنا عن الأمس، وعما يحدث في الأراضي المحتلة، ولمسكت بذراعي، وهي تشرح لي كم تشعر بالأسى عندما ترى هذه الأشياء، وكم يتفطر قلبها على قسوة البشر وغبائهم الذي يدفعهم للقتل. في الحاقلة استقرت في حضني، وعدنا نرقب الطريق. سألتني كيف أشعر وكيف أتعامل مع هذا الأمر؟ هزمت كتفي وقلت إنني لا أتعامل مع هذا الأمر، مثله في ذلك مثل المستشفى التي أعمل فيها، مثل الهواء الملوث الذي أستنشق.

- كثيراً ما سألت نفسي لم لا أهاجر؟ لكنني أكتفي بالسؤال. لا إجابة لدي، لكنني أعلم أنني لن أفعلها أبداً.

- أعلم.

- كيف تعلمين؟

- لأنه هذا هو أنت. ولو هاجرت لن تكون نفس الشخص.

- غريبة! عادة لا أنجح في شرح هذه النقطة لأحد.

- الأمر لا يحتاج للشرح، يحتاج للشعور. من يعرفك حقاً، من يلمس

روحك، سيعرف أنها لا يمكن أن تعيش خارج وطنها.

- بالنسبة، ما حكاية الروح هذه؟ لقد وصلنا سخيقينيجنن، يمكنك

أن تعترفي الآن!

- لا تسخر مني، ولا يوجد اعتراف في كنيتي.

كما قد وصلنا بالفعل للشاطبي. أمواج المحيط هادئة، تنداعى على شاطبي. رملي طويل دون صخب، وتلال صغيرة من الزمّل الأبيض يعلوها بعض الغشب، ولا شيء آخر. الجو مليء بالغيوم ويثلر بالمطر، وهناك بعض الريح. سرنا على الشاطبي، وقد تلففنا بكل ما معنا من ملابس. تلفت كوفية من الصوف الأحمر حول رقبتها، وتثبت نظارتها الرفيعة على وجهها الذي اكتسى بجديدة مطلق. حكمت لي عن إيمانها. ليس المسيح بالنسبة لها شخصاً عاش بالفعل من ألفي عام:

- ربما يكون هذا هو الأمر وربما لا، لا فارق عندي. فهو فكرة، فكرة

عن التسامح وعن التضحية، وعن رفض الإنسان إيذاء أخيه، فكرة عن

الحب بين البشر. أما الله فهو في قلبي، هو التور الذي يضيء لي الطريق.

لا يهتم الأدلة والبراهين، ليس الأمر مُتعلّقاً بإثبات وجود أو غياب، وأنما يتعلق بأن نفوس في أعماقك، فتجد شيئاً نفيّاً يدلك على الطريق الصواب وعلى الحق. هذا الضوء داخلك وداخلي وداخل كلّ إنسان، وهذا هو الأمر.

- والكيسة؟ والطقوس؟

- الكيسة هي رابطة تجمع الناس سوياً، تجمعني وأهل ليدن بمن يشاركونني هذا الاعتقاد. لسنا كنيسة تقليدية، ولا تنس أننا بروتستانت في نهاية الأمر. إيماننا رابطة مباشرة بين كلّ فرد منا وبين الله، لا نحتاج لوسطاء. لكننا نحتاج لكيسة تجمعنا على فعل الخير، وعلى التضامن. نعرف، كثير من اجتماعاتنا تدور حول أمور دنيوية: مثل إصلاح المنزلة الذي حدّثك عنه، أو مساعدة بعض المحتاجين، من الفقراء أو المهاجرين، عن نمس للدين وأمورها، أو حتى عن مصاعب رُوحية تقابلها. هي شبكة للتضامن.

- لا أدري لم، لكن كلّما شرحتي الأمر كلّما زاد نفوري منه. ألا ترين أن الموضوع برّمته مزيف؟ ما هذه الكيسة إن لم تكن قائمة على اعتقاد ديني: شبكة للعلاج الجماعي؟ مجلس مدينة؟ ولم تناقش هذه الأمور في مؤسسة دينية؟ أليست هناك جمعيات خيرية، ومجلس مدينة حقيقي وأحزاب؟ الأمر يبدو كأنه طائفة سرية!

- لا طائفة ولا سرية، هذه كنيسة ومفتوحة للجميع. ونعم هناك كلّ هذه المؤسسات، لكننا رابطة رُوحية، وبيننا رابط رُوحى ودينى، وهو ما يُمكّننا من العمل في هذه المؤسسات التي تتحدّث عنها.

- ما زلت لا أستطيع أن أفهم هذه الحالة الروحية الدينية. هل أنت مؤمنة فعلاً: يعني بإله خلق العالم في ستة أيام، وبالجنة والنار والخالص، وهكذا لمور؟

- كثير منا غير مؤمن بهذه الأمور، لكن الرابطة الروحية التي تجمعنا شيء، أتوى من مجرد الإيمان بالشكل الذي تقدّمه المسيحية القديمة!

كان المظهر قد بدأ في الهطول، فقلت ضاحكاً إن الله يعاقبنا على هذه الهرطقة، لكن مزاحي لم يرق لها. اختبأتنا في مطعم صغير شبه مهجور، واستمررت في محاولة شرح أبعاد إيمانها وارتباطها الكُنسي، لكن الأمر ظلّ مُستغرقاً على فهمي. أعلنت استسلامي، لكنّها رفضت وقالت إن هذا الأمر هام لها، ويعنيها أن أفهمه بوضوح. أخذنا راحة من النقاش قضيناها في تناول ما قدّمه لنا المطعم المهجور، ثم استأنفت محاولة الشرح خلال طريق العودة، لكنني ظلت لا أفهم كيف يمكن أن تكون هذه الطيبة الهولندية المتفتحة بهذا الشكل، وظلت لا تفهم كيف يمكن أن أغلق عيني عن "روحي" لهذه الدرجة.

اليوم لدى كلّ منا عمل طيلة النهار، لكننا التقينا وقت الغداء، لساعة واحدة. لم نتناول طعاماً، وإنما أخذتني من يدي، وسارت بنا نحو الجادة الثالثة. ذكرتني بحاجتي لحقيبة لأوراقي - كنت قد تناقشنا في الأوراق، والمحافظ عرضاً في رسائل منذ عام - وقررت أن نأخذني لمكان تعرفه نشترى منه واحدة. حدّثتني عن أنواع المحافظ الجلدية، ورشّحت لي نوعاً قالت إنه شهير، وبالفعل اخترت الثنتين من هذا النوع، وتركت

لها الاختيار النهائي، ففعلت، واشترت لي حقيبة بنية اللون. سألتني إن كنت قد اشترت شيئاً لسلبي فهزئت رأسي مؤكداً أن لديها ما يكفي من الحقايب. ضحكتم وقالت إنني فعلاً أحمق، وآلاً وجود شيء اسمه ما يكفي من الحقايب لينت. اختارت حقيبة صغيرة كان من المستحيل أن أختارها واشتريتها، وخرجنا نسير مرةً أخرى في الشوارع. الساعة الثانية وبجب أن يعود كل منا لعمله، ولا نريد الافتراق. ثم استجمعنا شجاعتنا، وتضاحكنا حول سلوكنا الصياني، وتوجهنا لمحطة المترو.

عدنا لمنزلها حيث جمعت أغراضي بسرعة، ورحلنا باتجاه محطة القطار في بداية رحلة العودة. في شارع المحطة توقفنا لتناول بعض الطعام، واقتربت أنا أن يجرب المطعم الإسرائيلي. كنت أريد أن أعرف ما هو هذا الطعام الإسرائيلي الذي يبدو لي وأنه مجرد شاووما وفلافل مصرية. دخلنا المطعم، وتولت هي الحديث حتى لا نقشي لكنتي جنسيتي المعادية. لكن لكفة التادل بدت لي مصرية مائة بالمائة. قلت لها ذلك فضحكتم، وسألتني كيف يمكن أن أعرف أنه مصري من لكنته في الحديث بالهولندية. أقسمت لها إنه مصري، وعندما عاد ليحضر الطعام سألته بالعامية المصرية دون مقدمات:

— هو انتو بتعملوا الطعميه بالفول وآلاً بالخمص؟

— لا باباشا بالخمص، أصل مفيش فول كفاية هنا.

— هو المطعم ده بتاع مين؟

— بتاعي أنا وبمجموعه أصحابي.

— أسأل إيه حكاية الأكل الإسرائيلي ده؟

— أصله كان بتاع واحد إسرائيلي زمان، وإحنا اشتريناه منه، ولقبنا أن الجماعة الهولنديين عاجبهم حكاية الأكل الإسرائيلي دي فخليناها، إنما إحنا كلنا مصريين.

— طيب وحياتك هاتلي طحينة.

غرقت في الضحك عندما ترجمت لها فحوى الحديث. تناولنا طعامنا الإسرائيلي وتوجهنا للمحطة، وجلسنا نتنظر القطار. كانت المناقشات قد استغرقتنا وأنستنا موعد رحيلي، ونسينا أن نتحدث عن الأمور الهامة: متى سلتني؟ هل سلتني؟ ما معنى ما حدث هنا بيتنا؟ كنا نتصرف كزوجين يعرفان أنهما سيظلان معاً، ولكننا هنا في محطة، وسيأتي قطار وأركبه، وأمضي في حين نظل هي هنا. لم تنف على شيء، لم تحسم شيئاً، ولكننا نتصرف وكأننا اتفقنا على كل شيء، وحسنا كل شيء. أحبها، ونحبني، ونشعر بالحنين من الإقرار بأننا وقعنا في الحب بهذه السرعة. ماذا سنفعل؟ هل سنستقل هي لتعيش معي في القاهرة: هي التي لم تر العالم الثالث إلا في نشرات الأخبار، أم أغترب أنا، وهي تعلم أنني لا أستطيع حتى إن شئت؟ كيف قضينا الوقت في مناقشة كل شيء إلا هذا. الوقت يمر، ولم يبقَ على قطاري سوى ساعة أو بعض ساعة. جلسنا في مقهى واسع في شارع المحطة، مقاعده خشبية كمقاهي وسط القاهرة، وطلبنا شوكلاته ساخنة. قلت لها إنني أريد رؤيتها قريباً فأنتت على كلامي. قررت أن أكون هولندياً ولو لساعة، وسألتها إن كانت تريد أن تأتي وتقيم معي بالقاهرة. أحمر وجهها، وقالت إنها تريد أن تجرب الإقامة معي،

لكنها ليست متأكدة من أن هذه فكرة طيبة، الوقت، والظروف، وغير ذلك. اقترحت أن تجرب، أن تجرب، لماذا لا تأت في عيد الميلاد القادم وتقضي عدة شهور معي؟ نعدنا قليلاً واتفقا على ذلك. ضحكت من قلبي لأول مرة هذا اليوم، وتعاقنا عناقاً طويلاً على رصيف القطار، وافترقنا على أن تأتي لتقيم معي في عيد الميلاد.

سأنتي ماذا سأفعل هذا المساء بعد رحيلها؟ قلت إن اليوم عيد ميلاد سلمى، وستعود من واشنطن بعد الظهر، ونحتفل كلنا بها. أصرت أمها، المصممة على إدارة حياة سلمى عن بعد، أن يكون عيد الميلاد لدى الجد درويش، وليس في بيتي أو في مطعم، أو مكان عام، وأن يكون الجد هو صاحب الدعوة، وأن ندعو خالتها المحبة لميرة وزوجها داوود الغريب الأطوار. بيد أن كثرة التعليمات ضاقت الجد درويش، وهو الذي تعود إصدار التعليمات، فقرر دعوة كل من له علاقة بسلمى من قريب أو بعيد. وهكذا أفسدوا حمية عيد ميلاد ابنتي الواحد والعشرين. ربما هذا ما أرادته ليلى؛ مادامت هي غائبة فلا يجب أن يكون هناك عيد ميلاد حقيقي. لا جديد في هذا.

نظرت لي طويلاً، وسأنتي بحدّة: "ولم تقبل أنت بهذا؟" تناقشنا مطولاً، مثلما فعلنا ذات يوم في ليدن، وقلت أشياء كثيرة وقالت أشياء، لكنها كانت حادة بعض الشيء، وقالت شيئاً في وسط حديثها عن الفارق بين احترام مطالب الآخرين، وبين السلبية. ظلت الكلمة ترن في رأسي: "سلبية؟ أنا؟". سأنتي إن كنت سأقابل سلمى في المحطة، فقلت إنني لست

متأكدًا بعد. هزت رأسها مستكرة، وقالت في ود: "أرايت؟ هذه سلبية". لم لا تقابلها في المحطة ومعك ورد أو هدية صغيرة، وتأخذها في تاكسي الليت، أو تمشياً سوياً؟ سيعطيك هذا وقتاً للحديث معها قبل انقضاء الباقين". أردت أن أحتج على وصفي بالسلبية، لكن ليس هذا وقت النقاش، فماريك ستسافر هذا المساء. قلت إنني ربما أذهب فعلاً لمقابلتها في المحطة بعد أن تسافر ماريك. سأنتها إن كان يجب عليّ توصيلها هي أيضاً للمطار، فضحكت ولم ترد.

أخذت اليوم أجازة، وفعلت ماريك نفس الشيء، والتقينا مرة أخيرة عند محطة جسر بروكلين. سرنا ونعدنا عن كل شيء، ثم وصلنا لنفس النقطة التي نصل إليها دائماً. قالت:

- لا أستطيع الحياة في مصر، بل ولا أستطيع الحياة خارج هولندا، وربما خارج ليدن. هكذا أنا، اكتشفت أنني هكذا، مرتبطة بهذه الأرض وبهؤلاء الناس الذين هم أعلي وجماعتي، وبالكيسة التي تسخر منها، ولا أستطيع. ربما نيويورك.

ضحكت، وذكرت أن نيويورك في الأصل اسمها أمستردام الجديدة، وأن أسلافها هم الذين بنوها، وبالتالي فهي لا تشكل استثناءً حقيقياً مما قالته. سأنتي بجديّة إن كنت أستطيع أن أعيش في نيويورك للأبد. سأنتها كيف يمكن للحب أن يكون مُعدداً جغرافياً؟ غضبت وقالت: "ليس الحب المحدد، بل إمكانية الحياة سوياً". هزرت كفتي نائفاً: "ومصر؟" قالت "أعرف"، وصمتا. لكن لماذا لا نحاول؟ حتى ولو كنا نحاول كي نفل، ونشغى من هذا الحب الذي لا يتركنا. لكن فشلنا لن يشغينا بالضرورة،

وهل تريد فعلاً أن نشفي. تناقشنا من جديد حول أمرنا، وكل شيء قلناه من قبل، ولم نصل لنتيجة لم نصل إليها من قبل. الوقت يمضي، وموعد الرحيل يقترب. قالت: "ربما في آخر العمر نلتقي، وربما في عمر آخر، زمن آخر". نظرت لها ولم أجب. هل هذه هي السلبية التي تحدثت عنها: أن أقبل بموقفها هذا؟ هل هناك طريق آخر "غير سلمي" يمكنني من إبقائها معي؟ أخرجت من حقيبتها الطاقة الصوف التي اشتريتها لها وارتدتها، والكاميرا وجهزتها. حملت الحقيبة التي اشتريتها لي على كتفي كي تظهر في الصورة، ألمسنا رأسيما ببعضهما، والتقطت صورة أخيرة لنا معاً.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^RAYAHEEN^

## 6

## مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية

واشنطن. الجو حار. خلع عدنان معطفه ووقف بالقميص. بلا فائدة؛ رطوبة الجو تكسي على الأنفاس. ليس هذا بالنسب الأوقات للبحث عن الذكريات، لكنه لا يملك غير هذا الوقت، فلن يظل بواشنطن سوى ساعات قليلة. وصل مساء أمس، وقضى الصباح في تسوية بعض الأمور القانونية، ثم ذهب للبحث عن بيتهم القديم، وبعدها جاء لهناء. أخذ المترو حتى ميدان ديون ثم سار على قدميه إلى هنا، غاملاً مثلما كانت أمه تفعل حين تصحبه للمدرسة. لم يعد لواشنطن منذ أنهى المدرسة، وكل ما يذكره عنها، وعن الطريق والبيت متداخلاً ومُشوّشاً. كان قد طوى هذه الصفحة منذ زمن، وظن أنه نسيتها، منذ ذهب للجامعة في ديترويت واستقر بها.

خرج من الباب، وسار في الممر الطويل المحاذي للفصول من الخارج حتى وصل إلى السلم الآخر، ذلك الدرج الصغير والضيق، حيث كان التلامذة الفتوات يتصبون الكمان للمساكين من أمثاله. هنا كان يتم التنكيل به، ربما مرة كل أسبوع. هنا كان يتم تهريله من أي مال يتصادف وجوده معه، وهو أمر نادر. لكن كان دائماً معه طعام، وهو ما كان الفتوات يأخذونه، وينظرون إليه في قرف، ويسألونه ساخرين عن اسم "المسحوق" الذي أعدته له أمه. أول مرة أجابهم: "فول"، قالها بالعربية لأنه لم يعرف المرادف بالإنجليزية، ولم يصدق الأولاد أنفسهم. ضجوا بالضحك، نذوق أحدهم بعضاً منه ثم بصقه، وتبادلوا شمس نصف الرغيف للفقوف بعناية في ورق سلوفان شفاف وهم يضحكون، ثم فتوه أمام عينيه وهو واقف بلا حول ولا قوة. من يومها أصبح اسمه في المدرسة "فول"، ولكن بالمعنى الإنجليزي طبعاً.

دار دورة أخرى في ممرات المدرسة ثم خرج. وقف أمام الباب لحظات. هل انتهت الزيارة هكذا؟ جاء إلى هنا بعد صراع طويل مع نفسه، وتساؤلات عتاً إذا كان من الأفضل أن يدع الماضي في حاله وينساه. سأل وتساءل، بل وبحث في كتب علم النفس، وبعد تردد وتفكير طويل قرر أن يأتي. جاء ليحاول استعادة نفسه التي كانت، يُحاول استعادة شعوره وهو طفل في الثامنة، أو العاشرة، أو الثانية عشرة. لكنه لا يشعر بشيء. لا عواطف جياشة تعتريه، ولا دموع تغالبه. بجل تركيزه مُنصب على عجلة التذكر: هل كان هذا هو نفس الممر الذي يحتفظ به في ذاكرته؟ هل كان هذا فعلاً هو الدرج الذي يهبته عنده فتوات المدرسة ويخشى عبوره

كمن من الوقت مر؟ عشرين سنة، تغيرت فيها حياته كلها، لكنه حين سحنت له الفرصة عاد ليلقي نظرة على بيته القديم، ومدرسته الابتدائية.

واشنطن، وعدنانا يتصبب عرقاً. يسير على قدميه بحثاً عن مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية. كانت هنا في مكان ما. بحث على الإنترنت هذا الصباح في الفندق، وتأكد من العنوان: 2020 شارع 19 بحي آدامز مورجان. ذكر موقع الإنترنت بأن الحي لم يُسم على اسم شخص واحد مثلما يظن الكثيرون، وإنما على اسم مدرسته الابتدائية: كوينسي آدامز المخصصة للبيض، وتوماس مورجان المخصصة للأطفال الملونين. لم يكن عدنانا يعرف ذلك. فكر أنه من مفارقات القدر أن يذهب هو للمدرسة آدامز، هو الذي يتسمى كلية لجانب مورجان. لا بد وأن أباه أعطى المدرسة عنواناً وهمياً في المنطقة، والإفما الذي جعله يرتاد هذه المدرسة رغم أنهم يقطنون فرجينيا! هذا هو شارع 19، يصعد الشارع قليلاً كلما اقترب من المدرسة، يذكر هذا، وهذا هو مبنى المدرسة يلوح من بعيد. لا بد وأنه هذا. التفت حوله ونظر نحو آخر الشارع، ليس هناك مبنى آخر يمكن أن يكون مدرسة. نعم، لا بد وأنها هذه إذا. لكنها تبدو أكبر مما يتذكرها. استغرب، عادة تبدو الأشياء أصغر.

اقترب من باب المدرسة وصعد ببطء درجات السلم الرخامي العريض. حتى الأبواب تبدو أكبر. دخل من الباب ونظر. لا يوجد بالمدرسة سوى بعض الموظفين. ابتسمت له سيدة بدنية، وأومأت برأسها وهو يمر أمامها. لا بد وأنها اعتادت هذا المشهد. أناس يأتون في الأجهزة، ليلقوا نظرة على حياتهم التي كانت. لا يتعرفون على أحد، ولا يتعرف عليهم أحد.

كلّ يوم؟ أم أنه أخطأ في المكان؟ لا، لا مجال للخطأ: هذه هي مدرسة "كويبيسي آدامز"، هكذا تقول اللاحقة، لكنّه لا يشعر بشيء سوى تلك الرطوبة الحاققة.

سنوات وهو يأتي هنا كلّ صباح. يأتي به أبوه في سيارته الشيفرولية من طراز إمبالا إنتاج عام 1974 بشكلها المضحك. من أين أتى أبوه بهذه السيارة العتيقة الفارحة؟ من يوم ما وعي على الدنيا وهو يرى أباه يقودها؛ كان واضح الفخر بطولها الذي قال إنه ستة أمتار. ذات يوم خرج عدنان ليقبس طولها، فوجده يقل عن ستة أمتار بأربعين سنتيمتراً، فعاد للمنزل بسرعة وأخبر أباه متحدثاً باكتشافه. كان الأب يأكل شيئاً، حساً على ما يذكر. احتر وجه الأب فجأة، وألقى بالملقعة في وجه عدنان مباشرة. يذكر جيداً قطرات الحساء وهي تنطير في الهواء، والملقعة تشقّ طريقها لوجهه. أخطأته وأصابته شاشة التلفزيون بدلاً منه، مما أثار الأب أكثر فقام ليمسك به، لكن الأم عطلته ثوان ثمانية سمحت له بالففرار قبل أن يفتك به الأب الغاضب. لا يذكر كيف انتهت الحادثة؛ لا يد وإنه اعتذر لأبيه، لا يد وإن الأم طلبت منه ذلك، ففعل انتقاداً للشر. مرّت الحادثة بسلام، لكنّه من يومها تعلّم ألاّ يدي ملاحظات سلبية بشأن الإمبالا.

ترتبط المدرسة في ذهنه بالإمبالا أكثر من أي شيء آخر، رغمًا باستثناء المتزّه الصغير المجاور للمدرسة. تلتفت بحثاً عن المتزّه فلم يجده. سيذهب للبحث عنه بعد قليل. كان لدى الأب سيارات كثيرة، ربما ستة أو سبعة، تُشكّل أسطولاً من السيارات التي يُؤجرها للمكتب الذي افتتحه، وعدنان في الصف الرابع. يذكر ذلك اليوم، حيث أوصلته أمّه للمدرسة بدلاً من أبيه

على غير العادة؛ لأنّ الأب كان قد ذهب لينهي بعض الإجراءات المتعلقة بفتح المكتب. كان حدثاً جليلاً للعائلة الصغيرة، به انتقال الأب من كونه سائقاً أجيراً لصاحب عمل. في البداية لم يتغير شيء في حياة عدنان، سوى أن أمّه أصبحت تأخذه للمدرسة أكثر، ربما مرّة كلّ أسبوع وأحياناً مرتين، وكان يحبّ ذلك. إذ كانت الأم تأخذه في المترو حتى محطة ميدان ديون؛ تُهره عربات المترو، والأضواء التي تضيء وتنطفئ، وحدها على الرصيف حين يقترب القطار من المحطة، ويفتت جريان القطار بهذه السرعة الكبيرة تحت الأرض ودون عوائق. يذكر دهشته الشديدة عند خروجه من محطة ديون أول مرّة: ظلّ السلم الكهربائي يصعد بهما لفترة طويلة، وهو لا يصدّق أنه وكلّ هؤلاء الناس كانوا على هذا العمق. كان يحبّ كل شيء في رحلة الذهاب للمدرسة مع أمّه: إمساكها بيده طول الوقت، التنصاف بهما، اللعجنات التي تطعمه إياها، صبرها عليه عندما يقف فجأة للغرفة على شيء، لفت نظره، بل ومشاركتهما هذا الاهتمام وانخراطهما معه.

لم تكن قلقة أن يتأخّر على المدرسة، عكس أبيه المستعجل دوماً، بل هو الذي يُذكرها أحياناً بأنّ عليهما الإصرار. كانا كاتهما في زهرة، يتأمل الوجوه العديدة التي يراها في عربات القطار، ويشير لأمه لترى ما يرى فسكته بائسامة مُواطنة، فيضحك ويدفن رأسه في حجرها، ويمسح على شعره.

الإمبالا كانت واسعة جداً ومقاعدتها الأمامية عبارة عن كنية كبيرة ممتدة من الباب للباب، فكان دائم الانزلاق من مكانه في اتحامات الطريق الكثيرة التي يأخذها أبوه بسرعة. في البداية يجلس ملتصقاً بالباب،



لم يدخل منها وهو غفل، ورمًا دخلها بعد ذلك، ولم يعرف أنها هي تلك الطرق التي كان يتحسّر وهو يدخلها وراه في الإقبال السريع. هبط درجات السلم، وسار على الرصيف بحذاء للمدرسة صاعدًا التلة بحثًا عن المتزّنه الصغير. سار دقائق قليلة، ثم لاح له سور الحديدي. واصل الصعود حتى بلغه. لماذا يبدو مختلفًا؟ سأل نفسه وهو يحدق بقلق في أرجاء المتزّنه. الملعب في وسطه هو هو، والثلّ المتحدر الحواف صعب التسلّق كما هو. لكن لماذا يبدو مختلفًا؟ هل كان هذا المبني هنا؟ هل هذه دورة مياه لم غرفة لخارس؟ هل أعادوا بناه؟ هل يُعاد بناء المتزّنات، أم تراه أخطأ الاتجاه؟ رمًا هناك متزّنه آخر في الناحية الأخرى.

كان أبوه ينزله من السيارة عند هذه الناصية؛ كي يتفادى إضاعة الوقت في الالتفاف من شارع كولومبيا، فيمر على المتزّنه يوميًا في طريقه لباي للمدرسة. يجب أن يكون هنا إذا، أو رمًا في الجانب الآخر. هل للمدرسة باب آخر من شارع 18؟ امرأة سمراء طويلة القامة تدخل المتزّنه من الجانب الآخر، وتجلس عند المبني الصغير الذي لم تعرّف عليه. فكر أن يذهب ويسألها لكنّه تراجع. ماذا سيقول لها! نظرت ناحيتها مرة أخرى؛ من بعيد تشبه تلك الفتاة التي كانت معه في المدرسة، التلميذة الأجنبية الأخرى. لم يكن يعرف اسمها. قال أحد الفتيات إنها هندية، فأخذوا يتنقرون عنّا إذا كانت ترتدي ريشًا، وتحمل سهامًا. ضحكوا، لكن تلميذة مجتهدة علقت في سخرية من جهول زملائها بأنّ البيت هندية من الهند، وليست هندية حمراء، فردّ كبيرهم بغلظة مُستأنلاً عن الفارق: اليسوا كلّهم هنودًا؟ ومن ساعتها صار اسمها "البيت الحمراء". كان عدنان يستلطف "البيت

ويسرح ينظره في الطريق وإشارات المرور، والاتجاهات وأشكال السيارات الأخرى، ثم فجأة تدور السيارة في أحد الملتفات بسرعة، فيترق على الكبة نحو الأب الذي يسدّد له نظرة نارية أمرًا إياه أن يعتدل في جلسته، فيتبه عدنان من أفكاره ويزحف عائدًا نحو الباب، ويجاهد أن يظلّ ملتصقًا به أطول قدر ممكن، لكنّه يسرح بأفكاره مرة أخرى حتى تدخل السيارة في انحناءة أخرى، وهكذا. وبالإضافة لهذه الانحناءات، والقيادة السريعة، واتساع الكبة الذي كان يبدو بلا نهاية، والحوف الدائم من إثارة غضب الأب، كان هناك الشعور بالغيان الذي يلازمه كلّما جلس في الإقبال. لم يجرؤ على البوح بذلك لأبيه. أخبر أمّه، فقالت له إن كلّ الناس تصاب بدوار السيارات، وإن ذلك أمر مشابه لدوّار البحر.

لم يكن يعرف ما هو "دوار البحر"، فصمت. يدخل السيارة في الصباح الباكر وهو يغالب النوم، ويترقب بجي الغيابة، ثم يظلّ يقاومه ويحاول التثبّت بالباب بما جعله دائم الصمت، شاحب الوجه. إذا حدّته الأب أو سأله في شيء، تلعثم وتاه فيحديه الأب بفتاذ صبر، ويعود للقيادة وهو بهز رأسه بأشأ، فيعود عدنان للكمون ومحاولة الثبات. يمران على تقاطعات كثيرة من البيت للمدرسة، وعند كلّ تقاطع ينظر عدنان للطريق الذي لم يأخذوه، ويتنقّب من قلبه لو أن أباه أخذ ذلك الطريق بدلاً من الطريق المعتاد. لا يدري لماذا، رمًا لأنّه يعرف الطريق المعتاد ولا يريد، يحلم بشيء آخر. ذات مرة سأل أباه إلى أين يقود ذلك الطريق الآخر، فنظر إليه الأب بسخرية، وأجاب بأنّه يؤدّي لمكان غير ذلك الذي هم ذاهبون إليه. يتذكر ذلك ويتساءل عن هذه الطرق؛ نسي أسماءها الآن،

الحمرءة" لكثرة لم يجرؤ على مخاطبتها يوماً، كما أنها كانت محل سخرية، فلم يُرد أن يزهد من وضعه سواها إن شُهد معها. هل يمكن أن تكون هي تلك الجالسة في آخر المتزرة؟ نظر إيمان ناحيتها؛ ما الذي تفعله؟ تخرج متديلاً، ومسح وجهها. هل تبكي؟ ما هذا؟ يوم تذكر الماضي؟ لا، لا بد أنه الحر. امرأة سمراء طويلة تستريح في متزرة ليس أمراً نادراً، صحيح إنها في نفس العمر الذي ستكون عليه البنت الحمرءة، لكن لا يمكن أن تكون هي. دعك من هذه الترهات، دع المرأة في سلام، قال لنفسه.

واشنطن، والحر خائف. جال يخاطره أن ملابسه غير ملائمة بالمرّة. هو الآتي من ديترويت لم يخاطر بهاله أن يكون الجو بهذه الحرارة في واشنطن. اهتم لنفسه: "ملابستك دائماً غير ملائمة، وأنت طفل مثلما وأنت في الأربعينات، لا بد أن العيب فيك أنت". يذكر هذا الأمر كأنه مسمار يوخز قلبه: شعوره وهو طفل يرتدي ملابس غير ملائمة للبرد في الشتاء، وغير ملائمة للحر في الصيف، وغير ملائمة للتسهر في حفلات المدرسة، وأعياد ميلاد زملائه القليلة التي دُعي إليها. تشعر بالعار من نفسك وأنت ترتدي ملابس غير ملائمة، كأنك تحمل وزراً لا تريد للناس أن يروه، تحاول أن تخفي عن أعينهم بأن تخفي نفسك. تحاول أن تأخذ ثقل حيز من المكان، وألاً تأتي في طريق نظرات الأطفال الآخرين. في الفصل، تجلس في مقعد جاني، لا في الأمام حيث المجتهدين، ولا في الخلف حيث الفتوات، بل في الوسط حيث لا يلاحظك أحد. وفي الغناء أو الحفلات تأخذ مكاناً قصياً، وتصمت قدر الإمكان، وإن قابلتك أحد أو وجه الحديث لك تحاول أن تنهي هذه اللحظة بأسرع وقت ممكن. الصمت ليس حلاً مضموناً،

فقد يجرّ عليك المزيد من التحديق، والمزيد من الرغبة في الاختفاء. دائماً ما سأل نفسه من أين يشتري أبواه ملابسه، ليست هي نفس المتاجر التي يشتري منها بقية أولاد المدرسة أغراضهم ذات يوم رأى في مدخل محل بجوار مكتب أبيه يتطلّوناً من الجينز يشبه ذلك الذي يرتديه أحد الأولاد المحبوبين، فاستجمع شجاعته وطلب من أبيه شرائه، لكن الأب قرعه لجشعه ومطالبه التي لا تنتهي، فصمت ولم يعد لثقلها. اللباس غير الملائمة، الأدوات المدرسية غير الملائمة. واللعب غير الملائمة، قرر أن يتوقف عن التفكير في هذه الأشياء، لو استرسل في التذكّر فلن يغادر واشنطن اليوم. لو استرسل في تذكّر لعبه المضحكة، والسخرية التي جرت بها عليه طيلة سنوات طفولته، أو أدوات التزلّج على الجليد التي جاء بها يوماً لهذا المتزرة فجعلته أمثلة بين زملائه، أو أغطية الرأس والقفازات الأكبر منه مقاساً، أو الأصغر مقاساً. لم تكن له صديقة واحدة طيلة هذه السنوات أو صديق؛ الجميع نأى عنه. الولد الأسمر الأحقر. لا، لا داعي للاسترسال.

نظر مرة أخرى للمتزرة: هل هذا فعلاً نفس المكان الذي كان يرتاده يومياً؟ هنا كان ينتظر مجيء أبيه بعد المدرسة؛ كي يقله في رحلة أخرى بالإمبالا إلى البيت. كان يحب هذه الرحلة ويكرهها في نفس الوقت. يحبها لأنها تأخذه لراحة البيت وعناية أمّه وطعامها وتقليلها له. ويكره العودة لأن الإمبالا تكون حارة صيفاً باردة شتاءً، فالأب لا يحب تشغيل تكييف السيارة عندما تنقف في الإشارات. لا يدري لم، حين سألته وده بأن التكييف يتعب المحرّك أثناء الوقوف. وجد عدنان ذلك الأمر غريباً؛ لماذا صممت شيفرولية محرك سيارة بهذا الغباء؟ ألا يعرفون أن في أمريكا

فقد كان هناك سونيتا، موظفة الاستقبال الهندية الأصل، والتي كثيراً ما تأتي للمكتب مرتدية الساري الهندي الملون. أجمل مافيه، من وجهة نظر عدنان، هو أنه يكشف وسط جسمها بالكامل، يطنها وظهرها وجنيه، وأنه يمكنه الجلوس والنظر إلى هذا الجسد دون عواقب، خاصة إن لم يكن أبوه بالمكتب. كلُّما مالت في اتجاه أو غيرت وقفتها تغيرت ملامح ثنيات وسطها وظلاله، وصار يعرفها كلُّها ويبحث عنها. كانت تلك هي متعته الرئيسية في هذه المرحلة من حياته، هي والبرنجلز بطعم الجبن حين ينجح في انتزاع دولار من هنا أو من هناك. وحين يُغمض عينيه ويتخيل ملمس وسط سونيتا، كان يتخيله حريفاً مثل طعم البرنجلز. كذلك كان يحب الاستماع لـ أبوزهدي، السائق الفلسطيني. فهو يحكي حكايات مسلية عن مصر وفلسطين وبلاد أخرى يزعم أنه عاش فيها، ويحدثه أيضاً عن أبيه، ويحرضه ألا يقبل صفعاته وإهاناته أمام الآخرين هكذا يلا رد.

يلهله ما يقترحه عليه أبوزهدي: كيف يرد؟ سيستب ذلك في الزبد من الصّغعات، ورتما في الربط بالخيال والضرب بالخزلم مثلما حدث في العام الماضي حين رفض الذهاب معه للمكتب. والأسوأ من ذلك سيؤدي إلى ألام من الصمت المرعب في البيت كلّه، وسيُنقص على أمه. يرد أبوزهدي بكلام كثير لا يفهمه عدنان، لكنّه يحب أن يسمعه. والحقيقة أنه كانت هناك مصادر أخرى للمتعة في المكتب، حتى حين يكون الأب حاضراً، مثل وجبات الدجاج المشوي والخيار المخّلل والحبز اللبناني التي تأتي في بعض الأسابيع، أو وجبات الفول والمحمص والتي يحضرها أبوزهدي في الصباح في العطلات (حيث إن الأب لا يؤمن بمبدأ الراحة الأسبوعية

إشارات؟ سأل أباه، وفاجأه السباب والوعيد الذي خضّه به الأب عندئذ (كان ذلك قبل حادثة قياس طول الإيمبالا). استسلم من يومها لتقلبات الجو في السيرة أثناء رحلة العودة، وشغله ذلك لحد ما عن الشعور الطافي بالغبان، ونجح أحياناً في النوم أثناء رحلة العودة، مقابل بعض التفرّج من أبيه عند الوصول. في البيت ينام الأب بعد الغداء، وتفرّض الأم على البيت الصغير حظراً للتجول والتحدث فينتهي الأمر بعدنان للنوم أيضاً، لكنّه عندما يستيقظ يكون الأب قد غادر المنزل إلى مكتبه الذي يظنّ به حتى العاشرة مساءً. قبل العاشرة يكون قد تسلّل للفرش حتى يتفادى عودة الأب المصحوبة بلعنات يصيها على سائق المكتب، أو زبون تأخر أو جار ترك سيارته في مكانه المُفضّل، أو البنك الذي يُطالبه بالقسط الربع سنوي أو - إن تعذّر كل ذلك - على من يراه في البيت أولاً. لتفادي كل ذلك يضحي عدنان بما يشاهده في التلفزيون، ويتسلّل للفرش في العاشرة إلا خمس دقائق، ويظنّ يترقب. يغمض قلبه في ضلوعه عندما يسمع صوت محرك السيارة الضخم وهو يهدأ تحت النافذة، ثم صوت درجات السلم الخشبية الخمسة، وهي تنزّل تحت ثقل الأب الضخم الجثة، يعقب ذلك نكّة المفتاح في قفل الباب، وصخب الوعيد والسباب.

كما كانت هناك الأسبقيات التي يصاحب فيها أباه للمكتب، وذلك في العطلات. يحاول عدنان التملّص لكن بلا فائدة. يقول الأب أشياء عن مساعدة الابن لأبيه، وعن أنه يأكل ويشرب طيلة العام على حسابه، ولن يقتله أن يرد بعض الجعيل بمساعدة طليقة يقدّمها بتواجده بالمكتب، والرد على التلفزيون. يكره الذهاب معه، لكنّ المكتب لم يكن كلّه عذاباً،

للمكتب). لكنّ الذهاب للمكتب يعني أيضًا ضياع فرص ثمينة في فضاء أُمسيات هادئة وحتونة مع الأم والتفاز، وفرص أكثر للتعرض لنوبات الغضب للفاجيء للأب بما تحمله من تهديدات.

أدرك عدنان وهو واقف أمام المتزّه أن كل لحظات طفولته اختلط الحب فيها بالكرهية، والسعادة بالنعاسة. استغرب أنه لم يفكر في الأمر بهذا الشكل من قبل. كان غاضبًا وعنوقًا من سلطة أبيه وتحكمه حين غادر منزل العائلة إلى الجامعة في ديترويت. كان غاضبًا على أبيه، وانفجر غضبه حين ماتت أمّه بعد رحيله للجامعة بعامين وقام الأب بدفنها دون أن يُخطر الابن الغائب. برز الأب ذلك بتعاليم الشريعة التي تحيّد الدفن في أسرع وقت ممكن، لكنّها كانت القسّة التي قصصت ظهر البعير، أو لعلّها كانت فرصة انتهازها عدنان ليفعل ما كان يتوق سرًا لفعله منذ طفولته. لم يرد على أبيه ساعتها، قال له "شكرًا" ووضع السماعة ثم لم يعد للاتصال به بعدها. لم يتصل به الأب أبدًا، وهو ما أدهش عدنان قليلًا، وإن كان لأراحه من عناء مواجهة بشاشها ووفر له مددًا من الأسباب التي كتبت أنه على حق في مقاطعته للأب. وهكذا ماتت علاقتهما، في صمت، حتى مات الأب نفسه منذ شهرين.

لم يحضر عدنان دفن أبيه، اتفاقًا. قرر أن يرثي الصاع لأبيه الميت، وكلف جمعية إسلامية غيرية بتوليّ مراسم الدفن، وكلف محاميًا بتصفية ما بقي من أملاكه ودينونه. لم يعد هنا حتى الأسس حين دعاه الدكتور درويش خال أمّه لزيارته في نيويورك بمناسبة عيد ميلاد سلمي. مشته هذه الدعوة في الصميم، فقرر المحي. وهنا وتصفية هذه الأشياء، والذهاب

لنيويورك لرؤية سلمي. لم يكن يعلم أنها في نيويورك. لم يرها منذ كانت طفلة حين كان يقابلها مع أمها في الأجازات الصيفية. عدنان يحب الدكتور درويش منذ طفولته: يذكر زيارتهم لبيته في نيويورك، واحتفاء أمّه به. ربما لهذا السبب يحبه، فهو لا يذكر أن الدكتور درويش كان حنونًا عليه بصورة خاصة - ربما أدهاه شيئًا ذات يوم، على الأغلب كتاب. لا يذكر تمامًا. كان يحبه لأن أمه كانت تحبه، وتقول إنها فخورة بأن يكون خالها رجل عظيم كهذا وتدعو لعدنان أن يكبر ويصبح مثله. لكن الأهم من ذلك أنه كان أحيانًا يقابل ليلي ابنة الدكتور أثناء هذه الزيارات. ليلي في مثل عمره تقريبًا، لكنّها أكثر جرأة منه. هي التي بدأت بالتعرف عليه، وأخذته في جولاتها "السرية" بنيويورك. لم يكن في هذه الجولات شيء خاص: عربة التسوق، محل الجرجر، قهوة وعمل لعصير، ومكان على النهر تحت جسر لا يذكر أين، و"غنائب" سرية من التي يتفنّن الأطفال في خلقها. كانت تتحدث طيلة الوقت وهو يصغي، مبهورًا أكثر من أي شيء آخر. حكّت له عن حياتها في مصر والمدرسة هناك، والأولاد والبنات، وكأنيها تنفتح له علمًا سحرها، عالم كلّه أولاد في مثل شكله واسمه، وعاداته وملابسه. قال إنه يحب لو ذهب للمدرسة في مصر تلك التي تصفها، فقالت إنه لو فعل لصار نجم المدرسة، فهو آت من أمريكا.

ظلّ يحلم بذلك أسابيع طويلة: هو نجم المدرسة. ثم سافرت ليلي. ولم يرها إلا بعدها بستين أو ثلاثين، لا يذكر. كانت قد كبرت ولكنها ظلت مندفعة مثلما كانت. واستعادا صداقتهما بسرعة، وأصبح يتحدث هو أكثر

قليلاً لكن ليس بالقدر الكافي، ليشاركها الأفكار التي تدور برأسه. ثم سافرت مرة أخرى، وعندما رأها بعد ذلك كان مع أمه في زيارة سريعة لنيويورك. كان قد أنهى للمدرسة وعلى وشك الرحيل للجامعة بديترويت، وهي اشغلت لثوها لتعيش مع أبيها بعد وفاة أمها. صارت عروساً مثلما قالت أمه لها وهي تحضنها وتضمها. أحبها حين رأها، في ثيابها السوداء، وحننها الداعي للاحتضان. نظر إليها وأدرك أنه يحبها منذ أول صيف قابلها فيه. لكنه لم يجرؤ على مُصارعها بشيء من هذا. وحين طلبت منه مراسلتها من ديترويت أو ما وافقاً في تلغيم، وهو يعلم أنه لن يفعل.

لم يبق عدنان على اتصال بالدكتور درويش بعد مغادرته بيت أعله في واشنطن. لم يرسل ليلي بالطبع، فهي ولاشك لديها معجبين كثيرين في نيويورك، ولن تهتم بشباب مثله. لكنه كان يرسل للدكتور درويش بطاقة معايدة في العيد مثلما طلبت منه أمه، وواظب على ذلك حتى بعد وفاتها. كما توقف مرة أو مرتين منذ سنوات في نيويورك وزاره، وبالصدفة رأى سلمى هناك. خفق قلبه بشدة حين رأها أول مرة، قدر ما كانت تشبه ليلي أمها وهي صغيرة، تلك التي يحتفظ بها في غلبته على الأقل. لم تكن ليلي موجودة بالبيت في المراتن اللتين رأى فيها سلمى، وحمد الله على ذلك. لكنه شعر بحب أبوي غريب يجرفه ناحية الطفلة. ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، ولم تعد تأتي لزيارة جدها درويش. ولهذا استغرب عدنان اتصال الدكتور درويش به، ودعوته له لحضور عيد ميلاد سلمى. مالذي أتى بها؟ هل أتت وحدها أم أن ليلي ستكون بالحفلة؟ لم يجرؤ

على سؤال درويش، سبى بنفسه حين يصل نيويورك هذه الليلة. وصل عدنان لواشنطن مساء أمس، وقّع على الأوراق، وأنهى بقية متعلقات أبيه هذا الصباح، ثم قرّر أن يلتقي نظرة على الماضي: على المدرسة والبيت. قضى ساعة يبحث عن البيت، ثم قالت له سيدة عجوز إنهم هدموا المربع الذي كان البيت جزءاً منه، وبنوا عليه مجمعاً سكنياً متكاملًا. كوندو. نظر للكوندو ولم يشعر بأي شيء. لا شيئاً من قريب أو من بعيد للبيت كما يذكّره، حتى ملامح الشارع تغيرت. لم يضع المزيد من الوقت وجاء للمدرسة، وهاهو أمام كوينسي آدمز.

هنا، في هذا المنتزه، على ما يذكّر، كان ينتظر أباه كل يوم بعد المدرسة. وكان الأب دائم التأخر؛ لا يذكّر عدنان مرة واحدة خرج فيها من مدرسته ووجده. أحياناً يتأخر حتى يرحل كل الأطفال، ولا يبقى في المنتزه أحد غيره. عندئذ، يتظاهر عدنان بأن المنتزه حديقة قصره، وبأنه باشا كبير مثل هؤلاء الذين تقول أمه إنهم جفودها، ويجري في المنتزه يتفقد أحوال أملاكه، وبأمر الفلاحين ويضربهم بالكرباج. وعادة ما تلعب الحيوانات الحديقة الصاة دور الفلاحين المؤتم، وتلقى كرايجه في صمت وخضوع. يفعل ذلك ليظاها بأنه ليس خائفًا، ولا متضايقًا من وجوده وحده في المنتزه. لكن الخوف يعبه في النهاية، فينسحب بكرامته الوهمي إلى أحد الأركان، وينكمش فيه حتى يسمع صوت محرك الإيبالا العتيقة. يتنهج، للحظات قليلة، ويجري نحو السيارة، حتى يرى أباه بقاتمه الفارعة ونظراته الأنارية، وسحته المهذبة فيهدئ من سرعته، ومع حلول الأمن محل الخوف تعود المشاعر الأخرى لموقعها. يدخل الإيبالا،

ويتصلق بالباب، ويحاول عدم إثارة غضب الوالد.

فجأة خطر له هذا السؤال: كيف يمكن لأبيه أن يشعره بالأمن وبالحوف في نفس الوقت؟ غريبة؟ لم يفكر في الأمر على هذا النحو من قبل. لكن الحقيقة أن حضور أبيه كان يطرد ذلك الحوف عنه، ويُزل فيه خوفاً من نوع آخر. الخوف الأول غامض، فهو لا يعرف ثم يخاف حين يكون وحده. يخاف أن يخطفه أحد أو يظل في الشارع ولا يعود لبيته أبداً، وهي أمور عواقبها تُنذر بشور غامضة. مر حارس المدرسة مرة عند المتزحزح ووجده منكسماً في أحد الأركان. كان قد مر وقت طويل منذ انتهاء موعد المدرسة ورحل كل الأطفال والمدرسين والعمال وفرغ الشارع تماماً. توقف الحارس ونزل من على دوابه، وقال شيئاً لعدنان لم يفهمه. الحارس طيب الملامح، لكنه يتحدث بلسنة قوية لا يفهمها عدنان. أدرك أنه يطلب منه الركوب معه على الدراجة، فتردد قليلاً ثم فعل. لا يعرف أين سيأخذه الحارس، فهو نفسه لا يعرف عنوان بيته. لكنه لم يعرف ماذا يفعل غير أن يطيع الحارس، وهنا ظهرت الإمبالا، وانتهى الأمر على خير. ظل بعدها يتجنب الحارس، ويسأل نفسه عما إذا كان الحارس ينوي اختطافه (طلياً الأب قرعه تقريباً شديداً على شروعه في ركوب الدراجة مع الحارس). وجود الأب يطرد هذه الهواجس، لكنه يملؤه بخوف آخر؛ خوفاً من احمرار وجهه المفاحي واستدارته إليه بغتة ثم نزول الصفحة على وجهه، أو الشيء الذي سيفلذه به، أو السباب والوعيد بتقييده بالحبال وضربه بالحزام وتكسير عظامه، أو خوفاً أعظم حين يحدث ذلك لأمه.

في هذه اللحظات كانت كراهيته لأبيه تعصف بأحشائه، ويتخيل نفسه محسكاً بأبيه بهزة من كتفيه المرتبتين ويدفعه نحو الحائط أو خارج السيارة وهي مسرعة. يمتشي ويدعو في قلبه بإخلاص أن يختلي الأب؛ أن يموت فوراً، أو أن يذوي ويتخثر في الهواء، أن يرتطم بالإمبالا أو يسقط بها في الوادي العميق الذي يعبرونه كل يوم. أحياناً يتخيل نفسه وهو يهجم على مقود السيارة عند عبور الوادي ويدفعها لتسقط فيه. لكنه لا يفعل، بل يصمت، ثم تطلب منه الأم أن يتخثر فيفعل، ويساعده الأب على الشيء الذي لا يعرفه. مع الوقت، أصبح هدفه الرئيسي في وجود الأب أن يتفادى ثورات غضبه، بل وبدأ يتعلم بعض الأشياء التي تجلب عليه رضاه، كلمة يقولها تأليفاً لشيء يقوله، مديحاً للأب أو ثناءً على الإمبالا، وكثيراً من الانتماءات. يفعل ذلك تقريباً من أجل الحصول على بعض رضاه وتجنب بعض غضبه. ثم بدأ يستخدم هذه الحركات لتحقيق أهداف محددة، كأمسية هادئة مع أمه أمام التلفاز بدلاً من الذهاب للمكتب، أو دولار يشتري به البرنجلز المتنوع دخوله البيت، أو من أجل الهدف الأكبر: الحصول على ساعة في عيد ميلاده الحادي عشر. مع التمرين زادت قدراته على التحايل، وتعلم أن يذكر لأمه كلاماً أثناء نوم أبيه في الظاهر يعلم أنه سيسمعه ويُعجب به، وبلغت به الحنكة أن قال لها أثناء نوم أبيه المقترض أنه يشعر بالذنب لأن أباه يذل جهداً كبيراً في العمل من أجله، وأنه يحلم باليوم الذي يكبر فيه وبيرة هذا الجميل لأبيه. كان ذلك بهدف تليين مقاومة الأب والحصول على الساعة، وقد أتت المحاولة أكلتها في الأيام التالية؛ حصل على الساعة، لكنه شعر بما يشبه الهزيمة.

الحزّ يزيد! هذه الملابس فعلاً غير ملائمة. قامت السيدة السراء ونفضت ملابسها ودرعت في الرحيل. الوقت يمر، ويجب أن يرحل هو أيضاً. نظر في ساعته؛ طائرته في السادسة ولو فاتته لفاته عشاء الدكتور درويش. يجب أن يكون بالطيار قبلها بساعتين لإنهاء إجراءات الأمن. من الأفضل إذن أن يرحل الآن قبل حلول ساعة الزحام. اقترعت السيدة السراء من الناحية التي يقف فيها. حدّق فيها، فوجدها تنظر ناحيته. أوماً في بحاملة فقطبت جبينها مُستغربة. توقفت ونظرت ناحيته مرةً أخرى:

- معقولة؟ هل هذا أنت؟

- أنا؟

- نعم، إنه أنت، ولد الـ "ماكين"!

- أظنك غلطّة. أنا لست ماكين.

- طبعاً، أنت "الأحمق"، لكنّي وأصدقائي كنا نسُيِّك "ولد الماكين".

- أنت الـ ....

- الحمراء! نعم يا "أحمق"!

قالتها وانفجرت ضاحكة، ثم تقدّمت بطلاقية واحتضنته. ارتبك، ودخل في حضنها يتحفّظ. انفتحت في الحديث: هي تعيش بالحيّ منذ طفولتها، وانتقلت منه للجامعة في نيويورك، واستقرت هناك وتزوجت وأنجبت، ثم عادت لواشنطن بعد انفصالها عن الزوج ووجدت وظيفة بالحكومة الفيدرالية واستقرت في نفس البيت الذي كبرت فيه وتعيش فيه الآن مع طفلها. لا ليست هندية، لا من الهند ولا من السكان الأصليين

مثلما زعموا وإنما من "أوكلاهوما". نعم، ذلك اليوم الذي نطّقت فيه للمدرسة حفلة طعام وكان من المفترض أن يأتي كلّ طفل بطبقٍ يمثل تراث عائلته، وفوجئنا بك ومعك هذه الكعكة الجاهزة المسّاة ماكين:

- كانت تلك مزحة رائعة، لقد ضحكنا وصديقاتي طيلة العشاء. ماذا كان هذا؟

- لم تكن مزحة للأسف. الحقيقة أن أمي أعدت شيئاً يُسمّى "ملوخية"، لكن أبي تشاجر معها لسبب ما وقذفها بالطبق الذي أعدته، ومن ثمّ لم أجد شيئاً أتّي به، فاشتري لي هذه الكعكة من محل بقالة صغير في الطريق. لم يأكل منها غيري في الحفلة.

- حسناً. لست أدري أي المعلمين أسوأ: قذف الأم بالطبق أم شراء هذه الكعكة السخيفة! لكن أتعلّم، لقد جعلك ذلك مشهوراً. معظم صديقاتي ظنن أنك فعلت ذلك عامداً، كنوع من الاستهزاء بهذا التقليد النمطي من المدرسة؛ يعني، معاملتنا على أننا أجانب، ونأتي من أماكن بها طعام غريب لدرجة تنظيم حفلة للفرجة على "تقاليدنا" وكلّ هذا. وجدنا أن إحصار كعكة ماكين، أكثر المأكولات اعتيادية في أمريكّا، عمل ذكي للغاية منك!

- فعلاً!

- لا تتصور لأي درجة! ولد الماكين: الولد الأسمر الوسيم الهادي، يرد على عنصرية المدرسة بمنتهى الأناقة. لقد تحولت إلى بطل! لو سألت أبا منا أن نواعدك ونفها لما تردّدت لحظة. لقد كنا نترفع من منّا متحفظي بهذا الشرف!

ثم استرسلت في حديث عن المدرسة، وغياب الأولاد في هذه السن. ابنها يذهب الآن لنفس المدرسة وهي يسعدنا ذلك. نعم، المدرسة صعبة لأنهاء الأتليات ولكن الحقيقة أنها صعبة للجميع، فالأطفال شديداً القسوة مع بعضهم البعض، ماذا يمكن أن نفعل؟ سعلت بالحديث إليه، ماذا يفعل هنا؟ هل يريد احتساء قهوة؟ هناك مقهى قريب يمكن أن يمسي إليه. آه، لديه طائرة ليلحق بها؟ خسارة. هل يأتي هنا عادة؟ لن تصدق باتي صدقتها حين تقص عليها أنها قابلته. "من باتي؟". "لا تذكرها؟" تلك الفتاة الشقراء النحيفة التي كانت بصحيتي دائماً. لقد كانت هي الأخرى واقعة في غرامك آخر مستين بالمدرسة. آه، لا بهم، هي ستذكرك. لقد كان لك معجبات كثيرات. أين تعيش الآن؟ ياه، ديترويت، لقد اخترت نقطة بعيدة. هل هناك عرب كثيرون هناك فعلاً مثلما يشاع؟ حقيقي أسعدني الحديث إليك بعد هذه السنوات. خسارة ألا نستطيع احتساء القهوة، والحديث عن الماضي قليلاً. ولد الماكين؟ غير معقول، بالمصادفة! صافحتهم، ورحلت بنشاط هابطة التل. ارتدى معطفه مرة أخرى، ووضع يديه في جيبيه، ومضى ليلحق بالطائرة.

## 7

## رباب العمري

وصلت رباب المطار في تمام الخامسة؛ أمامها ساعة واحدة حتى موعد إقلاع الطائرة لنيويورك، وهو وقت ضيق في ضوء إجراءات الأمن الجديدة بالمطار والتي قد تستغرق خمسا وأربعين دقيقة. لكن رباب لا تأبه لذلك، فهي مُصممة أن الوصول للمطار قبل الإقلاع بساعة كافٍ لإنهاء الإجراءات، وإن كانت سلطات المطار قُرّرت تعقيد إجراءات الأمن فذلك مشكلتهم وعليهم تحمل تبعاتها، ليس المسافرين. وإن فاتتها الطائرة بسبب تلك الإجراءات، فهي مستعدة لمقاضاتهم. قضية أخرى لن تضيرها. رباب تكره المطار والطائرات، وعادة ماتذهب لنيويورك بالقطار، لكنها مسافرة إلى لوس أنجلوس بعد ذلك ووجدت للمكتب الذي



تعمل به أن السفر بالقطار سيكون أكثر تكلفة، فاستسلمت لرغبة المكب في ضغط التفاوض. طائرة أخرى لن تضيرها. كان من المفروض أن تقضي الأسبوع الماضي في واشنطن، ولكن المكب أرسلها في مهمة مفاجئة لبوسطن. والآن هذا. تستقل في الساعة إلا عشر دقائق، ومن ثم يمكنها أن تكون بمنزل أستاذها الدكتور درويش في الساعة والنصف. ستعشى عنده، وتقابل سلمي حفيدته وابنة ليلي صديقتها الحميمية أيام الجامعة، ثم تحضر اجتماعين في اليوم التالي، وبعد ذلك ترحل للوس أنجلوس ليومين - لمزيد من الاجتماعات، ثم تعود لواشنطن.

يرهقها السفر، لكنها مضطرة إليه. يثير أعصابها الذهاب للمطار، وإجراءات الأمن السخيفة، والتسير في عمرات المطارات الطويلة. والبحث عن البوابات، والدخول في «الآلة مزدحمة، وحسن نفسها في كرسي ضيق، وجرة شخص يكون في الغالب فظاً، وطعام الطائرات الماسخ، وتغير روتينها اليومي، ثم الوصول وانتظار فتح باب الطائرة، ثم البحث عن سير الحقايب ثم انتظار ظهور حقيبتها، وجرها، والبحث عن المخرج وسط يافطات وإشارات الطائر العديدة، والثور على ناكسي، وشرح العنوان، ودخول الفندق، وإبراز تحقيق الشخصية، وملء استمارة بياناتها وإعطائها رقم بطاقتها الانتمائية، ثم البحث عن الغرفة، والتعامل مع حامل الحقايب الذي ينتظر الإكرامية، ثم إخراج ملابسها وأحوات تجميلها وأوراقها، وفرش ألبانها في الغرفة، ثم النوم في فراش لا تعرفه، والتعامل مع درجة حرارة الغرفة التي تكون عادة أبرد أو أدفا مما ينبغي، وهواء

بينما هم يقيسونها تحاول هي إقناعهم بفعل شيء أو آخر لصالح مساواة العرب الأمريكيين بقية الناس. وهم يومنون، دائماً ما يومنون، حتى حين يكونون غير مقتنعين بالمرّة. وبعد أن تنتهي من مداخلتها، يقولون كلاماً مائلاً أو نصف مائع، ويتذرعون بشيء ما يحول بينهم وبين تنفيذ ما تطلبه منهم: نظم العمل بالشركة، أو بالولاية، أو بالجامعة، اعتبارات المنافسة، ضيق الوقت، هذا أو ذلك، أي شيء. وهي تواصل الزن، وحين يتضح أنهم لن يستجيبوا لشيء تنتقل للموجة الثانية: التلويح بالمقاضاة، ثم تتغير اللهجة، بعضهم يُبدي مزبداً من المرونة وبعضهم مزبداً من العناد، ثم تنتقل للموجة الثالثة: التهديد بالسافر، وتتغير النغمة مرة أخرى. أحياناً ينتهي الأمر بالاتفاق، وذلك نادر، لكن في معظم الأوقات ينتهي بها الأمر مطرودة من المكان، وتكون تلك بداية القضية التي سرفعها المكب.

وصلت للطائر ودفعت حقيبتها الصغيرة أمامها، وتوجهت لماكينه شركة الطيران لتنتهي إجراءاتها بنفسها، هكذا تقلل عدد الموظفين الذين عليها التحدث إليهم واحداً. اختارت مقعدها في الطائرة ومررت بطاقنتها في الماكينة، تسلمت بطاقة الصعود للطائرة، ثم توجهت نحو بوابة الدخول. وقفت في طابور الفحص الأمني. لحسن الحظ كان الطابور قصيراً هذه المرة وتقدم بسرعة. جاء رجل في مثل عمرها ووقف خلفها. طويل، أسمر، عربي الملامح وله جاذبية غير واضحة للنشأ. يرتدي معطف مطر. نظر لها وأوماً في محاولة دون أن يقول شيئاً. ردت الإيماءة وهي تلف لتتأمل أمامها. استغربت أن يرتدي أحد معطفاً للمطر في واشنطن في يوم حار بلا مطر كهذا. تحرك الطابور بسرعة. خلعت حذاءها ووضعتها مع حقيبة يدها في جهاز الأشعة. أخرجت الكمبيوتر الصغير من حقيبتها ووضعت الاثنين في الجهاز، ثم نظرت للسيدة الواقعة بجوار البوابة الإلكترونية، فأومات لها فمرت من الباب. لم تصدر البوابة صفيراً فتوجهت رهاب نحو حاجياتها لتجمعها من الناحية الأخرى للجهاز الأشعة. في أثناء ذلك كانت ترقب بطرف عينها الرجل الواقف خلفها، والذي بدا عليه ارتباك كبير وهو يوزع اهتمامه بين الأشياء التي يفتشها عليه فعلها في نفس الوقت فمطل الحركة. بدا التبرم على موظفي الأمن وهو يمر من البوابة فتصدر صفيراً حاداً، ثم يتذكر شيئاً نسيه في جيبه فيراجع لإخراجه بما يربك الحركة أكثر. أوقفه أحد موظفي الأمن وهو ينادي عليه بصوت عالٍ وشبه آلي:

- سيدي، من فضلك، توقّف هنا. تفضّل من هنا. من هنا، نعم على جنب. لا، دع حاجياتك هنا ستولأها نحن.

التفتت رهاب، وهي تحمل حقائبها لموظف الأمن:

- ماذا هناك؟ لماذا تأخذونني على حدة؟

- سيدي، إن كنت أنهيت إجراءاتك من فضلك لا تقف هنا، تقدّمي للأمام.

- نعم أنهيت إجراءاتي، ولكنني أسألك لماذا تأخذ هذا الرجل على حدة؟

- سيدي، هذه إجراءات أمنية، من فضلك لا تتدخل في عمل الأمن.

- هل تأخذونني على حدة لأنه عربي الملامح؟

- سيدي، من فضلك، لا داع لهذا الحديث.

- أنا أسألك سؤالاً.

- هل أنت معه؟ هل تعرفين هذا الرجل؟ من فضلك تحي جانتا، تعالي من هنا مع حاجياتك.

- لماذا آتي على حدة؟ لقد أنهيت إجراءاتي. هل تشكّ في سلامة إجراءات الأمن التي قمت بها؟

- سيدي، يمكن لوى جواز سفرك وبطاقة صعود الطائرة؟

هنا تدخل الرجل صاحب الملامح العربية لأول مرة:

- من فضلك ياسيدة، لا داعي.

— من فضلكما أنتما الإثنين! تعالاً على جنب.

وهكذا، بين تعلّقي منها، ومحاولة منه لإبقائها خارج شعونه، وقلق عصبي من جانب رجل الأمن، انتهى بهما الأمر معزولين في غرفة صغيرة يقف على بابها اثنان من موظفي الأمن؛ رجل وسيدة. مدت رباب يدها نحو الرجل:

— رباب العمري، حمامية.

كانت يد الرجل في طريقها لمصافحة يد رباب الممدودة ناحيته عندما جاء صوت حارس الأمن يطلب منهما الهدوء.. تردّد ثم أعاد يده بجانبه، وظلّت يد رباب وحيدة في الهواء لثانية قبل أن تنبه إلى أن جارها قد وجّه تركيزه للحارس. سحبت يدها وتركته في حاله، كيلا تزيد من ارتياكه. تردّد الرجل لحظة، ثم مدّ يده في ضيق:

— عدنان فكري، محاسب.

سأته عن وجهته، فأجاب بالقضاب: نيويورك. قالت إنها هي أيضاً ذاعية لهناك. سأته إن كان من واشنطن كوسيلة مهذبة للسؤال عن بلد الأصلية، فرد بأنّه ولد وعاش بواشنطن وهو صغير، لكنّه رحل منذ سنوات طويلة فهزّت رأسها، وعقّلت بأنّ عدد الناس الذين تربوا في واشنطن واستمروا في الحياة فيها قليل. انتظرت أن يوضّح من أي بلد جاء أو يسأله عن أصلها، لكنّه لزم الصمت. لم يكن ينظر إليها، ولا لشيء آخر محدد. ينظر أحياناً لباب الغرفة الصغيرة التي اقتادوهما لها بجوار

أجهزة الفحص، وأحياناً ينظر أمامه في الفراغ. كان مرتبكاً، غير متأكد إن كان عليه أن يكون ممثلاً لها لمحاولتها مساعدتها، أم ناقلاً عليها لجعلها المشكلة أكبر بتدخلها الذي لم يطلبه. علّقت رباب بشيء ما لتخفّف من حدّة الموقف لكنّه لم يرد. بعد دقائق جاء رجل الأمن واتّحى به جانباً. سأله بعض الأسئلة، ثم أشار له بالذهاب حيث كانت أمنتته، فخرج دون أن ينظر لها. هزت رأسها في سخرية وانتظرت. جاء رجل الأمن بعد قليل وأشار لرباب في تزيّم لا يحاول إخفاؤه. أعطاهما أوراقها وأشار لها بالرحيل، فسأته عن مصير عدنان. خفّف بشيء لم تسمعه وتركها، وعاد لأجهزته.

سارت في ممرات المطار تبحث عن بوابة طائرتها. أين ذهب هذا العدنان؟ وأي اسم هذا؟ هل هو فلسطيني؟ يبدو في مثل سنّها، ربّما أكبر بسنة أو اثنتين. ملأته وهياته تُوحى بأنّه غير متزوج، أو على الأقل ليس لديه امرأة تعتني به. ربّما لديه زوجة لاتقيم في الهندام، أو غيبة، وربّما زوجته آتية لتوّها من بلده، ولا تفهم ما يجب ارتدّأه هنا. لم تستطع أن تضع يدها على الشيء الخاطيء في هندامه، ربّما هي حياته نفسها، طريقة وقفته، حركة رأسه وجسمه، لكن لديه هذه الجاذبية التي لا تعرف من أين تأتي. وجدته وفقاً بحقّق أمام شاشة الإعلان عن مواعيد وبوابات إقلاع الطائرات. توجّهت ناحيته وبسرعة ذهنها المتقدّ لمحت رقم بوابة طائرة نيويورك على اللوحة قبل أن يجدها هو: "55، من هنا". أشارت بانجاء البوابة، فتبّه لوجودها واتّسم ابتسامة متعثرة.

ساراسوتا نحو البوابة. لم يبق سوى عشرين دقيقة على موعد الإقلاع. سيصلان للطائرة ويفترقان، ربما للأبد. تملكها الفضول. سألته إن كان يعيش في نيويورك فنفي وصمت، فلم تستسلم وسألته عن سبب زيارته لنيويورك إذاً، شيئاً فشيئاً، وكأنها تقتلع أسنانه، فهمت أنهما ذاهبان هما الاثنان لعشاء الدكتور درويش. شرح لها أنه خال أمه، وفهم منها أنها تلميذة قديمة لدرويش وصديقة لليلي، وذهابه لحضور عيد ميلاد سلمى، وتذكراً على الصدفة التي جمعتهم في المطار. وعند هذه النقطة التي تصوّرت أن يبدأ منها الحديث بشكل أسهل، صمت تماماً. وصلا للبوابة المخصصة لطائرتهما.

كانت البوابة مكتظة بالمسافرين، وهناك أطفال كثيرون يصرخون ويهجون في المكان، وشباب تمكّد على الأرض ينتظر، ولا مقاعد خالية. توجّهوا للموظفة، وسألها في نفس واحد عن موعد الإقلاع، فعلموا أن الطائرة ستأخر لمدة خمس وأربعين دقيقة. تبادلوا إبداء الاتزعاج، فلذلك يعني تأخرهما على مواعدهما. لكن الموظفة هزّت كتفها بالأيسر ففعل شي، وتركتهما ومضت. نظرت رباب لعدنان، وأخبرته أن لديها بطاقة تسمح لها باستخدام صالة رجال الأعمال واصطحاب ضيف، وعرضت عليه في دلال مازح أن يكون ضيفها. لكن عدنان ارتاع من الفكرة؛ كيف يذهب لقاعة رجال الأعمال وهو مسافر في الدرجة السياحية؟ لا يعتقد أن ذلك من حقّه. أكدت له أن ذلك هو النظام المعمول به، وأنها لا تنوي تهريبه للقاعة، لكنه أبدى تردداً كبيراً. قالت له في نفاذ صبر إنها لا تريد التطفل وإنه إن كان يفضل الانتظار خمساً وأربعين دقيقة وسط

صراخ الأطفال بدلاً من الجلوس بهدوء في القاعة المميّزة، وتناول شراب أو قهوة، وقراءة جريدة أو مراجعة بريده الإلكتروني، فإنها لن تحرمه من هذه اللقعة. ردّ بشيء غير واضح عن أنه لا يريد أن يبدو وكأنه يتسول خدمة غير مخصصة له. نظرت له بنفاذ صبر فسار معها.

استقرا في القاعة، وسألته عمّا يريد أن يشربه فشكرها، وقال إنه سيقراً الجريدة. أتت نفسها بكأس من النبيذ الأبيض وكوب ماء وعادت. جاء بالجريدة وجلس بجوارها، لكنّها عاجلة بالحديث قبل أن يشرع في قراءة جريدته. تطوّعت بإخباره أنها على عكسه ولدت وترتبت في مصر، لكنّها أتت لواشنطن واستقرت بها، ولم تعد تستطيع أن ترحبها. أوماً موافقاً وهو يكرّر "نعم، نعم". لم يكن في كلامها ما يستدعي الموافقة. نظرت إليه وهي تتساءل فيم يفكر؟ كيف يراها؟ هل يشعر بأنها تطارده أم أنه فقط خجول وغريب الأطوار؟ كانا قد استأثنا بالحديث بالإنجليزية بعد الجمل العربية القليلة التي تبادلها عندما اكتشفا أصولهما المشتركة. تحدّث بكلمات قليلة عن عمله كمحاسب بشركة السيارات الكبيرة بديترويت، وبكلمات أقل عن عائلته وعن حياتهم السابقة بواشنطن، لكنهما تحدّثا ببعض الأسهاب عن واشنطن نفسها، وخاصة ميدان دوبون حيث تسكن والذي بدا أنه يحبه بشكل خاص. تساءلت عمّا إذا كان له ذكرى خاصة في المنطقة، ربما حييته الأولى. ثم أدركت فجأة أنه يشبه ألكس زوجها السابق. انزعجت من هذه الفكرة وبدا عليها ذلك، وظن عدنان أنه قال شيئاً ضايقها فصمت. بعد عدة ثوان من الصمت الخرج، بدأ يقرأ في جريدته، وأخرجت هي تليفونها، وبدأت تراجع بريدها الإلكتروني.

ثم عاودت الكرّة:

— هل عشت بدتهرويت فترة طويلة؟

— نعم، حوالي خمسة وعشرين عامًا.

— باللهول! خمسة وعشرين عامًا في نفس المكان؟ ألم تشعر بالملل؟

— الملل موجود في الأماكن الأخرى أيضًا.

لا بأس بهذا الرد، فكّرت. لكنّه صمت مرّة أخرى وبدأت تشعر وكأنّها تطارده، فصمتت وصمت هو الآخر. بعد خمس دقائق أخذ المبادرة، لأول مرة، وسألها عن عملها. شرحت له رباب أنّها محامية في مكتب للدفاع القانوني عن الحقوق المدنية للأقليات، وأنّ اختصاصها حقوق العرب والمسلمين. أبدى بعض الاهتمام، فاسترسلت في شرح العمل الذي تقوم به، ومدى صعوبته وكيف زادت هذه الصعوبة أضعافًا مضاعفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أومأ برأسه عدة مرات، وعلّق بشيء عن صعوبة وضع الأقليات بشكل عام. سألته عمّا يقصد، فأجاب أنّ الأقليات محكّوم عليها بأنّ تخضع للتمييز. انتابها غضب مفاجئ، وسألته بمنزلة منهيكم، وبالعربية لأول مرة منذ بدء الحديث:

— يعني إيه إن شاء الله؟ يعني عادي إنهم يدوسوا علينا؟ نقول لهم إحنا آسفين للإزعاج، اتفضلوا، دوسوا كمان؟

— ما قصدتش كدة، لكن التمييز ده في كلّ حاجه، من البقال إلى سلطات الأمن، ومش كلّ حاجة يتنفع بترفع فيها قضية.

— أهو الكلام الفارغ ده اللي جايينا لورا.

— حضرتك ليه عدوانية؟

— ولا عدوانية ولا غيره، بس أنا ماليش طلقطان على الكلام ده. دي حوارات خلّصتها وأنا عندي خمسة وعشرين سنة.

نظرت إليه وشعرت أنّه ينكمش. كأنّ ملامح وجهه تصفر في الحجم. حلّ عليه صمت كامل. بعد دقيقة واحدة قال إنّها سيذهب لورى ما إذا كانت الطائرة على وشك الإقلاع. قالت له ألا فائدة من كثرة السؤال، فالطائرة لن تقلع قبل ربع ساعة أخرى، لكنّه تخبّج بأنّه يريد شراء شيء، وقام في تلعنم شومًا لها برأسه. أومأت له بدورها ومضى بسرعة. عادت لتفقد بردها الإلكتروني بغضب وهي تلعن بصوت مسموع: "باله من متخلف". تسأل نفسها عمّا أصاب الرجال. أنكس كان يشبه هذا الأخرى؛ جذّاب ولطيف، وطيّب وذكي، لكن ليس بما فيه الكفاية. قالت لنفسها ساعتها إنّ ذلك لا يهم، فالكس يفهمها ويتفهمها ويحتني بها، ويحتويها ولا يعاني أبدًا من مشكلات وعقد الرجل الشرقي. كانا أصدقاء في البداية، وكان يحتمل كلّ ترهاتهما وسخافاتهما حتى حين يفر منها بقية أصدقائهما. ثم، مثلما يحدث في الأفلام الباهتة، انقلبت الصداقة لحب، وظنّت أنّه رجل حياتها. تزوجا بسرعة، رغم اعتراضات ليلي. ربّما لم تكن هي نفسها متأكدة من صواب اختيارها، فأسرعت بالزواج قبل أن تقعها ليلي بالمدول عنه.

لم يدم هذا الزواج سوى عام وبضعة شهور. بعد أربعة شهور من

زواجهما فقدت عملها بمكتب المحاماة للمروق الذي كانت تعمل به منذ تخرجت. كانت حديثة النخروج، مخلصه ومجدة في عملها. قالت لها مديرتها ذات صباح إنهم مضطرون لتخفيض عدد المحامين بالمكتب، وأن وظيفتها ستلغى. بعدها بشهرين قابلت زميلة سابقة لها بالجامعة، واكتشفت إنها عُينت في نفس المكتب، تقريباً في نفس عملها القديم. صدمت ولم تفهم في البداية، وانتابها شكوك حول كفاءتها. لم تكن قد وجدت عملاً آخر، لم تغلق محاولاتها في العثور على وظيفة مماثلة لتلك التي فصلت منها. دعمها العكس بشدة لكن شعورها بالفشل ظل يتزايد حتى توقفت تمامًا عن البحث عن عمل، وأصبحت تقضي وقتها كله في المنزل. تذكر تلك الفترة كأسوأ فترة في حياتها. رحلت ليلي في نفس الوقت عاتدة لمصر، فاثلة إنه لا سبب بدعورها للبقاء في أمريكا، وإنما كي تعمل شيئاً مفيداً عليها العودة للمكان الوحيد الذي يحدث وجودها فيه فرقاً. أكلها ذلك أيضاً، ليس فقط لأن ليلي لم تر في وجودها وصادقتها مسألة ذات أهمية، ليس فقط لأنها اتخذت هذا القرار وحدها ودون مناقشة معها، وإنما لأن ليلي ضغطت على الجرح الذي كانت تشعر به، وهو أنها عديمة القيمة وبلا فائدة. ظلت تطفو هكذا في الحياة دون مايشغلها، ثم قابلت كريستي.

كانت كريستي ثملة تماماً عندما اعترفت لرباب أن المكتب قرر الاستغناء عنها بسبب أصلها الأجني. قالت إن الكثير من العملاء أبدوا عدم رغبتهم في أن تتولى قضاياهم، إما عدم ثقة في كفاءتها أو لمجرد شعورهم بأنهم لا يستطيعون التواصل معها بنفس الدرجة التي يتواصلون

بها مع محام يشاطرهم اللهجة ولزاج وروح الدعابة. بعد فترة أصبح وجودها يشكل عبئاً مالياً وإدارياً على المكتب، لكنهم لم يستطيعوا تبرير إنهاء خدمتها، فقاموا بإلغاء الوظيفة نفسها، ثم أعادوها بعدها بشهرين وعينوا تلك الزميلة التي قابلتها رباب. اعترفت كريستي أنها شعرت بالرثاء لرباب لكنها تفهمت ظروف المكتب. رباب كانت قد ثملت أيضاً عندما بدأت كريستي هذا الحوار، لكنها شعرت أنها تلتقي من نوم طويل. عندما أنهت كريستي حديثها قامت رباب واقفة، وجمعت حاجياتها كي ترحل. طلبت منها كريستي توصيلها لمنزلها إذ لن تستطيع في حالتها تلك القيادة أو حتى العودة في تاكسي، وهنا انفجرت فيها رباب بسيل من أقذع الشتائم التي فاجأت رباب قبل غيرها من رؤود البار. صمت المحيطون بهما كليهما في حين انتهالت رباب بالسباب على كريستي الغير فاعمة لما يجري لها، ثم سحبت حقيبتها وخرجت من البار.

حكى رباب القصة في نفس الليلة لأكليس الذي استمع بصبر وتشكك. لم تفهم رباب بالضبط رد فعل أكليس، لكنه ظل يشكك في صحة القصة في نفس الوقت الذي بدا فيه وكأنه قد قبل فكرة الربط بين أصل رباب الأجني وعدم قدرتها العثور على وظيفة تناسب مؤهلاتها. الأسوأ من ذلك، على الأقل في نظر رباب، أنه بدا وكأنه قد تعايش مع الفكرة باعتبارها أمر طبيعي، فصار يُنبئها عن التقدم للوظائف المرموقة على أساس أن ذلك "تضيق لوقتها"، فهم "طبقاً لن يقبلوك بهذا المكتب". كان الغضب يتزايد داخل رباب يوماً بعد يوم، وفي حين عادت ليلي لمصر فإن رباب قررت أنها لن ترحل، ولن تستسلم، ولن تقبل بتلك الفكرة

التي قبل بها الكس الجبان. واجهته أكثر من مرة، وتشاجرا كثيرًا، واتهمها بأنها تعاني من عقدة اضطهاد مرضية، واتهمته بأنه ليس رجلًا، وظلّت الأمور تتدهور حتى انتهى الأمر بطلاقهما. كان ذلك تقريبًا في نفس الوقت الذي أرسلت فيه ليلي من مصر تخبرها بأنها قابلت لقمان وقررت الزواج منه.

أحيانًا كثيرة تفكر رهاب أن حياتها ويلي تكملان بعضهما بشكل من الأشكال. كأنّ لهما معًا نصيبًا واحدًا عليهما اقتسامه. وحين تركت ليلي عملها في مصر، وحملت فيمن سيصبح بعد ذلك سلمي، كانت رهاب قد نحت حياتها الشخصية جانبًا، واستقرت حياتها كمحامية للدفاع عن حقوق الأقليات. لو كانت قد حملت من الكس لربما كان طفلها الآن في عمر سلمي. على العموم لم تتزوج رهاب ثانية، لكنّها دخلت في علاقة جادة كادت أن تقضي إلى زواج، وكان ذلك في نفس الوقت الذي انفصلت فيه ليلي عن لقمان. كادت العلاقة أن تقضي لزواج، لكن رهاب قررت الاحتفاظ باستقلالها، وقد كان. ومن وقتها وهي تعيش وحدها، لا تريد أحدًا يحكم عليها أو يحاسبها ولو معنوياً، وتسال نفسها خلسة إن كانت قد أخطأت الطريق.

لئن ذهب للتخلف عدنان؟ سألت نفسها وهي تنظر في ساعتها. لقد حان موعد إقلاع الطائرة؛ قامت واتجهت للموظفة الجالسة عند مدخل القاعة، وسألتها ببراءة عتًا إذا كانوا يعرفون الآن للوعد النهائي لإقلاع الطائرة المتجهة لنيويورك. نظرت لها الموظفة بارتباك، وسألتها: - نيويورك؟

حدقتها رهاب بنظرة استغيا، وأومأت في صمت. نظرت الموظفة في شاشة الكمبيوتر، وطلبت منها بطاقة صعود الطائرة. أعطتها رهاب البطاقة. نظرت فيها الموظفة بإيمان، ثم نظرت للشاشة مرة أخرى. نادت على زميلتها الأكبر سنًا وأرنتها البطاقة والشاشة. نظرت لها للموظفة الأكبر في نصف دهشة ونصف استهانة، وقالت ببساطة:

- سيدتي: لقد أفلتت طائرة نيويورك منذ ربع ساعة.

- ماذا؟

- أفلتت. لقد نادينا على الركاب أكثر من مرة.

- لكن للموظفة عند بوابة الرحيل قالت إنها لن تغلق قبل السادسة وخمس وأربعين دقيقة.

- نعم، لكن الطائرة حصلت على تصريح مغادرة المطار قبل ذلك، فنادينا على الركاب وأرسلنا الطائرة. لقد جاء الجميع فلماذا لم تأت؟

- لماذا لم آتي؟ لأنّ زميلتك قالت "في السادسة وخمس وأربعين"، والساعة الآن السادسة وأربعين دقيقة!

- نعم، ولكن هل تسيرين خلف أيّ كلام يُقال لك؟

- أي كلام؟ هذه موظفة بوابة الرحيل التابعة لكم! أليس من المفترض أن أصدقها؟

- على العموم الطائرة رحلت.

- والحل؟

- لا أدري، لا يوجد طائرة أخرى لنيويورك الليلة، أول طائرة غداً في التاسعة صباحاً.

- غداً! لا يمكن. لدي ارتباطات في نيويورك الليلة. لا بد من أن أرحل الآن.

- لا أدري كيف يمكن أن ترحلي الآن ياسيديتي! لا يوجد طائرات لنيويورك الليلة من هذا المطار.

- ما هذا الكلام؟

- أنا آسفة، لكن لا يوجد ما يمكن فعله.

قالت ذلك ومضت. ظلت رباب واقفة في دھول تنظر للموظفة الأصلية المرتبكة، بينما انتهكت الأكبر سناً في عمل ما على الكمبيوتر الخاص بها. ما هذا الهراء؟ شعرت بموجة من الغضب تعصف بها، لكنها لمالكث نفسها.

- سيدتي! من فضلك.

- نعم.

- ماذا يُفترض بي أن أفعل الآن؟

- لا أدري، ليس هناك سوى أن تقضي الليلة في واشنطن، وتعودي لنا في الصباح.

- وماذا أفعل في ارتباطاتي بنيويورك؟

- لا أدري. ربما هناك طائرة أخرى من مطار دالاس.

- هل يمكن أن تقضي ذلك؟

- لا، هذه ليست مسؤوليتنا.

- كيف؟ أليست مسؤوليتكم أنكم ضلّلتكم راكبة؟

- سيدتي نحن لم نُضللك. لقد نادينا أكثر من مرة على الركاب، وأنتِ التي لم تستجبي للداء. أين كنت؟

- أين كنت؟ هل تقترضين أن أجلس هنا طيلة الوقت أترقب نداءً لا يُفترض فيه أن يأتي؟ لماذا سأنتصت لهذه النداءات الغير مفهومة وأنا أعلم - وأنتم قلتم - إن الطائرة لن تُقلع قبل خمس وأربعين دقيقة؟ - لقد جاء الجميع.

- فعلاً؟ ماذا لو كنت صمّاً؟ ماذا لو أن سمعي ثقيل؟ هل يُفترض في المعاملة ضد ضعاف السمع؟ أليس من حقّ ضعاف السمع ركوب طائراتكم المتأخرة عن موعدها عندما تقرّرون أن تُبكرُوا موعدها مرة أخرى؟

- ليس بوسعي مساعدتك ياسيديتي.

- هل هناك من يمكن أن أقدم له شكوى؟



- بالطبع، ستجدين بياناته على موقعنا على الإنترنت. والآن، اسمحي لي فلدي أعمال أخرى.

وتركتها ورحلت. شعرت رهاب بالدم يصعد لرأسها. لا يمكن أن يفعلوا هذا! لا يمكن أن يلقوا بها في الشارع هكذا! أين حقوق الراكب؟ طيب، ولنفترض أن خطأ ما قد حدث، ألا يجب على الأقل أن يعتذروا ويحملوا المسؤولية؟ لكن هذه المرأة تتهمها هي بأنها أساءت التصرف. الكلية. خرجت رهاب من القاعة، وتوجهت لمركز خدمة العملاء. انتظرت في الصف الطويل وهي تغلي. بعد ربع ساعة كاملة وصلت للموظف. كان ألطف قليلاً، لكنه لم يحد عن موقف زميلته. قال الموظف إن سياسة الشركة ونود التذكرة تحول دون تحملها لمسئولية هذا الوضع. لم؟ لأن الخطأ من الراكب. كيف؟ غدنا قصة النداء وعدم استجابتها. عليهم اللعنة جميعاً. قررت رهاب أنها ستكتب لقسم الشكاوى فيما بعد. لو استطاعت للكمت وجه هذا الموظف حتى يدمى. تركت الموظف وعادت للقاعة.

دخلت على شبكة الإنترنت تبحث عن طائرة أخرى من مطار دالاس أو عن طائرة أخرى تابعة لشركة أخرى، عن أي شيء يمكن أن يأخذها لنيويورك قبل الثامنة. فجأة تذكرت عدنان؛ لابد أن الأخرق لحق بالطائرة، مادام ظل ملتصقاً ببوابة الرحيل كالذليل، فلا بد أنه سمع النداء. طبعاً لم يفكر في البحث عنها. لم يجد شيئاً ذا بال على الإنترنت، لا طائرات أخرى في موعد معقول. ماذا تفعل إذا؟ فجأة خطر ببالها البحث عن القطارات. ربما تلحق قطار الساعة والنصف. ستحتفظ بكل

التذاكر والفواتير، وترسلها لشركة الطيران، وإن رفضوا دفعها وتعريضها ستقاضيهم. هؤلاء الملاحين.

حملت حقيبتها الصغيرة وتوجهت لباب الخروج. نظرت للموظفة الأكبر سناً ولمحت على وجهها نظرة شماتة. شعرت بحقد دفين على هذه المرأة: كيف يمكن لموظفة أن تكره أحد الركاب هكذا؟ ماذا فعلت لها؟ فكرت في أنها يمكنها أن تقاضيهما، لكنها كانت تعرف أن ذلك عبثاً. لا يمكنها إثبات سوء النية أو الغلظة في المحكمة، ولا حتى في شكاوى للشركة. لا يمكنك أن تثبت أن شخصاً يعاملك بكرارية. ليس أمامك إلا تلقي الكراهية في صمت. وهي تلقتهما، والآن تتلقى أيضاً نظرة انتصار المرأة الكارمة. تذكرت عدنان ومقاله عن التمييز، وعدم إمكانية منعه بالقضاء فزاد غضبها أكثر، على المرأة الكارمة وعلى عدنان وعلى نفسها. عزت نفسها بأنها لن تتركب على طائرات هذه الشركة مرة أخرى، وقامت شكها في أن ذلك الأمر يمكن أن يتكرر من أي شركة أخرى، وخرجت من القاعة.

ماذا تفعل الآن؟ ليس معها ملابس؛ لأن الشركة اللعينة أرسلت حقيبتها على الطائرة. لا يمكنها شراء شيء الآن ولا في الصباح، لا وقت. ماذا ستفعل: تذهب بملابسها للعشاء، ثم بنفس الملابس غداً لاجتماعاتها الهامة؟ لا يمكن أن تدخل قاعة الاجتماعات بالشكل الذي ستكون عليه ملابسها في الصباح بعد ليلة كهذه. يجب أن تجد مكاناً في نيويورك في الصباح الباكر؛ تشتري منه شيئاً وترتديه في الحل، وتلتحق بموعدها في العاشرة، ثم تلتحق بالطائرة الذاهبة للوس أنجيلوس. غير مؤكد أن ينفع هذا

السيناريو. الأمر كله مزعج. لعنة الله على الشركة وعلى الفوضى. جال بخاطرهما أن مرتكبي هجمات 11 سبتمبر قد يكونون في الأصل ركباً على متن هذه الشركة اللعينة رحلت طائراتهم بدونهم، وأسيء معاملتهم، وتحطم جدول التزاماتهم دون أن يتحمل أحد المسؤولية أو يساعد في إصلاح ما دمر، فقرروا اختطاف الطائرات الموجودة وتفجيرها انتقاماً من شركات الطيران. تشعر الآن بغضب يكفي أن يجعلها قادرة على إيذاء المسئول عما يحدث لها لو أمسكت به. لكنه غير موجود، وربما ليس له وجود فعلي؛ مجرد نظم وقواعد، وأخطاء، وأشخاص عديموا التعاطف. ماذا تفعل الآن؟

متسحب لمحطة القطار الآن، فوراً، قبل أن تفقد رصدها من الغيظ. أنعشتها الفكرة الجديدة. قامت لتخرج نحو موقف التاكسيات، فلمحت عدنان جالساً على أحد المقاعد في نهاية الصالة. إذن لم يسافر هذا للتخلف! فكرت أن تتركه ومضي، ثم عادت وغيرت رأيها. توجهت لحيث يجلس، وسأله بالعربية:

— فانتك الطيارة؟

نظر إليها وأشار يديه أن نعم. سأله عَمَّ سيفعل؟ فقال إنه غير تذكرته ليعود إلى ديترويت مباشرة. وماذا عن العشاء؟ سيتصل بالدكتور درويش ويحتلر له. ولم لا يذهب معها بالقطار؟ لأن القطار يصل في منتصف الليل، سيكون العشاء قد انتهى، وستعين عليه السفر في اليوم التالي لديترويت، ومن ثم فلا معنى لذهابه هناك. وقفت لحظة أمامه دون أن

تعرف ماذا يمكن أن تقوله. لا تعرف حتى ماذا تريد منه أن يفعل. كلامه منطقي، وهي لا تعرفه، فماذا تريد منه؟ أن يأتي معها؟ لو أراد السفر معها لكان عليها أن تطلق، فسيكون ذلك أمراً غريباً حقاً. فلم لا تتركه في حاله ومضي؟ تنظر إليه ولا تعرف ماذا تريد منه أو يريد أن يفعل، تسأل نفسها لم تشغل نفسها به أصلاً ولا تجد إجابة فيريد ذلك من غضبها عليه وعلى نفسها وعلى شركة الطيران. "كفى ذهني الآن". قالت لنفسها، أمرت نفسها، فسلمت عليه مرة أخيرة، ومنت له التوفيق ومضت نحو باب الخروج تبحث عن التاكسيات.

وجدت تاكسيًا وحيداً وبه سائق نصف نائم. نادته وركبت، وقالت له بلهجة أمرية: محطة الاتحاد. تحرك التاكسي، وبعد نصف ساعة وصلت المحطة. عندما تحرك القطار برهاب شعرت أخيراً بأنها تستعيد بعض السيطرة على مجريات الأمور. لكنها لن تصل نيويورك قبل منتصف الليل. وداعاً لعشاء الدكتور درويش ولللقاء سلمى. لن تتمكن حتى من رؤيتها في الغد، حيث سيكون عليها اللحاق بطائرة لوس أنجلوس وعندما تعود ستكون سلمى قد رحلت. فكرت في الاتصال والاعتذار لكنها لم تجد في نفسها من الشجاعة ما يكفي لمواجهة سخط الدكتور الأسطوري النظام. ستصل به في الغد وتشرح. ستصل محطة بن عند منتصف الليل، وستكون المحطة مهجورة عند ذلك الوقت. ستأخذ تاكسيًا غريباً ما سيكون الوحيد أمام المحطة وتذهب لفندقها. ستكون مُنهكة، ستكون ليلة مُنهكة؛ أغضمت عينها كيلا تفكر في كل ذلك، ونامت.

## 8

### منتصف الليل في محطة "بن"

عند منتصف الليل، أي بعد نصف ساعة بالضبط، سبغ سلمي الواحدة والعشرين. نظرت لساعتها مرة أخرى ولامت نفسها على تأخرها؛ لابد وأن جدّها غاضب جدًّا. لو لم تخطئ، في الرصيف لما فاتها قطار الثالثة والنصف، ولوصلت نيويورك في موعدها، وحضرت حفلة عيد ميلادها الذي يُعده لها جدّها منذ أسبوعين. لقد دعى الكثيرين، تقريبًا كل من له صلة بها في أمريكا، وهو لا يحبُّ عدم الدقة في المواعيد، فما بالك بأربع ساعات فرق! متصل في منتصف الليل، وسيكون المدعوون قد انصرفوا، وربما ذهب جدّها نفسه لفراشه. تحمد الله أنه ترك لها نسخة من المفتاح،

فما كانت لتجروا على إيقاعه في هذا الوقت المتأخر. لكن لم تلوم نفسها؟ لقد أربكها كثرة الأرصفة والتعليمات والإشارات في اللحظة، وهم لا يسمحون للركاب بالتوجه للرصيف إلا قبل موعد رحيل القطار بعشر دقائق، فيتكس الجميع عند الأبواب، وإذا أخطأت، مثلما فعلت هي، يكون من الصعب العودة للمكان الصحيح في الوقت المناسب. ولا أحد تسأله أو يرد عليك. عندما فهمت أنها على الرصيف الخطأ جرت ناحية الرصيف الصحيح، لكن القطار كان قد أغلق أبوابه عندما وصلته. كان واقفاً، وظلت تدق على الباب وهناك مفتش أو محصل يقف داخل القطار وينظر لها مبتسماً وهو يهز رأسه، ثم تحرك القطار وتركها على الرصيف. هكذا. عادت وهي دامعة العينين للصالة الرئيسية ولحسن الحظ وجدت جيسي جالسة في المقهى لم تغادر. شرحت لها بين دموعها ماجرى، وجيسي تربت عليها وتعلن "أبو شركة القطارات" وسلمى تبكي وتضحك، ثم أخذتها جيسي لشباك التذاكر واشترت لها تذكرة جديدة للقطار التالي. ادّعت جيسي أنها السبب في تأخير سلمى، ورفضت أن تأخذ ثمن التذكرة.

المشكلة الحقيقية أن القطار التالي يغادر واشنطن في الساعة والنصف، ويصل نيويورك قرب منتصف الليل. فرعت سلمى: "جدي سيقبلي". طمأنتها جيسي وهي تضحك مؤكدة لها أن جدّها لن يقتلها، على الأقل ليس بسبب تأخيرها، وقامت بالاتصال به نيابة عنها وشرحت الأمر له. لم يكن سعيداً، وأدرت جيسي من اقتضابه في الحفلة أن الرجل حائز

ويكظم ضيقه. سألها لماذا انتظرت سلمى حتى آخر لحظة؟ لماذا لم ترحل في قطار الصباح أو الظهيرة؟ وكيف فاتها القطار بالضبط؟ ولم فاتها هي بالذات في حين لحق به بقية الركاب؟ وما الذي يضمن أنها ستلحق بالقطار التالي إن كانت المشكلة أنها تخطئ الرصيف؟ استخدمت جيسي كل لحظة مع الجد الثيرم حتى أذعن، لكنه طلب منها أن تخير سلمى أن حافلة عيد الميلاد قد فسدت بسبب فعلتها، وأنه مضطر لإخبار الضيوف بذلك، وأن تحاول عدم اقتراف مزيداً من الأخطاء حتى تصل.

- يا الله شو صعب جدك!

- هو إنت شفتي حاجه!

جيسي، ياسمين في الأصل، صديقة أبيها، وهي أمريكية من أصل لبناني، مرحلة ودافنة وترحابية، وتبدو أصغر بكثير من سنينها الخمسة وأربعين. أخذتها في اليوم الأول لزيارتها في جولة بالسيارة، كي ترهبها معاً واشتطن العاصمة. جدّها لم يأخذها لأي مكان في نيويورك بل أعطاهم خريطة وبطاقة لركوب المترو عند وصولها، وتركها تتجول وحدها. المكان الوحيد الذي اصطحبها إليه كان متحف الفن المعاصر حيث شاهدوا معرضاً للصور لم تفهم منه شيئاً. غير ذلك تركها مع نفسها، وفي المساء يسألها بالقتضاب كيف كان يومها وما إذا كانت جائعة، ثم يتركها ويخدل للنوم. أبوها لا يراها إلا قليلاً، لأن أمها أصرت ألا تقيم معه وهو مشغول في المستشفى معظم اليوم.

جيسي أخذتها منذ أول يوم إلى ميدان "ديون" حيث تعيش سونيا في مطعم يبيع كعباً قديمة بجوار الطعام والشراب. وحكت لها حكايتها مع أميركا منذ هاجر إليها جدها في أول القرن العشرين، وهو لا يحمل في جيبه غير خمسة عشر دولاراً، هو، الطبيب المحترم في بلدته الصغيرة في لبنان، ترك كل شيء ورحل فراراً من قيود الحكم العثماني وبحسباً عن حياة حرة. قضت عليها كيف أنه رغم ذلك عندما أورد الزواج عاد إلى لبنان فتروج بنت من قرنته، وهو نفس الشيء الذي فعله أبوها.

- كلهم هيك الشباب العرب، يصاحبوا من هون، بس تيجي على الزواج إلا بدعهم بنت من الضبعة. يا حرام راح يضلوا هيك ما فاهما تين شي!

سألته عما تقصده فضحكت، وقالت إنها لا تريد إفسادها. سألته سلمي كيف تشعر بنفسها لبنانية أم أمريكية؟ وما إذا كانت تريد أن تعود يوماً للحياة في لبنان؟ وجيسي تضحك وتقول لها:

- لبنان؟ والله أنا بصحى كل يوم، وأحمد الله إنه ماني عايشة بدولة عربية!

وسلمى تحكي لها قصصها هي و"عمود" زميلها بكلية التجارة الذي تحبه، والصعوبات التي تواجهها معه ومع نفسها ومع صديقاتها ومع أبيها ومع أمها، "تناقضات حياة البنات في مصر"، قالت سلمى. أحياناً تشعر أنها "قرية من ربنا" وأنها تود أن تقترب منه أكثر، وأن تتوقف عن كل

الأشياء التي يمكن أن تغضبه. وأحياناً تشعر أن هذه الأمور كلها ثقيلة. سألته جيسي أي أمور؟ فردت: "كل الأمور، كل هذه القواعد. أحياناً أشعر أنني أعيش في سلسلة لا تنتهي من القواعد، وأني الوحيدة التي تعيش هكذا". قالت سلمى إن الناس تكسر القواعد طول الوقت، ولكن أمها تتخيل أن الناس يلتزمون بها. وهي تعلم، وترى صديقاتها، وتعلم إلى أي حد يفعلون "كل شيء" ولكن في السر، لكنهما في نفس الوقت لا تريد ذلك، لا تريد أن تغش أمها، أو أن تخون ثقة أبيها، ولا تريد أن تعيش في قفص من حديد. ولا تعرف ماذا تفعل. سكنت طويلاً، ثم أضافت - وكأنها تذبح سرّاً - أنها تعرف فتاة في بركلين، إحدى قريبات خالة أمها أميرة، قالت لها منذ أسبوع إنها تحسدها على بلوغ الواحدة والعشرين. سألته لم؟ فقالت إنها تنتظر هذا السن بغاوغ الصبر كي تترك المنزل وتقر من بيت أهلها. شعرت سلمى بالهلع لسماع ذلك، وسألت الفتاة لم؟ فأجابته تلك بأنها لا تريد أن تكون مسلمة. "نصوري؟ سألته لم؟ فقالت لي إنها لا تريد أن تتبع ديناً يجعلها تشعر بالذنب طول الوقت". صمتت سلمى، وربت جيسي على كتفها في صمت.

سألته جيسي عن أبيها، وما إذا كان قد حدثت في كل هذا، فحدثتها عن اختفائها الدائم لأبيها، واشتكت من أنه رغم وجوده بنيويورك هذه الأيام، فإنها لم تتمكن من رؤيته إلا مرات قليلة. سألته جيسي بحرص عن أمها، وما إذا كانت بالصرامة التي تشاع عنها، فضحكت سلمى وقالت إن أمها مزاجية أكثر منها صارمة. سلمى تحكي وتسال، وجيسي تدور بها في

واشنطن: أخذتها للبيت الأبيض، والكونغرس، والمحكمة العليا، والنصب التذكاري لأبراهام لنكولن وتوماس جيفرسون، والمقبرة العسكرية بارلنتون حيث يرقد بعض ضحايا الحروب الأمريكية العديدة، والبنك الدولي، ومتحف القضاء، والمتحف التذكاري لضحايا عرقه النازيين، وسلمى سعيدة بكل هذه الأشياء، التي تسمع عنها طول حياتها وترأها لأول مرة. تلمطر جيسي بالأسئلة وجيسي تضحك، وتأخذها لأماكن جديدة وتطعمها وترد على أسئلتها. ثم فجأة حلّ عليها موعد قطار العودة إلى نيويورك، وإلى جدها الصامت وأبيها الغائب، وخريطة للثروة. كيف مر الوقت بسرعة هكذا؟ حاولت التفاوض مع جدها بالتليفون كي تبقى فترة أطول، لكنه رفض فوراً. كانت تعلم أن ذلك صعب، فهناك ارتباطات أخرى لها في نيويورك غير حفلة عيد الميلاد: هناك أبوها، وهناك أميرة خالة أمها. عندما فاتها القطار، قررت جيسي أن تأخذها في نزعة إضافية بقارب الكاباك في نهر البوتومك، وطاردت سلمى من الفرقة. ربكاً سوياً في القارب الضيق واندفعوا وسط مياه النهر وسلمى تصرخ من الانطلاق: ليس لديها أدنى فكرة عن التجديف، لكنها تفعل ما تقوله لها جيسي.

بعد قليل توقفتا في وسط النهر للاستراحة والتأمل. جميل نهر البوتومك، قالت سلمى، وأومات جيسي مؤكدة. تشجعت سلمى، وسألها بغنة عن الموضوع الذي لم تجرؤ أن تسأله عنه حتى الآن. قالت بحرص إنها سمعت أمها تتناقش مع أبيها بالتليفون قبل سفرها حول برنامج الرحلة، وأن أمها احتدت على أبيها عندما علمت أن سلمى ستقيم عند جيسي في واشنطن وليس عند صديقتها القديمة رباب التي

تتبع في آخر لحظة أنها ستكون خارج المدينة، وسأله بغضب كيف يسمح بأن تقيم ابنته عند امرأة غير سوية! سألته لماذا تقول عنها إنها غير سوية؟ صمتت جيسي لحظات، ثم أجابت بهدوء، إن الناس مختلفين فيما يريدون، وإن الإنسان يجب عليه أن يعرف ويفعل ما يريد هو ليس ما يريد الآخرون له. ثم أضافت أن بعض الناس - مثل أمها - لا يقبلون بهذه الاختلافات. قالت هذا، ثم طلبت منها: مخرج أن تجذف كيلا يدور القارب حول نفسه، ولم يعودا لهذا الحديث.

فكرت سلمى أن هذه الرحلة كلَّها متناقضات. اقترحها الجد، وعارضتها أمها بشدة، لكنها في النهاية وافقت تحت ضغط حاسم من جدها. تستغرب سلمى علاقة أمها بجدها، وسألته عن ذلك لكنها لم تحصل على جواب شاف. سألت أمها: "لم لا تذهب لزيارته في نيويورك أبداً؟" فأجابت الأم إنها لا تذهب لنيويورك. كيف لا تذهب وقد عاشت فيها عشر سنوات في النهاية وافقت الأم، لكن بشرط أن تكون سلمى في رعاية الجد، وخالتها أميرة وزوجها، وهما نوعية تختلف تماماً عن جدها. في نفس الوقت، ورغم وجود أبو سلمى في نيويورك هذه الأيام، فإن الأم رفضت رفضاً قاطعاً أن تقيم عنده، وكان لها ما أرادت، وأصبحت سلمى نزاه وتخرج معه، لكنها لا تقيم معه. لم يستسلم الجميع لأمها هكذا؟ ولم يستسلم الأب لها حتى بعد طلاقهما؟ توذ لو تسأله لكنها لا تجرؤ. فكرت في أن تسأل جيسي، فهي صديقتها، لكنها لم تجرؤ أيضاً. فكرت أن تسأل خالة أمها، منط أميرة، لكنها شديدة الالتزام بالأصول والتقاليد، ولن تجيبها.

أثناء إقامتها مع خالة أمها ببروكلين أخذتها للمسجد الذي يؤمه زوجها الشيخ داود، وعرفتها على بعض الفتيات العرب ممن يدرسن بالأمريكا. في طريق العودة سألتها طنط أميرة عما إذا كانت أمريكية قد أعجبتها، ولما أجابت بالإيجاب قالت لها إن أمريكية بلد جميل ومليء بالنعم التي لا يقدّر ها أهلها. سألتها عن جامعتها بالقاهرة، ولردفت بعد أن استمعت بإمعان لرد سلمي أنه من الخسارة ألا تدرس بالأمريكا حيث الفرص متاحة للتعلّم بلا حدود، وحكت لها عن مصريين يعيشون بالأمريكا، ويدرسون ويقومون بأشياء مذهلة بعد ذلك خدمة لأهلهم ووطنهم وأمتهم. تدخل الشيخ داود في الحديث شارحاً:

— فيه ناس فاكدة إته علشان أمريكا مش بلد مسلمة يبقى مفهانش مكان للمسلمين، بالعكس، دي أرض الله قطعها لعباده، والمفروض للمسلمين يعثروها زي أي شعب ثاني ما يعمل. بصي حواليك تلاقي كل الجنسيات ما شاء الله، وناس من كل ملّة بتبني وتخترع وتغشّر، ليه اللسلمون يعزلوا أنفسهم؟

سألتها الحالة مباشرة إن كانت قد فكّرت في البقاء واستكمال دراستها بالأمريكا، وما إذا كانت تعتقد أن أمها ستوافق. طنط أميرة تعلم تحفظات أمها على الحياة في أمريكا، هي التي تركت أمريكا طواعية، وعادت لتستقر بمصر. صمتت سلمي وهي تفكر، لم غيّر طنط أميرة من موقفها: في البدء عارضت مجيئها لأمريكا، والآن تريد أن تستقر بها! أعادت أميرة السؤال، فردّت سلمي أنها فكرت في ذلك، ثم صمتت. كانت

أوقفت جيسي سيارتها أمام "محطة الوحدة" فألقت سلمي من أنكارها السارحة. دخلتا المحطة وجلستا في المقهى الرئيسي بهو المحطة من جديد حتى جاء موعد القطار. عاتقنها جيسي، ومشت معها حتى آخر نقطة ممكنة ولوّحت لها وهي تمضي نحو رصيف قطارها. سلمي أحبت جيسي، لكنها تخاف. تحب أن تكون مثل جيسي عندما تكبر: قوية ومستقلة، لكنها لا تريد أن تكون "غير سوية". تريد أن يجعلها مميّزها محبوبه أكثر، لا أن ينتهي بها الأمر وحيدة مثل جيسي. لكنها أحبت أبامها أطفالاً، لا أن ينتهي بها الأمر وحيدة مثل جيسي. لكنها أحبت أبامها الثلاثة معها، ومزوا كأنهم حلم. وهي الآن تقيق شيئاً فشيئاً لتجد نفسها في عربة القطار شبه الخاوية هذه، والليل يقارب على منتصفه وهي على بلوغ الواحدة والعشرين. تستصل لمحطة بنسلفانيا في نيويورك في الحادية عشرة وخمسة وعشرين دقيقة. اتصلت بجدها مرتين في الطريق؛ حدّثها مرة ولم يرد في المرة الثانية. ربما يكون مشغولاً مع المدعوين. تشعر بالأسف الآن أنها فوتت حفلة عيد ميلادها؛ مسكين جدّها، تجشّم كلّ هذا العناء من أجلها وهي بتخلّفها تسبّب في إفساد الليلة. اتصلت أيضاً بخالة أمها، أميرة، التي حضرتها من المحطة في هذا الوقت، فهي تفرّغ من مراتبها وموظفيها وتستقطب للتسكّع والشكاري. حتى سيارات الأجرة لا تنظر أمام المحطة في هذه الساعة لقلّة القادمين. نصحتها بالخروج من رصيف القطار إلى الباب الرئيسي في منتصف صالة المحطة، لأنّ الأبواب الأخرى تغلق قبل منتصف الليل. ستفعل ذلك، سيكون كلّ شيء على مايرام، هكذا قالت في سرها، لكنها تلوم نفسها: كيف اقترفت مثل هذا الخطأ الشخيف؟

المحادثة تدور في السيارة وسلمى ذاهبة مع أهل أمها في نزعة إنشاء نهاية الأسبوع الذي تقضيه عندهم بروكلين وفقاً لما اتفقت عليه أمها مع الجد. كل شيء مُعقد مع هذه الأم، كل خطوة مناقشات ومفاوضات. السيارة تعبر جسر بروكلين، وقطرات مطر خفيف تتناثر على زجاج السيارة، وصوت واعظ ما يأتي من جهاز التسجيل مُحدثاً عن فضائل الجهاد. بدأ التوتر على داوود وهو يقود السيارة، قُرب رأسه من زجاج السيارة كي يرى:

- أجييلك الضلّالة يا بابا؟

- أبوه الله يخليك؛ مش عايزين البنت تفكرني بسوق وحش!

ابنسم وابنسم أميرة. فُخل داوود مساحات السيارة، فأخذت تُصدر ذلك الصوت الرتيب لمسح زجاج غير مبالي بالكامل. صوت الواعظ يأتي من جهاز التسجيل، وفراخ طلط أميرة يحيط بكفها. شعرت سلمى بالاختناق:

- ما أنتكرش ماما توفلق، ولا بابا، وبعدين دي أكيد مكلفة قوي.

- إنت بتقدير كإن إيه في الجامعة السنة دي؟

أجابته سلمى بأنها حصلت على تقدير "امتياز" هذه السنة أيضاً، فحيثها أميرة على تفوقها وهي تربت على كنفها. ثم أردفت أنه قد يكون من الممكن تدبير منحة دراسية لها للدراسة الماجستير في أمريكا إن أرادت،

وأن هناك جمعية خيرية تُقدّم مثل هذه المنح يعرف الشيخ داوود القائمين على أمرها، ويمكنه مساعدتها في الحصول على إحدى منحها مادامت درجاتها بهذا المستوى. سيكون عليها أن "تلتزم دينياً" بعض الشيء، لكن في المقابل ستكون الجسمة بكل مصروفاتها حتى تتخرج، وتساعدتها في العثور على عمل، والاستقرار في أمريكا: "ده أنا كمان عندي ليك عريس، والله شاب زي القمر وابن ناس، ومولود هنا وملتزم. وحاناخذني الجنسية. بس لما تكبري شوية. يعني ممكن تفكر في خطوة آخر السنة، وبعدين نبقوا نتجوزوا لما تتخرجي"، قالت، وعُزمتها في جنبها. شكرتها سلمى بالانقباض، لكن طلط أميرة أخت عليها أن تفكر ملياً، وأردفت أنها ستُحدث أمها عن الموضوع.

توقف القطار مرة أخرى، ودفقت سلمى عبر الشباك فرأت بافطة كبيرة تقول "محطة بن" - اختصاراً لبسلفاتيا. جذبت حقيبها ظهرها وخرجت بسرعة من عربة القطار، وسارت على الرصيف في ثبات باتجاه علامة الخروج. رحل القطار في الاتجاه المضاد، وشعرت بلقحة الهواء تدفعها قليلاً، وابنسم لنفسها في ثقة: "أنا في أمريكا، وحدي، في محطة قطار. أنتقل بين واشنطن ونيويورك وحدي، أعيد أغراضي بنفسي وأنظم تذاكري ونقودي، وأمشي وفقاً لخريطة، وأتفني بأناس لم أقابلهم من قبل، وأنتقل من بلد لآخر، ومن مطار لآخر، ومن محطة لأخرى. أمشي بجوار القطارات المسافرة التي تلتفحني بهوائها، أعبر شوارع لم أرها من قبل، وأتحدث مع أجناب بلغتهم. أين أنا من تلك الطفلة الحائفة التي تمسكها أمها من يدها، وتقودها من باب السيارة حتى باب المدرسة؟" ابنسم



لنفسها راضية، وشعرت بموجة من القوة تحتها. أخرجت "الآي بود" من حقيبتها، وضعت سماعاته البيضاء الصغيرة في أذنيها، واستأنفت الاستماع لفرقة "وسط البلد" التي تحبها. بدت إشارات الصالة الرئيسية للمحطة مختلفة بعض الشيء عن يوم ركبت القطار إلى واشنطن. توقفت لتأكد من صحة الاتجاه الذي ستأخذه. أحكمت إغلاق معطفها الرمادي، وتوجهت نحو الباب الرئيسي. لفحها الهواء عند الخروج، ولكنها وجدت ناكسياً واقفاً ينتظر، فتوجهت إليه مباشرة وفتحت الباب وهي تحيي السائق بهزة من رأسها - كما قالت لها جيسي أن تفعل - ودخلت:

- تقاطع 79 مع ريفر سايد من فضلك.

- هه؟

- شارع 79 مع طريق ريفر سايد!

- أين هذا؟

- أين هذا؟ في مانهاتن! الجانب الغربي!

- مانهاتن! آتسه، نحن في نيو جيرسي.

- نيو جيرسي! كيف؟ أليست هذه محطة بن؟

- نعم، محطة بن نيو جيرسي. كان يجب أن تهبطي في المحطة القادمة، بن نيو يورك.

- فعلاً؟ لماذا تحمل عطشان نفس الاسم؟ طيب، ممكن توصلني، وسادفع لك ما يحدده العناد؟

- لا بالآتسه، هذه تكلفة كبيرة، وليس لدي الوقت للذهاب والعودة، ولن أجد من يريد العودة معي. الأفضل أن تأخذي القطار مرة أخرى؛ إنها محطة قطار واحدة.

غادرت التاكسي متكبرة، وقد تبخر إحساسها بالرضا والشجاعة. تلوم نفسها مرة أخرى: "كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟" للمحطة الغربية تبدو الآن مهجورة تماماً. ذهبت لشباك التذاكر الوحيد المضاء، وسألت السيدة القابعة خلفه عن القطار التالي لمحطة "بن نيو يورك"، فقالت لها إن القطار آت بعد خمس دقائق وهو الأخير. وتبتهتها أن تسرع لأن اللحظة ستغلق عند رحيله. اشتريت تذكرة بسرعة، وسألها عن الرصيف الذي سيتوقف عنده القطار فأشارت إلى الراوية الأخرى من الصالة. بدت لها الراوية مظلمة تماماً، فأعادت السؤال عن المكان تحديداً لكنها لم تسمع ما غمغمت به السيدة من خلف الحاجز الزجاجي السميك للشباك. كزرت السؤال، لكن السيدة تظاهرت بعدم الانتباه وتجنبت النظر إليها. وقفت سلمى لحظة تنتظر لكن السيدة واصلت تجنب النظر إليها وبدأت تجمع أوراقها. تحركت سلمى في الاتجاه الذي أشارت إليه السيدة. محال الأطعمة السريعة كلها أغلقت نازكة بعض الإضاءة لكن الناس رحلوا. كشك الجرائد، الصيدلية، ومحال أخرى مبهمة الغرض، كلها أغلقت وبدت المحطة موحشة وتشبه أماكن وقوع جرائم القتل والاغتصاب في

الأفلام. وصلت لزاوية الصالة، ورأت علامة ترشد لمكان الرصيف، لكنها ليست متأكدة من أنه الرصيف الصحيح. نظرت لتذكرتها لكن نظرتها المرتبكة ارتطمت بأرقام كثيرة، ولم تستطع تمييز رقم الرصيف من رقم القطار من رقم التذكرة من رقم البائعة. سارت حيث تشير اللافة في عمر يتبعي بسلم مظلم تمامًا. ارتجف قلبها قليلًا وهي تخطو على أول السلم، وتدعو في سرها أن يكون هذا هو الطريق الصحيح. لم يبق سوى بضعة دقائق، ولو فاتها القطار الأخير فكيف تعود لبيت جدتها؟ وأين تذهب في هذه الحالة؟ وكيف تقضي الليلة؟ عند منتصف السلم سمعت أصواتًا عالية آتية من خلفها. التفتت تلقائيًا، فوجدت أربعة شباب يتصاحبون ويتدافعون في أعلى السلم. الأربعة ضخام الجثة يرتدون فائلات واسعة عليها أرقام لاعبين بالخط العريض، وسراويلهم تتدلى تحت الحصر. أحدهم - مفتول العضلات - وبغضبي رأسه في منديل أسود كقاتلي الدراجات النارية، والثلاثة الآخرون تتدلى شعورهم على أكتافهم. نادوا عليها. غاص قلبها ولم ترد. "لم يكن ينقصني إلا هذا" وضعت يدها تلقائيًا على السماعية اليمنى في أذنها كأنها لتنبههم أنها لا تسمعهم، وحثت الخطى حتى وصلت لنهاية السلم. تسمع نداءات الأربعة، وضحكاتهم الصاخبة من وراءها:

- يا كوكوتة، حل ضللتني الطريق لأملك؟

- تعالي. سنمنحك توصيلة مجانية.

- تعالي لا تخيفك عضلاته، إنه أليف!

تسرع أكثر باتجاه الرصيف، وصلت لحاجز التذاكر. مازالت غير متأكدة من أن هذا هو الرصيف الصحيح، لكنها لم تجد أحدًا تسأله أو علامة تدلها، فأخرجت التذكرة ووضعتها في الماكينة، وعبرت الحاجز في نفس اللحظة التي قفز فيها الأربعة فوق الحواجز الأخرى المحيطة بها. تظاهرت بأنها لا تعبرهم اتباعًا، وسارت باتجاه الرصيف والأربعة يسرون من حولها يتصاحبون ويشيرون لها بحركات لا تفهمها. التفتت فوجدت رجلي شرطة آتيان خلف حواجز التذاكر التي عبرتها لتوها. تنفست الصعداء وعادت مسرعة باتجاههم. عبرت حاجز الخروج وتوجهت إليهما. لم يتبعها أي من الأربعة.

- من فضلك.

لم يرد أي من الشرطين اللذين كانا يتحدثان. فاقتربت منهما أكثر حتى وقفت أمامهما:

- من فضلك.

نظرا إليهما. بدأت تقول لهما إنها ضلت الطريق، وإنها تريد العودة لمحطة ب في نيويورك، وإنها مصربة، وإن هناك شباب يخيفونها، وإنها لا تعرف أين سيقف القطار الأخير القادم، فصارعت أنفاسها واختقت صوتها. ابتسم أحد الشرطين، وقال لها بلهجة محايدة:

- آتسة: لماذا لا نتنحين جانبًا حتى تتماكني نفسك، ثم تقولين لنا ماذا تريدن؟

ثم واصل الحديث مع زميله. نظرت ناحية الرصيف. كان الشباب الأربعة واقفين ينظرون لها ويضحكون. صمتت لحظة وتنفست بعمق. قالت لها أمها ذات مرة إن الهدوء أهم شيء في هذه المواقف. استجمعت ما استطاعت من هدوء، وقررت التركيز على الموضوع الأهم. واضح أن الشرطين لن يأخذاهما للبيت. إذن المهم هو العثور على القطار الصحيح، وربما دفعهما لرافقتها حتى باب القطار.

- أنا تائهة، وأبحث عن القطار الذاهب لمحطة بن نيويورك. هل يمكنكم مساعدتي؟

- آه، الآن تقولين كلامًا مفهوميًا. نعم، هذا هو الرصيف الذي خرجت منه لتوك. عودي إلى هناك بسرعة، وانتهي لأن المحطة أغلقت. فهذا هو آخر قطار يدخل أو يخرج من المحطة اليوم.

- هل يمكنكم مرافقتي؟ أنا خائفة من هؤلاء الأربعة على الرصيف.

- لماذا؟ ماذا فعلوا؟ هل هددك أحدهم؟ هل تريدن تحرير شكوى؟

- لا، أريد فقط العودة لنيويورك، ولكنهم يخيفونني.

- أنا لا أفهم لماذا يخيفونك إن لم يكن أحد منهم قد هددك. ألا تفهم سود؟

كان الشرطي أسود البشرة.

- أبدًا، لكن حركاتهم وإشاراتهم لي تخيف...

- آتسة! ماذا تقترحين أن نفعل؟ نوقر لك حراسة خاصة حتى تصلين للبيت!

وهنا اختنق صوتها مرة أخرى في حين تصاعدت الضجة الآتية من ناحية الرصيف. التفتت فشاهدت مقدمة القطار تدخل بداية الرصيف. نظر إليها الشرطيان في مزيج من التعجب والاستخفاف. نظرت إلى الأربعة الذين كانوا يشيرون لها أن تسرع للحاق بالقطار. تمهل القطار بجوار الرصيف، وتوقف ثم انفتحت أبوابه. تلتفت بين الشرطين اللذين عاودا المسير وبين الشباب الأربعة، وهرعت نحو القطار. رفض حاجز التذاكر قبول تذكرتها التي استعملتها منذ دقائق فقفزت بحقيبتها من فوقه دون تفكير، وجررت ناحية القطار. صق لها الشباب الأربعة الذين كانوا مازالوا واقفين يشجعونها. سمعت أحد الشرطين يناديها مستكزًا، لكنها كانت قد وصلت لباب القطار ودخلت. دخل ورائها الشباب الأربعة واتعلق الباب، وتحرك القطار بسرعة مثلما جاء.

كانت العربة شبه خاوية فيما عدا الشباب الأربعة الذين جلس ثلاثة منهم حولها ووقف الرابع بجوارهم. مسحت بطرف عينها الركاب الجمالسين بالعربة فلم تجد سوى ثلاثة. في منتصف العربة رجل طاعن في السن زائغ النظرات، يبدو وكأن الحياة قد حطمته بشكل ما. في آخر العربة رجلان في أسمال بالية يجلس كل منهما وحده، ويمسك أحدهما بزجاجة في كيس ورقي يحسني منها رشقة كل نصف دقيقة. أخرجت تليفونها بارتباك، واتصلت بجدها مرة أخرى. الجرس يندق. تنظر للشباب بطرف عينها وهي تنظاظر بالثبات، وتحت الجهد العجوز على الرد.

- جدوا!

- أهلاً يا سلمي.

- بص أنا حصلت لي مصائب من ساعة ما كلمتك آخر مرة.

- مصائب مرة واحدة! أنتِ فين؟

قضت سلمي عليه القصة بسرعة، فطلب منها أن تهدأ، لأن معظم هذه المخاوف أو هام تتردى للفتاة عندما تكون وحيدة في محطة قطار أو في صحبة مجموعة شباب.

- تصرفتني بشكل طبيعي، وسيتصرفوا معك بشكل طبيعي.

- طبيعي؟ لا، أنت مش فاهم، دول مرعيين.

- علشان سود؟

- سود إيه ماجدوا أنا مش متخلفة: دول بجد مرعيين. أنا خايفة قوي.

- ماتخافيش يا بتي. باللا متبقيش عيلة. كلها خمس دقائق وتوصل في محطة بن. خدي "تاكسي" وتعال على طول.

طلبت خالة أمها. دقّ الجرس مرة، وجاء صوت الحالة أميرة:

- أبوة يا حبيبتي أنتِ فين؟ فلقنتيني عليكِ؟ أنتِ لسة ماوصلتيش؟

- طنط أميرة: أنا خايفة!

أخذت أميرة تُهدئ من روعها. بعد لحظات من البكاء والتهنئة استكانت سلمي، وأخبرتها بما يحدث. تشعر على الفور أنها تفهمها! لا تحتاج للشرح مثلما الحال مع الشرطين، أو حتى مع جدتها. تقول لها أربع شباب ضخم، تفهم على الفور نوع الخطر. تقول لها إن المحطة مظلمة، فتعرف تمامًا كيف تشعر. نصحتها بأقصى درجات الحذر، فهي لا تعرف ما يريد بها هؤلاء الشباب الذي لا ضابط لهم ولا رادع.

- يعني أعمل إيه؟

- ماتخافيش حد منهم يهوّب ناحيتك. لو حد منهم لمسك اضربيه بأي حاجة معاك في أكثر مكان حساس تلاقيه قدامك. لا تخافني ولا ترددي. اضربيه واضربي بأعلى صوتك "حريقة" وشدي الإيد الحمراء بتاعة الطوارئ. اعملي كل ده في نفس الوقت وماتخافيش. الباقين حايفافوا ويحجروا، دول كلهم جبا.

- حاضر. لو حد عملي حاجة هاعمل كدة.

- ماتستنيش حد يعملك حاجة يا بتي. لو حد بس حط إيده عليكِ اعملي كدة. لو حسوا أنك ضعيفة مش حابر حموك. الحاجات مافيهاش هذار. لو اترددت حاتقضي طول عمرك تدسي. أنتِ مامعاكيش البخاخة؟

- بخاخة إيه؟

- والله مش عارفه إزاي أبوك وجدك سايبينك عشي كدة!

- طيب ياغلط ....

ثم مات التليفون. نظرت له وأدركت أن البطارية فرغت، وشعرت بمزيد من القلق. عجالات العربية تهتز بشدة، ويصخب صوت الفطار وهو يدخل في أنفاق يمتد لسلمى غاية في الضيق. الأربعة يتحدثون مع بعضهم ويحدثونها، ويشيرون بأيديهم وأذرعهم بإيقاع متسارع وهي ترفع من صوت الموسيقى في أذنيها. لا تسمع كل ما يقوله، لكنها تميز ألفاظاً نائية وإشارات جنسية من حين لآخر. هكذا رأت هذه الإشارات في الأفلام - عادة قبل أن يهاجم المحرم ضحيته. موسيقى "وسط البلد" انتهت، وحلّت محلها فرقة البلاك بيز تطنّ في أذنيها، ودموعها تنسكب داخلها هلعاً وهي تتسائل عما سيحدث لها الآن: هل سيأخذون نقودها أم الكاميرا أم الحقنية كلها؟ أم سيخطفونها ويختصونها؟ أم سيقتلونها؟ أم سيعلنون ذلك كله بهذا الترتيب؟ كان معها نقود كثيرة، حوالى خمسمائة دولار، هي بقية المال الذي أعطاه لها أبوها. حملته معها من نيويورك لواشنطن لكنها لم تنجح لإنفاقه هناك. فكرت أن تعطيه المبلغ لعلهم يتركونها في حالها. لكن ماذا لو ظنوا أن معها أكثر؟ يمكن إذن أن تعطيه الحقنية كلها من الأول. ولكن ماذا عن الكاميرا والصور التي التقطتها خلال الرحلة كلها؟ أعود لمصر بلا صورة واحدة؟ لن يصدقها أحد إن قالت لهم إن الصور كلها قد سُرقت. "لا بهم"، قالت لنفسها: "اللجنة على الصور، وعلى كل هذه الرحلة. ماذا أتى بي إلى أمريكا أصلاً؟ لماذا

لم أنفسي الأجازة في الساحل الشمالي مع أسي؟ كان عمود على حق حين ثار وغضب مني. قال لي إن حديثي عن اكتشاف العالم ورواية أمريكا، والثقافة المختلفة محض هراء، وإنه كان يجب أن أنتظر حتى تسافر سوياً أنا وهو، ثم سألني إن كانت أسي تؤيد سفري لم أنها فكرة الأب؟ لم أرد. قال لي إنه لو كان مكان أبي مارتك ابنته تسافر وحدها.

ربما لم يكن أبي ليتركتني، لكنني تعلّقت بالفكرة عندما ذكرها جدي لأسي في التليفون، وألححت عليها وعليه حتى وافقا. ماذا لو حاول هؤلاء الوحوش اغتصابي الآن؟ لن يؤفّقهم أحد من هؤلاء الثلاثة الجالسين في نهاية العربية: هم بالكاد يتماثلون أنفسهم. هل أستطيع مقاومتهم لو هجموا عليّ؟ ربما لو فعلت ما قالت أميرة وضربت واحداً منهم بشدة في مكان حساس لخلاف الآخرون وانصرفوا لكن ماذا لو لم ينصرفوا؟ ماذا لو كانوا يمشون وليس في نيتهم أن يفعلوا بي شيئاً حقيقياً؟ ربما يستخفّون دمعهم لو يريدون إغاثتي. ماذا لو هجموا عليّ وقيدوني قبل أن يفعلوا بي شيئاً؟ قالت لي أسي ذات مرة إن البيت لا يمكن اغتصابها لو قاومت بشدة، مجرد أن تضم عضلاتها بشدة وترفض. لكن ماذا لو ضربوني حتى أفقد السيطرة على عضلاتي؟ ماذا لو فعلوا شيئاً يجعل عضلاتي تنفك من تلقاء نفسها؟ كيف لي أن أعرف ما يمكن أن يفعله بي هؤلاء؟ لابد وأنهم يعرفون طرقاً تجعل البيت تستسلم. هل استسلم أفضل من البداية؟ إذا كانوا سيختصّبوني في كل حال، ألا يكون من الأفضل أن أفعل ذلك طواعية - ربما لا يؤذونني عندما؟ ربما يمكنني أن أقرر بهم وأنظماهم بالوافقة، كي أكسب وقتاً حتى تسع لي فرصة للهروب.

ولكن لو فعلت ذلك ثم لم أستطع الهرب، فماذا يجعلني هذا؟ أليس من الأفضل أن أقاوم؟ على الأقل أكون قد حاولت. كيف أواجه أهلي وأصدقائي بعد ذلك؟ ماذا سيكون رد فعل أبي؟ ربما سيواسيني ويقول لي إنها تجربة يجب أن أتعلّم منها! ماذا ستقول طوط أميرة وزوجها اللذان استكرا سفري لواشنطن وحدي؟ باليتني سمعت كلامهما.

ومحمود: هل سيقبل بي بعد هذا أم سيتركني؟ وحتى لو لم يتركني، كيف أظل أنا معه وأنا أعلم فيم يفكر؟ وصديقائي بالجامعة: ماذا سيقولن عني من وراء ظهري؟ لا، لا أستطيع أن أعيش بعد ذلك، خير لي أن أقاومهم حتى يقتلوني."

يفرض قلبها أكثر مع كل ثانية عمر، وتشعر بضعفها أكثر، وتريد أن تنهار باكياً، وأن ترجوهم أن يتركوها تذهب في حال سبيلها. لكنّها تنظّاهر بالثبات وتنظر أمامها وكأنهم غير موجودين. وهم يحتاجون أكثر إزاء تجاهلها لهم، ويتحوّل مرحهم لضيق ثم غضب. تدعو الله في سرها ألا يلمسها أحد. وضع واحد منهم يده على حقيبتها فوجهت له نظرة حادة فنظّاهر بالحرف ساخراً. تدعو ألا يلمسها. لو لمسها ماذا ستفعل؟ هل ستضربه فعلاً؟ هل ستقوى؟ أم تفوّت أول مرة. لكنّها لو فوّت أول مرة سيتمادى، وبعدها سيفوت الوقت. هذا ما قالته طوط أميرة. تدعو الله ألا يلمسها وهي تضع يدها في جيب اللعطف، وتمسك بقلمها وكأنه سكين.

أبقت يدها في جيبيها. القطار يقترب من محطة ما ليست متأكّدة أنها

"ين نيويورك". نظرت بطرف عنها لرصيف المحطة في حين تحرك ناحيتها مفتول العضلات فجأة، ووضع ذراعه حول كتفها وتمس شيئاً في أذنها لم تسمعه. تراجعت بكتفها لكنه أحكم قبضته عليها. لم بعد هناك مجال للشك. لابد أن تفعل شيئاً وفوراً. اقترب بوجهه من وجهها فأخرجت يدها من جيبيها، وبقوة غضبها وخوفها ممّا غرست القلم في وجهه، لا تدري أين استقرّ على وجه التحديد. دخل القطار المحطة في نفس اللحظة التي صرخ فيها الفتى وهوى على الأرض ممسكاً بوجهه، ولمحت دماً ينبثق. الثلاثة الآخرون ينظرون لزميلهم الواقع على الأرض في مزيج من البلاهة والصدمة. قفزت من باب القطار الذي انفتح وجرت وهي تزنو لاسم المحطة: ليست "ين نيويورك". جرت على الرصيف وحدها، ثم سمعته يصرخون ويسبونوا. سمعت صوت إنذار إغلاق الباب فقفزت داخل العربة التي وجدتها بجانبها، وانغلق الباب قبل أن يصل الأربعة إليها. أخذوا يدقون على زجاج الباب بصوت عال ويتعدونها والفتى الجريح يضع يده على عينه، ويغطي الدم وجهه. نظرت إليهم والدموع تصعد لعينيها، وودّعت لو استطاعت ركلمهم في بطونهم حتى يسقطون ألاماً. أشارت لهم بإصبعها بالحركة النابية الوحيدة التي تعرفها، وهي واقفة بيننا وبينهم زجاج نافذة القطار. تسمع وعيدهم وسبابهم من شرارة النافذة المفتوحة. مدّت يدها تحاول إغلاق الشرارة، وفي نفس اللحظة شعرت بشيء حاد يشقّ وجهها، ولمحت نصلاً يلمع وينعكس لمعانه في زجاج النافذة. طوى القطار المحطة وهي تنظر نحو الفتى الواقف على الرصيف، ونصّله مُدُلٌّ إلى جانبه، والثاني من أصدقائه يجزّان زميلهما الجريح خلفه.

لن نسي هذا للشهد بقية حياتها. مدت يدها في تردد نحو الجرح في وجهها، وهي تخاف أن تنظر في زجاج النافذة. دخل القطار في نفق مظلم آخر. الدم ينطلي خدها: تشعر به لزجاً ثقيلاً ودافئاً يكسو وجهها شيئاً فشيئاً. مسحة يظرف كمها دون تكبر، وحاولت تبين الخريطة المرسومة على أحد جوانب القطار. محطة بن نيويورك هي القادمة. العربة خالية من الركاب تماماً. جلست وانكشئت في مقعدها تنظر من النافذة لجدار النفق، ثم للقضبان بلا هدف وهي تحاول تجاهل الدم السائل من وجهها، لكن تدفق الدم يتزايد. هذا القطار من سرعته ودخل المحطة. بدت بالغة كبيرة تملن "محطة بن". قامت بسرعة فشعرت بدوار. استندت للعمود المعدني المجاور للباب. توقفت القطار، فخرجت للرصيف على التو، وبدأت تركض ناحية الصالة الرئيسية.

تحرك القطار ولفحها هوائه، لكنها لم تعد تشعر بخبطة أو بغضب، فقط بدوار يتزايد. جال بخاطرهما أن الساعة تشرف ولا بد على منتصف الليل، وأنها ستبلغ الآن الواحدة والعشرين، ذلك السن السحري الذي كانت لا تصدق أنها يمكن أن تبلغه في يوم من الأيام. ربما كانت محقة ولن تبلغه؛ ستسقط الآن من الدوار، ومن هذا التزييف الذي لا يتوقف. قواها تخور بسرعة، ولا تعرف ماذا سيحدث لها بعد هذه اللحظة. ربما أمكنها التوقف عن الركض، والاعتماد على تليفون والاتصال بجدها، أو بالخالة أميرة، لكنهما لن يسعفهما الوقت ليأتيا. ستسقط الآن ولا ريب، ربما فوق القضبان أو بجوار القطار الواقف أو على الأرض. وستلتقطها بحرم ما ويقطعها إرباً ويبيحها أعضاء، وربما يختصمها قبل ذلك. هذه هي النهاية إذا.

أنت كل هذه المسافة كي تنتهي هنا، جثة ملقاة على رصيف محطة "بن" في الواحدة والعشرين. توقفت عن الركض، أو هكذا تحيل لها، وحاولت النظر كي تجد مكان الخروج، لكنها لا ترى سوى أشكالاً هائلة وأضواء متباينة. ثوانٍ ثم غامت الدنيا في عينيها، وسقطت على الأرض.

www.mlazna.com  
^RAYAHEEN^